BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ISSN 3283–2636

علوم المخطوط

دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد الرابع
٢٠٢١

مركز المخطوطات
Manuscripts Center

٤
علوم المخطوط دورية علمية سنوية محكَّمة (العدد الرابع ٢٠٢١)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

معجمات ابن فارس اللغوية الألفبائية
(مجمل اللغة ومقاييس اللغة)

دراسة في خطاب تحقيق التحقيق

أ.د. خالد فهمي(*)

ملخص البحث

يعالج هذا البحث نقطة دقيقة تقع في القلب من حقل: نقد تحقيق النصوص التراثية من منظور خصوصية نوع النص، ونسق تأليفه، وهي دراسة في خطاب (تحقيق التحقيق) تطبيقًا على معجمَي ابن فارس اللغوي (ت ٣٩٥هـ): مجمل اللغة، ومقاييس اللغة.

وقد تناول البحث المطالب التالية سعيًا لفحص مشكله:

١- مدخل: منزلة ابن فارس في تاريخ المعجمية العربية، وسهمته في تطويرها.

٢- معجمات ابن فارس اللغوية: مقالة في خطاب التأريخ للتحقيق المعاصر وعلاماته.

٣- منجز ابن فارس المعجمي الألفبائي: دراسة في خطاب تطبيق المكملات الحديثة للتحقيق.

وقد كشف البحث عن حضور وعي مبكر في العصر الحديث بقيمة المنجز المعجمي لابن فارس، يرجع إلى سنة ١٩١٤م، وحضور وعي جيد متفاوت بين المحققين لتطبيقات أصول التحقيق ومكملاته.

(*) أستاذ العلوم اللغوية بجامعة المنوفية، والخبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الكلمات المفتاحية: ابن فارس اللغوي - مجمل اللغة - مقاييس اللغة - نقد تحقيق النصوص التراثية.

Ibn Fāris' Alphabetical Dictionaries (Mujmal al-Lugha wa Maqāīs al-Lugha)

Study on Critical Editing Discourse

Prof. Khalid Fahmy(*)

Abstract

This study deals with a subtle point that lies at the heart of the field of critical editing of heritage texts that study the discourse of critical editing critique from the perspective of the specific nature of text and its composition pattern, as an application of Ibn Fāris' (d.395 AH) two dictionaries: Mujmal al-Lugha (Summary of the Language), and Maqāīs al-Lugha (the Analogical Templates of Language).

The study examines the following points:

1- Introduction: The status of Ibn Fāris in the history of Arabic lexicography and his contribution to the development of the field.

2- Ibn Fāris' An article on the dating discourse of modern verification and its features.

3- Ibn Fāris' achievement in his alphabetical dictionaries: A study of the discourse of application of modern supplementary matters to critical editing.

(*) Professor of Linguistics at the Faculty of Arts - Menoufia University, and Expert at the Academy of Arabic Language in Cairo

The study reveals the presence of an early awareness of the value of the lexicographical achievement of Ibn Fāris in the modern era, dating back to the year 1914 AD, and varied knowledge of the application of the fundamentals and supplementary matters of critical editing among critical editors.

Key words: Ibn Fāris' the lexicographer - Mujmal al-Lugha - Maqāīs al-Lugha - critique of critical editing of heritage.

(٠)

مدخل:
منزلة ابن فارس في تاريخ المعجمية العربية
وسهمته في تطويرها

يعد ابن فارس، أحمد بن فارس القزويني اللغوي (ت ٣٩٥هـ= ١٠٠٤م) أحد أهم اللسانيين العرب التراثيين بوجه عام، وأحد أهم المعجميين العرب التراثيين بوجه خاص.

وهذا الحكم المستحَق قائم على عدة أعمدة، في الصدارة منها الارتكان إلى منجزه اللساني والمعجمي؛ فقد كان أحد أهم المنظِّرين لفقه العربية، وخصائص نظامها، وأسراره في عمله المرجعي بالغ القيمة (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) من جانب، وكان أحد أهم صانعي المعجمات اللغوية العامة، والمعجمات المختصة في تاريخ المعجمية العربية من جانب آخر. وهو ما يظهر من منجزه في هذا المجال الذي تمثل في عراقة منجزه في المعجمية العامة والمختصة، كما يتضح مما يلي:

(٠/ ١)
منجز أحمد بن فارس في المعجمية العامة

١- أبيات الاستشهاد.

٢- الإتباع والمزاوجة.

٣- تمام فصيح الكلام.

٤- كتاب الثلاثة في اللغة.

٥- كتاب الفرق.

٦- متخير الألفاظ.

٧- مجمل اللغة.

٨- المذكر والمؤنث.

٩- مقالة في أعضاء الإنسان.

١٠- مقاييس اللغة.

(٠/ ٢)
منجز أحمد بن فارس في المعجمية المختصة

١- أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ومعانيها.

٢- حلية الفقهاء.

كما يتمثل في التنوع المنهجي الذي حكم هذا المنجز، وهو التنوع الذي تجلى في العلامات التالية:

تنوع المدارس المعجمية التي ينضوي تحتها هذا المنجز؛ فقد صنع معجمات على وفاق المدرسة الألفبائية، والمدرسة الموضوعية؛ فضلًا عن تنوعات فرعية في داخل كل مدرسة.

تنوع الوظائف المعجمية المنشودة؛ تيسيرًا على جمهور المستعملين.

ابتكار عدد من الوظائف المعجمية مقارنةً بالأعمال المعجمية السابقة عليه، ولا سيما ابتكاره لنظرية الدلالات الأصول، أو المعاني المحورية.

من أجل ذلك كله توجهت عناية المحققين في العصر الحديث إلى تحقيق هذه الأعمال المرجعية/ المعجمية ونشرها، وفق أصول النشر النقدي الحديثة، ولقي عدد منها عنايات تحقيقية متكررة.

(١)
معجمات ابن فارس اللغوية:
مقالة في خطاب التأريخ للتحقيق المعاصر وعلاماته

ثمة محاولات كثيرة معاصرة توقفت أمام بيان التحقيقات التي ظهرت لمكتبة ابن فارس اللغوية بوجه عام، وفي أثنائها كان بيان التحقيقات التي ظهرت للمكتبة المعجمية له.

ولكن أكثر المحاولات استيعابًا، وتنظيمًا، وتدقيقًا للمعلومات كانت تلك التي صدرت عن كلٍّ من:

أولًا: الدكتور رمضان عبد التواب، في عدد من مقدمات تحقيقه لعدد من النصوص المعجمية التي حققها ونشرها نشرًا نقديًّا، من مثل ما ورد في مقدمة تحقيقه لما يلي:

أ- كتاب الثلاثة (انظر: ص ص: ٣٢٣ - ٣٣٢).

ب- كتاب الفرق (انظر: ص ص: ٢٣ - ٣٧).

ج- المذكر والمؤنث (انظر: ص ص: ١٧ - ٢٧).

ثانيًا: الأستاذ هلال ناجي، في المقالة الاستدراكية النقدية التي صنعها على تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب الثلاثة لابن فارس، وجعلها فصلًا في كتابه (هوامش تراثية، بغداد ١٩٧٣م، ص ص ٤٢ - ٤٤)، فضلًا عن العناية التي أولاها المحققون المعاصرون لهذه المسألة.

(١/ ١)
التأريخ للتحقيقات

وقد ظهر من تتبعهم وواقع المنشور من منجز أحمد بن فارس المعجمي ما يلي:

- أبيات الاستشهاد، تحقيق عبد السلام هارون (ضمن نوادر المخطوطات، ١٣٧٠هـ=١٩٥٠م) (١/ ١٥١ - ١٧٧).

- استعارة أسماء أعضاء الإنسان، تحقيق د. أحمد خان (ضمن نصوص في اللغة، كتاب المورد، بغداد، ١٩٨٧م، ص ص ٤٣ - ٧١).
- أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيها (تحقيق ماجد الذهبي، الكويت، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م).
- تمام فصيح الكلام، تحقيق إبراهيم السامرائي (ضمن رسائل في اللغة والأدب والتاريخ، الأردن، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م) (ص ص: ١٥٩ - ٢٠٢).
- تمام فصيح الكلام، تحقيق زيان أحمد الحاج إبراهيم (الكويت، ١٩٩٩م).
- كتاب الثلاثة، تحقيق د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٩٧٠م).
- كتاب الفرق، تحقيق د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م).
- كتاب المذكر والمؤنث، تحقيق د. رمضان عبد التواب (القاهرة، ١٩٦٩م).
- كتاب متخير الألفاظ، تحقيق هلال ناجي (الرباط، ١٩٧٠م).
- كتاب المجمل في اللغة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان (بيروت، ١٩٨٢م).
- كتاب المجمل في اللغة، تحقيق هادي حسن حمودي (الكويت، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م).
- كتاب مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، ١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م).
- كتاب حلية الفقهاء، تحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركي (بيروت، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م).

(١/ ٢)
علامات على التأريخ للتحقيقات

يتضح من فحص ببليوجرافيا تحقيقات المنجز المعجمي لابن فارس في العصر الحديث مجموعة الملحوظات التالية:

أولًا: انحصار العناية بتحقيق المنجز المعجمي لابن فارس في المشرق العربي، وعلى وجه التعيين في مصر والعراق بدرجة عالية وواضحة.

ثانيًا: التنبه شبه المبكر إلى تحقيق منجز ابن فارس المعجمي في العصر الحديث، بعد استقرار نسبي لتقاليد تحقيق النصوص في المجال العربي بعد نقلها من التقاليد الاستشراقية، وهو ما يظهر من تاريخ صدور نشرة الشنقيطي ١٩١٤م.

ثالثًا: ظهور عناية مختصة بتحقيق منجز ابن فارس المعجمي، بمعنى أن المحققين الذين توجهوا إلى تحقيق ذلك المنجز هم من أهل الاشتغال بالتراث اللغوي العربي عمومًا، ومن أهل الاشتغال بعلم المعجم عند العرب بوجه خاص، على ما يظهر من تحليل الانتماءات المهنية للدكتور إبراهيم السامرائي، والدكتور أحمد خان، والدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور زهير عبد المحسن سلطان، والدكتور هادي حسن حمودي، فضلًا عن عبد السلام هارون، وهلال ناجي، وغيرهم – إلى ميدان الدراسات اللغوية والمعجمية والتراثية العربية.

رابعًا: ظهور نشرات نقدية متكررة لعدد من الأعمال المعجمية لابن فارس، كما ظهر من تكرار تحقيق «تمام الفصيح»، وتكرار تحقيق «مجمل اللغة».

(٢)
المنجز المعجمي الألفبائي لابن فارس: خطاب تحقيق التحقيق التطبيقي

إذا صح -وهو صحيح إن شاء الله تعالى- أن المنجز المعجمي لابن فارس يعد من أصول الأعمال المعجمية في تاريخ المعجمية العربية التي لم يتجاوزها الزمن، وما تزال صالحة بصورة كبيرة جدًّا لدارسي اللغة العربية، ودارسي التراث العربي الإسلامي في مختلف حقوله المعرفية؛ فإن التوقف المتلبث أمام دراسة العناية التحقيقية المعاصرة له أمر ضروري جدًّا من المنظورات المعرفية والمنهجية على حدٍّ سواء، ومن ثم يكون فحص وجوه هذه العناية المعاصرة، من منظور خطاب تحقيق التحقيق، أو من منظور نقد التحقيق أمرًا مهمًّا جدًّا؛ لعدة اعتبارات في صدارتها الاعتبارات العلمية والمعرفية والحضارية.

وهذا الجزء من الدراسة يهدف إلى دراسة التحقيقات المعاصرة لمعجمات ابن فارس اللغوية، التي صنعها ورتّب مداخلها وفق نظام الترتيب الألفبائي من منظور تحقيق التحقيق أو نقد التحقيق.

(٢/ ١)
معجمات ابن فارس اللغوية الألفبائية من منظور تحقيق التحقيق: قراءة في تطبيقات الأسس

استقرت أسس تحقيق النصوص التراثية في التقاليد العربية المعاصرة، مدعومة برافدَيْن عظيمَيْن حققا لها هذا الاستقرار، هما: رافد التقاليد الاستشراقية المعاصرة في مجال النشر النقدي للنصوص، الذي عرفه العرب المعاصرون من طرق متنوعة، ورافد التقاليد العربية التراثية أو الجذور التي رعاها المحدثون والمؤرخون المسلمون، وأصّلوا أصولها.

وتتلخص هذه الأسس فيما يلي:

١- معايير الاختيار.

٢- جمع النسخ، وبيان منازلها.

٣- النسخ والمقابلة.

٤- المعالجة أوالتحقيق، أو استعادة الصورة التاريخية للنص مشغلة التحقيق.

وفيما يلي تحليل لعمل المحققين المعاصرين الذين نهضوا بتحقيق معجمات ابن فارس اللغوية الألفبائية.

(١)
خطاب معايير الاختيار للمنجز المعجمي لابن فارس لتحقيقه في العصر الحديث

شكّل التوجه المعاصر لتحقيق المنجز المعجمي لابن فارس في التقاليد العربية لتحقيق النصوص التراثية، نوع وعي ظاهر بحضور حزمة المعايير المنضبطة التي تحكم اختيار النصوص التراثية، وخدمتها، ونشرها نشرًا نقديًّا.

وقد تمثل وعي المحققين المعاصرين للمنجز المعجمي لابن فارس في المعايير التالية:

أولًا: الوعي بالقيمة العلمية لهذا المنجز المعجمي، وهي القيمة العلمية المتمثلة فيما يلي:

أ- خدمة هذه المعجمات لوظائف معجمية جديدة على تاريخ المعجمية العربية التراثية قبله، فقد نهض معجم مقاييس اللغة بخدمة الدلالات الأصول، أو المعاني المحورية، أو الحرص على بيان «جرثومة المعنى» المصاحبة للجذور اللغوية، وما يتصرف منها من ألفاظ لغوية [انظر: مقدمة تحقيق عبد السلام هارون لمقاييس اللغة (١/ ٤١ وما بعدها).

ب- اعتبار هذين المعجمين من الأعمال المعجمية الأصول في المعجمية العربية التراثية، يقول

عبد السلام هارون (١/ ٤٠): «إن ثمة نضجًا لغويًّا يتجلى في تصنيف ابن فارس معجمه مقاييس اللغة»، ويقول: إن «الناظر في الكتاب يلمس القوة»، وهو ما يقرره محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة تحقيقه الجزء الأول من المجمل (ص: ز).

ثانيًا: الوعي بالمنزلة العلمية الرائدة لابن فارس اللغوي، وهو الوعي الذي تمثل في الإدراك الواضح لمنزلة ابن فارس العلمية بوصفه لغويًّا فذًّا، توفرت له صفات الإتقان المتجلية فيما يلي:

أ- وثاقة ما يرويه من اللغة (١/ ٢١)، فقد «عُرف ابن فارس بالتزامه إيراد الصحيح من اللغات».

ب- شهادة المترجمين أو المؤرخين لحياته بمنزلته العلمية. (انظر بعض هذه الشهادات في مقدمة تحقيق هارون للمقاييس ١/ ٢١ - ٢٣).

ج- دلالة أعماله اللغوية والمعجمية على خدمته وإتقانه، يقول هارون (١/ ٢٣): «على أن ابن فارس... قد بلغ الغاية في الخدمة باللغة، وتكنُّه أسرارها، وفهم أصولها».

وهذا الحذق نمط وصل إلى مرتبة «الفَرَادة»، وهي أعلى المعايير التي تحمل على اختيار نص تراثي لتحقيقه في العصر الحديث، يقول هارون (١/ ٢٣): «وقد انفرد ابن فارس من بين اللغويين بهذا التأليف (المقاييس)، لم يسبقه أحد، ولم يخلفه أحد».

وقد اتفق لمحمد محيي الدين عبد الحميد أن قرر ذلك في مقدمة نشرته للجزء الأول من مجمل اللغة [مجمل اللغة، لابن فارس، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، سنة ١٩٤٧م] (ص: ز)؛ فقال: «ويعد كتاب (مجمل اللغة) لابن فارس من أمهات كتب اللغة، التي توخّى فيها مؤلفوها الصحة... وقد عرف له العلماء النقدة ذلك».

وقد استمر ذلك الإقرار بقيمة هذين المعجمين من جانب، ومنزلة أحمد بن فارس في تاريخ المعجمية العربية من جانب آخر عند العلماء على اختلاف الحِقب، وهو ما ترى مصداقه في مقدمات محققي معجماته المعاصرين. (انظر: مقدمة محمد محيي الدين عبد الحميد للمجمل ١/ ح، ومقدمة تحقيق زهير عبد المحسن سلطان للمجمل أيضًا ١/ ١٢ وما بعدها، ومقدمة تحقيق هادي حسن حمودي للمجمل ١/ ٧ ومابعدها).

ثالثًا: ظهور معيار وصول النسخ الخطية لمعجمات ابن فارس تامة كاملة، وهذا المعيار مهم جدًّا؛ لأنه شرط معرفي لازم لمفهوم التحقيق الذي استقر ونهض على عمادين هما:

أ- عماد استعادة الصورة التاريخية للنص، أو ما يعبَّر عنه أحيانًا بإنفاذ مراد المؤلف، ونشر نصه التراثي على وفاق مراده لو كان حيًّا، أو تحقيق رغبته على حد تعبير د. بشار عواد معروف.

ب- عماد وجود نسخ خطية أو نسخة خطية واحدة على الأقل.

وقد كان هذا المعيار متحقِّقًا بصورة جيدة من جانب وصول المخطوطات متسمة بما يلي:

- الاشتهار والذيوع والكثرة.
- الكمال والتمام.
- التنوع.
- قِدم بعضها.
- ثقة بعض النسخ من جهة ناسخها.
- صحة بعض النسخ؛ بسبب تملكها من عدد من العلماء المتقنين.

(٢)
خطاب تطبيق أصل جمع النسخ وترتيب منازلها لتحقيقه في العصر الحديث

(٢/ أ) خطاب تطبيق أصل جمع النسخ الخطية وترتيب منازلها في تحقيق معجم المجمل

نُشر معجم المجمل في المجال العربي أربع مرات كما يلي:

١- نشرة غير كاملة نهض بها الشيخ الشنقيطي سنة ١٩١٤م.

٢- نشرة غير كاملة نهض بها محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٧م.

٣- نشرة كاملة نهض بها د. زهير عبد المحسن سلطان ١٩٨٢م، ثم جاءت الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٤-نشرة كاملة نهض بها الشيخ هادي حسن حمودي سنة ١٩٨٥م.

تمثل إشارةُ سركيس (معجم المطبوعات العربية المعربة ١/ ١٩٩ - ٢٠٠) إلى نشر معجم المجمل، بدايةَ التأريخ الببليوجرافي لتحقيقاته المعاصرة، إذ تكشف عن نشرة غير تامة.

وما يهمنا في هذه الإشارة في الحقيقة هو التنبُّه المبكر لقيمة معجم المجمل، في بدء معرفة التقاليد العربية المعاصرة لتحقيق النصوص التراثية، ونشرها نشرًا نقديًّا بصورة أو بأخرى.

ثم يأتي الحديث عن نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد للمعجم نفسه، التي لم يصدر منها سوى الجزء الأول كما ظهر على صفحة الغلاف، وأرّخ له بسنة ١٩٤٧م، ووصف ناشرها عمله فيه بعبارة: «بتحقيق».

والحقيقة أن هذين العملين اللذين نهض بهما الشنقيطي ومحمد محيي الدين عبد الحميد منحا من بعدهما مسوّغات إعادة تحقيق هذا المعجم، لعدة اعتبارات هي:

أولًا: الصدور غير المكتمل لنشرتي الشنقيطي ومحمد محيي الدين عبد الحميد.

ثانيًا: غياب الحديث عن خطاب جمع النسخ الخطية لهاتين النشرتين؛ إذ لم ترد أية إشارة في مقدمة محيي الدين عبد الحميد (مقدمة التحقيق: ص ص: ب - م) إلى المخطوطات التي اعتمدها في نشرته، وإن كانت إشارة سركيس (١/ ٢٠٠؛ ١٥) يمكن أن يفهم منها أن طبعة الشنقيطي من المحتمل أن تكون اعتمدت نسخة دار الكتب المصرية المنسوخة سنة ٦٤٨هـ.

أما نشرة محيي الدين عبد الحميد فظاهر أنها اعتمدت على نشرة الشنقيطي السابقة، ولم تعتمد على نسخ خطية، وهو ما يمكن أن يُفهم من حديث محيي الدين عبد الحميد الذي يقول فيه (١/ ب): «قد كان من سوالف الأقضية أن شرعت مطبعة السعادة (١٩١٤م)... في إخراج مجمل اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني... وتم لها إعداد الجزء الأول من الكتاب... وقد

حسبوا أن الله تعالى قد أذن بأن يثار عن هذا الكتاب النافع غبار النسيان... حين عهدوا إلى العاجز الضعيف (يقصد نفسه) بتحقيقه، وتهيئته للنشر».

وإن كان ثمة تعليقات للمحقق في بعض الهوامش تلمح إلى استعماله نسخًا خطية في عمله في المجمل، فقد قال في (١/ ١٤؛ ه١) تعليقًا على نص المجمل: «ويقال: إن الأثم لغة في العتم. وهو شجر الزيتون»؛ ما نصه: «وفي نسخة: الصواب: شجرة الجنة الخضراء»، هكذا بالتجهيل.

ومن ثم، فإن هاتين النشرتين خارجتان عن خطاب «تحقيق التحقيق» لافتقارهما إلى أصل أو أساس مركزي من أسس تحقيق النصوص، وهو أصل استصحاب النسخ الخطية في العمل فيهما، وإن كانت هذه الدراسة ستعرج أحيانًا على نشرة محيي الدين عبد الحميد، على أساس أنها صدرت عن مطبوعة أولى عن نسخة خطية فُقدتْ على الأرجح. أما تحقيق زهير عبد المحسن سلطان فقد اعتمد على أربع نسخ خطية هي:

١- نسخة المتحف العراقي، كُتبت سنة ٤٤٦هـ، برقم ٥٤٢/ لغة (٣٢١ ق). وقد عدها الأم أو الأصل في تحقيقه المجمل؛ لأسباب: التمام، اتصال نسبها بأحد تلاميذ ابن فارس، القِدَم.

٢- نسخة تشستربيتي في إيرلندا، كُتبت في القرن الخامس الهجري، برقم ٣٨٤٨ (٢٧١ ق)، ويرجح أنها نسخة بغدادية. وقد اعتمدها لأسباب: العدم، وتملُّك آل الجويني، وهم من مشاهير العلماء لها، وهي نسخة مجددة كانت ناقصة، أكمل نقصها من نسخة المتحف البريطاني المحفوظة فيه برقم Or ٣٠٧٦. ورمز لها بالرمز (ج).

٣- نسخة مكتبة فيض الله بتركيا، منها صورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة، كُتبت سنة ٥٢٤هـ، برقم ٢٣٧/ لغة (٣٨٩ ق). ويبدو أن اعتمادها راجع إلى: قِدمها، واكتمالها، وضبطها. ورمز لها المحقق بالرمز (ص).

٤- نسخة مكتبة المتحف البريطاني، برقم ٨٤٣ (٤٠٤ ق). وقد اعتمدها لعدة اعتبارات هي: الاكتمال، الصحة بسبب نسخها بخط اللغوي المعروف ابن الخشاب (ت ٥٥٠هـ). يقول المحقق (١/ ٥٩): «أما قيمة هذه النسخة فكبيرة جدًّا؛ إذ إن كاتبها عالم لغوي شهير، سمعها عن مشاهير عصره... وهي من أفضل نسخ مجمل اللغة: خطًّا وضبطًا».

وقد عرف المحقق عددًا من النسخ الأخرى، وأهمل اعتمادها، وهي:

١- نسخة المكتبة القادرية ببغداد، رقم ٨٥٩ (١٤٣). وقد استبعدها لنقصها.

٢- نسخة مكتبة العسكريين في سامراء (١٩١ ق). وقد استبعدها لنقصها، وإن كانت قديمة، وهي محفوظة في المتحف العراقي.

٣- نسخة مكتبة المدرسة الأمينية في جامع الباشا بالموصل، محفوظة برقم ٩/ ١٤ لغة، بمكتبة الأوقاف العامة بالموصل. ويبدو أن المحقق استبعدها لحداثتها (كتبت سنة ١١٠٩هـ) في (٣١٠ ق).

ثم ذكر المحقق ست عشرة نسخة خطية قرأ وصفها في الفهارس والمصادر (انظر ١/ ٥٩ - ٦١).

والحقيقة أن تحليل تطبيقات خطاب جمع النسخ وترتيب منازلها يكشف عن جملة العلامات التالية:

أولًا: ظهور نوع وعي بمعايير ترتيب منازل النسخ، وقد تمثلت في:

- الكمال، والتمام، والقدم أو الاقتراب من عصر المؤلف، والصحة، والدقة. وهذه المعايير في جملتها صحيحة صائبة، ولكن ترتيبها على النحو الذي رصدناه وإن كان مقصودًا من المحقق، وهو مقصود بقرائن اختياره نسخة الأصل- غير دقيق؛ إذ ينبغي أن يتقدم معيار صحة النسخة ودقتها، وقيام الأدلة من خط العلماء على ذلك يفرض تقديمها على غيرها، مع ضمان الكمال والتمام وعدم النقص.

والحقيقة أن مراجعة المصادر العامة التي رصدت نسخ المجمل تكشف عن غياب عدد كبير جدًّا من المخطوطات في عمل زهير سلطان، فقد أشار إلى ما ذكره بروكلمان (٢/ ٢٦٦) بصورة إجمالية، وهو قد ذكر إحدى وعشرين نسخة موزعة على مكتبات العالم، ثم جاء سزكين (مج ٨، ج١/ ٣٧٨ - ٣٨٢) فذكر للمجمل تسعًا وأربعين نسخة خطية!

أما تحقيق هادي حسن حمودي فقد اعتمد على خمس نسخ خطية هي:

- نسخة المتحف العراقي (٣١٩ ق)، كُتبت ٤٤٦هـ. وقد صرح باعتمادها لقدمها، والثقة في ناسخها، ورمز إليها بـ(غ).

- نسخة مكتبة تشستربيتي (٢٧١ ق)، وهي النسخة التي أكملت بخط ابن الخشاب، كتبت في (ق ٥هـ)، ويرمز لها بـ(ج). وقد اعتمدها لوضوح خطها، وقدمها، وصحتها بسبب أنها بخط ابن الخشاب، وكانت ملكًا لآل الجويني.
- نسخة القاهرة، مصورة عن مكتبة فيض الله، برقم ٢٣٧ لغة، كُتبت سنة ٥٢٤هـ في (٣٨٩ ق). ويبدو أنه اعتمدها لقدمها، وضبطها، ورمزها (د).
- نسخة لندن (٤٠٤ ص)، كتبت ٥٥٠هـ. وقد اعتمدها لأنها: أوضح النسخ قاطبة خطًّا وتنظيمًا، وهي بخط ابن الخشاب، وعليها قراءات وإجازات، وقوبلت على غيرها من النسخ، ورمز لها بـ(ل). ويبدو من حديث المحقق عنها أنه اعتمد عليها كثيرًا لصحتها وتمامها.
- نسخة الشنقيطي ١٩١٤م ومحيي الدين عبد الحميد ١٩٤٧م التي يقرر المحقق بشأنها الاعتماد على نسخة ترجع إلى سنة ٥٩١هـ، يقول (١/ ١٢٩): «وكان اعتمادنا على هذه النسخة ضئيلًا لعدم فائدتها في توجيه النص، وفي تصويبه»، ورمز إليها بـ(ش). ومسألة اعتماد المطبوعات القديمة بوصفها نسخًا ثانوية أمر قد يكون مقبولًا إذا قامت الحاجة إليه، وهو غير مقبول هنا. ويبدو من كلام المحقق أنه اكتفى بنسخ خطية ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين، مما يعني تقديره لمعيار القِدم، مضافًا إليه معيار الصحة، يقول (١/ ١٢٩): «ونحن على تمام الثقة من أن هذه النسخ هي: أقدم نسخ المجمل المنتشرة في العالم كله، وأصحها». وهو كلام مرسل لم ينتج عن وصف لبقية النسخ، وفحصها!

(٢/ ب) خطاب تطبيق أصل جمع النسخ وترتيب منازلها في تحقيق «مقاييس اللغة» لابن فارس

تأخر تحقيق معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مقارنة بتحقيق مجمل اللغة، فقد صدرت طبعته المحققة أول مرة سنة (١٣٦٦هـ= ١٩٤٦م) بتحقيق عبد السلام هارون على ما ظهر من تأريخ المقدمة، ثم أعيد طبعه سنة (١٣٨٩هـ= ١٩٦٩م).

ويعلل هارون هذا التأخر بعدم شيوع خبر عنه، وقلة نسخه المخطوطة، يقول في مقدمة تحقيق مقاييس اللغة (١/ ٣٩): «ولم أجد أحدًا غير ياقوت (معجم الأدباء ٤/ ٨٤) يذكر هذا الكتاب لابن فارس، ولعله من أواخر الكتب التي ألفها، فلذلك لم يظفر بالشهرة التي ظفر بها غيره». ويقول (١/ ٤٠): «وهذا الكتاب لم يسترعِ انتباه العلماء إلا منذ عهد قريب، ولقد دفعت بنفسي بتحرير هذا الكتاب دفعًا، بعدما آذنت نفسي بارتداد، فإني لم أجد أمامي منه إلا نسخة واحدة مودعة بدار الكتب المصرية». ويقول (١/ ٤٠): «وهذا الكتاب لم ينل حظوة المجمل في كثرة نسخه، وتعدد أصوله (الخطية)».

وقد ذكر هارون أنه عرف نسخة واحدة هي «نسخة المدرسة المروية بالبلاد الفارسية». وعن هذه النسخة أخذت صورتان لدار الكتب المصرية، وأخرى للمكتبة التيمورية، وأخرى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة».

ويعني هذا أن تحقيق هارون صدر اعتمادًا على نسخة مصورة بدار لكتب المصرية جاءت في (٧٧٩ ص)، وهي محفوظة بالدار برقم ٦٥٢/ لغة.

ومراجعة بروكلمان (٢م/ ٢٦٧) تكشف عن وجود نسخ لمقاييس اللغة في:

١- المتحف البريطاني برقم Or ١١٣٥٢.

٢- النجف.

٣- المدرسة المروية في طهران.

ومراجعة سزكين (مج ٨، ج١/ ٣٨٣) تكشف عن وجود النسخ التالية للمقاييس:

١- نسخة سهيسلا ٧٢، في طهران (٣١٩ ق)، كتبت سنة ١٠٩٤هـ.

٢- نسخة المتحف العراقي، بغداد ١٤١٥ (٤٠٨ ق)، كتبت سنة ١١١٧هـ.

٣- نسخة المتحف البريطاني Or ١١٣٥٢.

وتأمُّل خطاب تطبيق المحققين العرب المعاصرين لأصل جمع النسخ وترتيب منازلها يكشف عما يلي:

أولًا: حضور الوعي بعدد من المبادئ والمعايير الحاكمة في ترتيب منازل النسخ بصورة واضحة، وهي المبادئ المتمثلة في:

أ- قدم النسخ.

ب-كمال النسخ وتمامها.

ج-دقة النسخ وضبطها أو صحتها.

د- وضوح خط النسخة.

ثانيًا: غياب تطبيق التفاضل بين هذه المعايير الحاكمة، وقد أدى هذا إلى تقدم نسخ على أخرى، بسبب تقديم المحقق لمعيار القدم على معيار الصحة أو الضبط.

ثالثًا: ظهور عدم استيعاب الجمع للنسخ الخطية، لدرجة وصلت بتحقيق المقاييس على نسخة خطية واحدة مع وجود نسخ أخرى.

وقد أدى تحقيق هذا المعجم عن نسخة خطية واحدة إلى عدد من أخطاء القراءة، واضطراب النصوص، وسَقْط في بعض المواضع، وهي المواضع التي توقف أمامها الدكتور محمد جواد النوري [معجم مقاييس اللغة لابن فارس: استدراكات وتصحيحات، مجلة الدارة، المملكة العربية السعودية، ع (١)، السنة (١٩)، ١٤١٣هـ] (ص ص: ٢٧ - ٦٤) الذي يقول (٣٣):

«ولقد قمنا بتصحيح بعض الكلمات التي تعرضت لتصحيف أو تحريف من شأنهما الإخلال بالمعنى. كما نبهنا بوجه خاص على الخلل العروضي الذي لحق بالأبيات التي استشهد بها صاحب الكتاب، وقمنا بتصويبها. وكذلك حاولنا إكمال النقص في المواضع التي ورد فيها نقص. كما حاولنا أيضًا معالجة بعض الحالات التي لم يطمئن المحقق إلى صحتها، مشيرًا إلى ذلك بقوله: كذا وردت في الأصل».

صحيح أن النوري استدرك ما استدركه، وصحح ما صححه، اعتمادًا على المصادر اللغوية والمعجمية لا على النسخ الخطية الأخرى، ولكن ذلك لا ينفي وقوع عدد من الأخطاء في التحقيق بسبب صدوره عن نسخة خطية واحدة.

(٣)
خطاب إجراء النسخ والمقابلة وإثبات فروق النسخ في تحقيق المجمل في اللغة ومقاييس اللغة لابن فارس في العصر الحديث

(٣/ أ) خطاب إجراء النسخ والمقابلة وإثبات فروق النسخ في تحقيق المجمل

١- يكشف تحليل عمل زهير سلطان في نسخ نص المجمل، وإجراء المقابلة، وإثبات فروق النسخ؛ عن حزمة من الإجراءات تتمثل فيما يلي:

أولًا: عدم النص على القواعد الحاكمة لكتابة النص بطريقة الإملاء الحديثة، وعدم الإشارة إلى كتابة الحروف التي يمكن أن تكون مثار لبس في القراءة، من مثل: بيان التفرقة بين الألف المقصورة (ى) والياء (ي)، ومنهجية النسخ فيما يتعلق مثلًا برسم الهمزة.

ثانيًا: النص على العناية بضبط المفردات، بمعنى تشكيلها بالحركات، يقول (١/ ٦٢): «وقد عنيت عناية كبيرة بضبط المفردات؛ إذ بدونه لا قيمة للمعجم».

ثالثًا: النص على إجراء المقابلة اعتمادًا على نسخة مكتبة المتحف العراقي؛ لأنها أقدم النسخ التي جمعها، مع أنها ليست أصح النسخ المجموعة، يقول (١/ ٦٢): «لقد اعتمدت نسخة مكتبة المتحف العراقي أصلًا لباقي النسخ؛ لأسباب ذكرتها آنفًا، وقابلت النسخ الأخرى منها».

رابعًا: اعتماد نسختي المتحف البريطاني وفيض الله في ضبط نص المجمل، مع أن أيًّا منهما ليس النسخة الأصل التي اعتمدها في تحقيقه، وهو ما يعني الحاجة إلى مراجعة المبادئ والمعايير الحاكمة في ترتيب منازل النسخ.

خامسًا: ظهور العناية بالترقيم التعبيري (علامات الترقيم) بوصفه جزءًا من النسخ، يرد ضمن المفهوم الموسع لعملية ضبط النص، وإن لم ينص المحقق على منهجه في استعمالها وتطبيقها.

٢- كما يكشف تحليل عمل هادي حسن حمودي في نسخ نص المجمل، وإجراء المقابلة، وإثبات فروق النسخ؛ عما يلي من الإجراءات:

أولًا: اتخاذ نسخة بغداد (غ) أصلًا للنسخ، لسبب قدمها، ووثاقتها، ونسبتها إلى ابن أحد تلامذة المؤلف، مع مقابلة هذا الأصل مع النسخ الأخرى.

ثانيًا: النص على عد الضبط جزءًا من مفهوم النسخ، معتمدًا منهجية احترام إجماعات النسخ، واستفتاء المصادر اللغوية والمعجمية.

ثالثًا: النص على إثبات فروق النسخ في الهوامش السفلية (١/ ١٣)، مع التوسع في ذلك، يقول: «ثبتنا تغاير النصوص من نسخة لأخرى، ونصصنا على كل خلاف بين النسخ المعتمدة في التحقيق».

رابعًا: السكوت عن المواضع المحتملة للبس، من مثل: الألف المقصورة والياء، ورسم الهمزة.

وفحص خطاب الإشارة لعمليات الانتساخ والمقابلة يكشف عما يلي:

أولًا: عدم التوسع في بيان إجراءات الانتساخ والمقابلة بصورة تفصيلية.

ثانيًا: عدم التنظيم في بيان إجراءات الانتساخ والمقابلة.

ثالثًا: تفاوت البيان عن بنود إجراءات الانتساخ والمقابلة.

رابعًا: نقص البيان عن بنود إجراءات الانتساخ والمقابلة.

خامسًا: التزام رسم المصحف في استنساخ الآيات.

وهذه الملامح المتنوعة خاصة بوصف خطاب بيان المحققين لإجراءات هاتين العمليتين أو الأساسين في فقرة حديثهما عن عمليهما في تحقيق معجم المجمل لابن فارس.

ويبدو من فحص هوامش التحقيق أن تحقيق زهير سلطان أقرب للتقاليد العربية المعاصرة في عدم إفراطه في إثبات فروق النسخ الناتجة عن المقابلة، مقارنة بتحقيق هادي حسن حمودي الذي يبدو أقرب للتقاليد الاستشراقية المعاصرة في إفراطه وتوسعه في إثبات فروق النسخ الناتجة عن المقابلة بين النسخ المعتمدة في تحقيقه المجمل، وهو ما جاء ترجمة لتصريحه باحترام إثبات «كل» خلاف بين النسخ المعتمدة في التحقيق.

ومن الجدير بالذكر أنه لا مجال لبيان منهج محيي الدين عبد الحميد في نشرته للجزء الأول من المعجم؛ لأنه اعتمد فيها على طبعة سابقة قديمة نهض بها الشنقيطي، ولأنه لم يصرح بأي حديث عن النسخ، ولا مجال لبيان إجراءات المقابلة وإثبات فروق النسخ، لنشر هذا الجزء عن طبعة قديمة اعتمدت فيما يظهر على نسخة وحيدة.

(٣/ ب) خطاب إجراء الانتساخ في تحقيق معجم مقاييس اللغة في العصر الحديث

سكت عبد السلام هارون عن بيان إجراءات الانتساخ، وقواعد الكتابة التي استعملها في تحرير نص مقاييس اللغة (١/ ٤٥ - ٤٧) في الجزء الذي خصصه للحديث عن «تحقيق المقاييس». وإن أشار إلى نهوضه بعملية ضبط النص، وهو ما يعني تبنيه مفهومًا موسعًا للانتساخ يعتمد:

- رسم الحروف.
- وضبط الحروف.
- واستعمال علامات الترقيم التعبيري.

وتحليل عمل هارون في إجراءات انتساخ نص المقاييس، والقواعد التي استعملها في كتابته يكشف عما يلي:

أولًا: تطبيق قواعد الكتابة الشائعة في مدرسة الإملاء المصرية بوجه عام وواضح، وهو ما يعني:

عدم التفرقة بين الألف المقصورة والياء في الرسم.

رسم الهمزة الأولى تبعًا لحركتها، فإن كانت مكسورة وضعت مع كسرتها تحت الألف، وإن كانت مفتوحة أو مضمومة وضعت مع حركتها فوق الألف.

ثانيًا: التزام تقسيم كلمة (العروض)، وهي آخر كلمة في صدر البيت مدورًا، وتوزيع حروفها على شطرتي البيت المدور (انظر ١/ ٧٥)، و(١/ ٢٢٣).

ثالثًا: التزام رسم المصحف في انتساخ الآيات القرآنية الكريمة.

(٤)
خطاب تطبيق المعالجة والتحقيق في النشر النقدي لمعجمي المجمل والمقاييس لابن فارس في العصر الحديث

(٤/ أ) خطاب تطبيق المعالجة والتحقيق في النشر النقدي لمعجم المجمل في العصر الحديث

يكشف تحليل معالجة زهير سلطان نص المجمل وتحقيقه عما يلي:

أولًا: تطبيق منهج «النص المختار» في تحقيق المجمل، يقول زهير سلطان (١/ ٦٢): «لقد اعتمدت نسخة مكتبة المتحف العراقي أصلًا لباقي النسخ... وقابلت النسخ الأخرى معها، فإذا وجدت كلامًا انفردت به نسخة الأصل، وضعته بين قوسين هلاليين دون الإشارة إلى ذلك في الهامش. أما إذا حوت النسخ الأخرى كلامًا خلت منه نسخة الأصل، فإنني أضفته إلى النص ووضعته بين معقوفين، دون الإشارة إلى ذلك في الهامش»، وهو ما يؤكد تطبيق الإجراءات على النص المختار.

ثانيًا: التوسع في مفهوم خدمة تقنية أداء النص أداءً صحيحًا متقنًا، وقراءته قراءة صحيحة بالتوسع في مفهوم ضبط النص، ليشمل:

ضبط حروف الكلمات (بنية/ وإعرابًا).

استعمال علامات الترقيم التعبيري.

استعمال طرق خاصة في انتساخ النصوص النوعية، كما يظهر من كتابة الآيات القرآنية، وكتابة الأشعار، وهي طريقة كتابة تمنحها تمايزًا عن غيرهما من النصوص.

ثالثًا: تخريج النصوص المتنوعة من مصادرها الأصيلة، مع عدم التوسع في توثيق التخريجات من المصادر، والوقوف عند الحد الأدنى غالبًا بتوثيق التخريجات من مصدر واحد فقط، فالشعر يخرج من ديوان الشاعر فقط أو من مصدر واحد فقط (انظر ١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

رابعًا: التعليق على النصوص، وتمثلت هذه التعليقات فيما يلي:

أ- شرح الألفاظ الغريبة من غير توثيق للشروح.

ب- تتميم الأشعار الواردة في المتن ببيان الأجزاء التي لم ترد فيه في الهوامش (انظر: ١/ ٣١٨؛ ه٢، ٣٢٧، ٦٢٣؛ ه٢).

ج- ترجمة الأعلام الإنسانية والمكانية (انظر: ١/ ٢٨٥؛ ه٢ «١»)، (١/ ٣٠٩؛ ه٥ «٢»).

د- بيان نسبة عدد من الآراء اللغوية إلى أصحابها (انظر: ١/ ٢٨٥؛ ه٤-٤ «٢»)، وعزو الأشعار التي وردت عائرة النسبة في المتن (انظر: ١/ ٢٨٥؛ ه٨، ٩ «١»)، وبيان فروق الروايات للأبيات.

ه- التنويع في تخريج النصوص، ولا سيما في تخريج الأحاديث ببيان المصدر، والكتاب، والباب، وفي أحيان يذكر الحكم على الحديث (انظر: ١/ ٥٤٢؛ ه٤ «٢»)، وتوثيق تخريج القراءات، وبيان نسبتها إلى قارئيها (انظر: ١/ ٤٦٨؛ ه٣ «٢»).

و- عدم اطراد النص على جذور المواد في التخريج من المعاجم اللغوية، فالتخريج من معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٧٣) جاء مقرونًا بذكر المادة (ه٧ «٢»)، وكذلك مع التهذيب (ه٦ «٢»)، ولم يرد ذكر للمواد عند التخريج من معجم العين (١/ ٣٧٣؛ ه٩ «١») والجيم (ه٣ «٢»).

والحقيقة أن فحص معالجة زهير سلطان لنص المجمل تكشف عن نقص في مادته، مقارنة بنشرة محيي الدين عبد الحميد، ونشرة هادي حسن حمودي.

نشرة زهير سلطان	نشرة محيي الدين عبد الحميد
١/ ٧٨ «١»: **أَخٌ قد طوى كَشْحًا وأَبَّ ليذهبا** والأَبُّ: النزاع إلى الوطن. وأَبَّ الرجل بيده إلى (قائم) سيفه ليستله.	١/ ٣: **أَخٌ طوى كَشْحًا وأَبَّ ليذهبا** طوى كشحًا: سلا عنه .... وأَبَّ الرجل إلى سيفه ليستله.

وقد اتفق هذا النص في معالجة زهير، مع النص في معالجة هادي حسن حمودي، فهذا التفاوت دليل ظاهر على حاجة هذا التحقيق في أصل معالجة النص إلى نوع مراجعة حقيقية.

كما يكشف تحليل معالجة هادي حسن حمودي نص المجمل وتحقيقه عما يلي:

أولًا: الاتفاق مع زهير سلطان في المنهجية المتبعة في معالجة نص المجمل، وهو الواضح في تطبيقه منهج «النص المختار» في تحقيق هادي حسن حمودي نص المجمل، يقول (١/ ١٣٠): «إن تحقيق (مجمل اللغة) رحلة مضنية، تستلزم من المحقق أن يعيش... في ظروف المصنف، وأن يتعرف مميزاته المنهجية والأسلوبية؛ لأن للكتاب نسخًا كثيرة متفرقة... تلك الكثرة وذلك التفرق يجعلان من اختيار إحدى النسخ أمًّا - مهمة شاقة...، فإذا ما استقام للمحقق ذلك بدأ باختيار النسخ الأخرى المساعدة بشروط يفرضها المنهج العلمي في التحقيق؛ كي ينتقي من كل خلافاتها ما يتلاءم وأسلوب المصنف، ومنهجه، وشخصيته. وهذا الانتقاء إن هو إلا عملية صياغة».

ثانيًا: التوسع في تطبيقات مفهوم ضبط النص ليشمل:

ضبط بنية الكلمات، وضبط إعرابها أحيانًا (انظر: ١/ ١٣١).

استعمال علامات الترقيم التعبيري، والإسهام في الإعانة على قراءة النصوص النوعية، من مثل: الشعر والقرآن الكريم بكتابتهما بطريقة خاصة تمنحهما التميز عن بقية أنواع النصوص في المعجم.

ثالثًا: إثبات ما صح لدى المحقق في المتن، والتوسع في إثبات فروق النسخ الناتجة عن مقابلة النسخة الأصل المعتمدة في التحقيق في الهوامش، بصورة فيها نوع تتبع لإثبات كل الفروق (انظر: ١/ ١٣١).

رابعًا: تخريج النصوص المختلفة من مصادرها مع التوثيق، يقول (١/ ١٣١): «ثم قمنا بعمليات التخريج والتوثيق في الشواهد والأمثلة؛ لذلك عدنا إلى القرآن الكريم نخرّج الآيات، ونثبت من نصوصها، وإلى الحديث النبوي نوثق المروي منه، وإلى كتب الأمثال والأشعار والأدب نخرّج النصوص»، إلخ. وكان منهجه التوسع والاستقصاء في التخريج، وهو منهج محمود، له آثار إيجابية كثيرة على المستعمِل.

خامسًا: التعليق على النصوص، وهو ما تجلى فيما يلي:

أ- شرح الغامض الغريب، يقول (١/ ١٣١): «ثم قمنا نشرح الغامض بعبارة سهلة، قريبة، موجزة»، وتوثيق ذلك من المعجمات.

ب- العناية بذكر الروايات المختلفة للشواهد (انظر: ١/ ١٦٦؛ ه٥).

ج- العناية بعزو النصوص إلى أصحابها (انظر: ١/ ١٨٦؛ ه٨)، مع التوسع في ذكر تعدد نسبة الشواهد عند حصول ذلك (انظر: ١/ ١٨٧؛ ه٤).

د- عدم الاكتفاء بإثبات فروق النص غُفلًا من التعليق، بل يثبت هذه الفروق معلِّقًا في أحيان كثيرة، معلّلًا اطراحها في الهوامش (انظر: ١/ ٤٥٤؛ ه١، ٤).

هـ- يكتفي في التوثيق من معجمات اللغة بالمؤشر المكاني من دون ذكر المواد اللغوية، وكذلك يكتفي في التوثيق من معجمات البلدان بالمؤشر المكاني دون ذكر رسوم البلدان (انظر: ١/ ٤٥٨؛ ه٣، ٦، و١/ ٤٥٩؛ ه١، و١/ ٤٣٦؛ ه٦).

والحقيقة أن معالجة معجم المجمل في تحقيق هادي حسن حمودي تتسم -بسبب عدم استيعاب النسخ الخطية- بنقص عدد من نصوصه، كما ظهر من مقارنة النص المعجمي الخاص بالشاهد الشعري الوارد في مادة (أ ب ب)؛ حيث سقط منه جملة: «طوى كَشْحًا: سلا عنه»، وهي الجملة التي أثبتها محمد محيي الدين عبد الحميد في نشرته سنة ١٩٤٧م! على الرغم من دعوى هادي حسن حمودي اعتماد هذه النشرة ضمن النسخ المعتمدة في تحقيقه، كما قرر في الفقرة (خامسًا) (١/ ١٢٩) عند حديثه عن المخطوطات المعتمدة في تحقيقه مجمل اللغة!

(٤/ ب) خطاب تطبيق المعالجة والتحقيق في النشر النقدي لمعجم مقاييس اللغة في العصر الحديث

يكشف عمل عبد السلام هارون في معالجة نص معجم مقاييس اللغة وتحقيقه عما يلي:

أولًا: تطبيق منهج التحقيق اعتمادًا على نسخة واحدة، وهو طريق صعبة يقول د. فيصل الحفيان في مقدمة [تحقيق النسخة الفريدة: مأزق التعامل مع النص نظرًا وتطبيقًا، ليوسف

السناري، إصدارات كرسي عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٨م، ص١]: «يمكن القول: إن التحقيق بالاعتماد على نسخة فريدة هو المأزق الأصعب في إعادة بناء النص»!

وقد حقق عبد السلام هارون مقاييس اللغة اعتمادًا على نسخة فريدة وفق المفهوم الضيق الذي قرره يوسف السناري عندما قال (ص١٥): إن النسخة الفريدة هي «نسخة خطية فريدة بغير خط المؤلف، وإن كان للكتاب نسخ أخرى... لم يقف عليها المحقق، أو علم بها ولم يستطع الحصول عليها»، وهي الحال الحاصلة هنا.

يقول هارون في مقدمة تحقيق مقاييس اللغة (١/ ٤٠): «ولقد دفعت نفسي إلى تحرير هذا الكتاب دفعًا بعدما آذنت بارتداد، فإني لم أجد منه إلا نسخة واحدة مودعة بدار الكتب المصرية». ثم قال (١/ ٤١): «وهذه النسخة يشيع فيها التحريف والاضطراب، كما أن بها بعضًا من الفجوات والأسقاط، وبعضًا من الإقحام والتزيد».

ثانيًا: تمثل منهج هارون في معالجة نص المقاييس بغية تحقيقه فيما يلي:

العناية بإقامة النص، يقول هارون (١/ ٤٦): «وأحيانًا يعوز النسخة بعض كلمات تتطلبها العبارات، فأزيدها من المصادر مع التنبيه عليها، أو أتمها بدون تنبيه إلا بوضعها بين معكفي الزيادة، وإن لم أجد سندًا إلا ضرورة الكلام» (انظر: ١/ ٣٩؛ س -١، -٢)، و(١/ ٥٥؛ س٧) و(١/ ١٢٧؛ س -٢) وغيرها من المواضع.

العناية بضبط الكتاب معتمدًا على نصوص اللغويين الثقات، وقد يضبط (١/ ٤٥) «الكلمة بضبطين أو ثلاثة حسب ما تنص عليه المعاجم»، وهو يتوسع في مفهوم الضبط، فيضم إليه توظيف علامات الترقيم التعبيري، بوصفها جزءًا من أداء النص، ومعالجته، والإعانة على قراءته.

تخريج النصوص المختلفة وتوثيقها من المصادر وعزوها إلى قائليها، يقول (١/ ٤٥): «وعنيت أيضًا بنسبة الأشعار والأرجاز المهملة إلى قائليها، والمطبوعة، مع التزام معارضة النصوص، والنسب بنظيراتها في المجمل» وغيره من الكتب.

وهو هنا يتنبه إلى مبدأ جديد، إذ يعد مؤلفات المؤلف الأخرى -ولا سيما المعجمية- «نسخًا ثانوية»، من الضروري اعتمادها في التحقيق والتخريج والمعالجة والتوثيق.

شرح الغامض، يقول (١/ ٤٦): «وكنت ارتأيت أن ألتزم تفسير غوامض هذا الكتاب، وتأويل شواهده ونصوصه من غير تطويل، اكتفاءً بقدر ضئيل من التفسير الذي يتطلبه التحقيق».

وفحص آثار تحقيق المقاييس بالاعتماد على نسخة فريدة يكشف عن مشكلات تتعلق بأصل أداء النص وقراءته، وهو ما كان بعض مشغلة د. محمد جواد النوري في مقالته الاستدراكية التصحيحية لما فرط من عبد السلام هارون.

ومن ذلك:

المقاييس	استدراك النوري
١/ ٢٨ (٥): «يقال: إنه لحسَنُ أمَّة الوجه، يغزون ١- السنة».	٣٦: يعنون.
-١/ ٥٦ (٢): «قال الخليل: الأثر في السيف شبه الذي يقال له: الفرند».	- ٣٦: ... وَشْيُه!
١/ ٦٨ (٣): «أما أخذ فالأصل: حوز الشيء وجبيه»!	٣٧:... وصبه.
- ١/ ٧٨ (١٠): «فذاك نحال أررز الأرز».	- ٣٧: ... أروز...

وتأمُّل منهج هارون في تحقيق المقاييس يكشف عن العلامات التالية:

أولًا: القصور الكبير في عرض مادة المعجم على مصادرها المنسوبة، فالنص السابق المنقول عن العين (٨/ ٢٣٧) المتعلق بأثر السيف تحرَّف في نشرة هارون للمقاييس، ومراجعته وعرضه على العين كافٍ في تصحيحه من «شبه» إلى «وشيه»!

ثانيًا: عدم توثيق شروح الألفاظ الغامضة، ونسبتها إلى مصادر التفسير أو الشروح (انظر: ١/ ٧٦؛ ١٥، و١/ ٨٤؛ ١٥، ٣).

ثالثًا: ظهور استثمار المجمل لابن فارس في ترميم نص المقاييس أو معالجة الأسقاط فيه (انظر: ١/ ٨٧؛ هـ٢)؛ حيث يقول: «كلمة (متشاوسًا) ساقطة من الأصل، وإثباتها من المجمل»، وهو ما يؤكد نظرة هارون إلى مؤلفات ابن فارس الأخرى بوصفها نسخًا ثانوية مهمة في تحقيق المقاييس.

والواقع أن فحص عمل محققي منجز ابن فارس المعجمي المتمثل في المجمل والمقاييس، يكشف عن قصور واضح في إجراءات عرض مادتيهما على علماء اللغة ورواتها الذين روى عنهم ابن فارس...، وهو ما نتج عنه وقوع تصحيفات وتحريفات كثيرة، وكان من الممكن تجنبها لو خرَّج المحققون النصوص الواردة في هذين المعجمين من مصادرهما المعروفة.

وجاءت التعليقات متسمة بالإيجاز بصورة واضحة لا ترهق الهوامش أو تثقلها.

(٢/ ٢)
معجمات ابن فارس الألفبائية (المجمل/ المقاييس) من منظور تحقيق التحقيق: قراءة في تطبيقات المكملات الحديثة

استقرت قواعد تحقيق النصوص التراثية في التقاليد العربية المعاصرة بتأثير التقاليد الاستشراقية، على أن المكملات الحديثة جزء أصيل من المفهوم العملي للنشر النقدي للنصوص.

وهذه المكملات الحديثة في الصناعة التحقيقية كل الأعمال التالية لمعالجة النص؛ وهي الأعمال التي تتصل بدراسة حياة صاحب النص، وتتصل بدراسة النص، وتتصل بوصف وعائه المادي المتمثل في نسخته أو نسخه الخطية التي اعتمدها المحقق في تحقيقه، وتتصل بمنظور المستعمِل، والتيسير عليه في استعماله بالتكشيف وصناعة الملاحق إذا قامت الدواعي وتطلبت ذلك.

وفيما يلي بيان جهد المحققين العرب المعاصرين فيما يتعلق بصناعة المكملات الحديثة عند تحقيق معجمي المجمل والمقاييس لابن فارس.

ويتلخص هذا البيان من منظور التحرير وإعداد النص للنشر فيما يلي:

فحص الموقف من المكملات القبلية.

فحص الموقف من المكملات البعدية.

فحص الموقف من تحرير النص.

(١)
خطاب تطبيق المكملات الحديثة القبلية

يكشف تحليل عمل المحققين العرب المعاصرين لمعجمي المجمل والمقاييس لابن فارس، عن النهوض بجزمة من الأعمال التي تنتمي إلى المكملات الحديثة، وبيان أمرها كما يلي:

(١/ أ) خطاب المكلات القبلية في تحقيق «المجمل»

نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد

صنع محمد محيي الدين عبد الحميد بين يدي النص ما يلي:

أولًا: مقدمة للتحقيق، تضمنت كلمة كاشفة عنه، وقصة تحقيق المجمل وتاريخه المعاصر قبله (ص/ ب).

ثانيًا: ترجمة لابن فارس بعنوان: التعريف بأبي الحسن أحمد بن فارس الرازي (ص ص: ج - ز).

ثالثًا: بيان منزلة المجمل، وبيان طريقة ابن فارس في تصنيفه (ص ص: ط - م).

ويلحظ على عمل محيي الدين عبد الحميد في هذا المجال ما يلي:

أولًا: قصر المقدمة، وعدم استيفائها بقية العناصر اللازمة.

ثانيًا: تضمين ترجمة ابن فارس الكلام عن الكتاب، ومنهجه، وعدم إفراد دراسة النص بمبحث مستقل.

ثالثًا: نقص بنود ترجمة ابن فارس، فقد سكتت ترجمة محيي الدين عبد الحميد لابن فارس عن

ذكر شيوخ ابن فارس، وذكر مؤلفاته على سبيل المثال.

رابعًا: عدم بيان مسوغات إعادة تحقيق المجمل بعد نشرة الشنقيطي.

خامسًا: السكوت عن الأصول المعتمدة في تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد للمجمل.

نشرة زهير سلطان للمجمل

تضمنت المكملات الحديثة القبلية التي صنعها زهير سلطان في تحقيقه معجم المجمل ما يلي:

أولًا: مقدمة عالجت منزلة المعجم (١/ ٧)، وبيان عدم عناية المحققين بتحقيقه، وبيان مراحل تحقيقه المعجم (١/ ٧ - ٨).

ثانيًا: الدراسة، وتضمنت: ترجمة لابن فارس (١/ ١١ - ٣١)، ودراسة مجمل اللغة التي تناولت: عنوانه، وسبب تصنيفه، ومصادره، والنقل من الكتب، ومنهجه (١/ ٣٢ - ٥٠)، وألحق بها ملحقًا للاضطرابات الواقعة في أبواب المجمل.

ثالثًا: بيان النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق، ووصفها، وترميزها.

رابعًا: بيان عمل المحقق في التحقيق: المنهج والإجراءات، مع صور ضوئية من النسخ المعتمدة.

وتحليل هذه المكملات القبلية الحديثة يكشف عما يلي:

أولًا: عدم تفصيل القول في مسوغات إعادة التحقيق، مع ذكر النشرات السابقة للشنقيطي، ومحيي الدين عبد الحميد، وهادي حسن حمودي.

ثانيًا: جاءت دراسة المجمل غير مقترنة بطبيعة بحوث المعجمية؛ إذ إن البحث المعجمي يدرس المعجمات على ثلاثة محاور هي:

- التأريخ المعجمي.
- التصنيف المعجمي، وفيه تحليل للبنية الكبرى والبنية الصغرى للمعجم.
- النقد المعجمي.

ثالثًا: عدم تسمية منهج التحقيق، وهو منهج النص المختار، والاكتفاء بوصف طريقة العمل في التحقيق.

رابعًا: بيان الإجراءات بصورة عامة غير تفصيلية، فلم يذكر المحقق في الإجراءات طريقة كتابة الياء والألف المقصورة، ومنهج رسم الهمزة، والموقف من كتابة النصوص النوعية باستثناء القرآن الكريم.

نشرة هادي حسن حمودي للمجمل

صنع هادي حسن حمودي عددًا من المكملات الحديثة القبلية في تحقيقه كتاب المجمل، وبيانها كما يلي:

أولًا: مقدمة التحقيق، وتناول فيها (١/ ٧ - ٨):

منزلة معجم المجمل.

إشارة سريعة لمنزلة ابن فارس في الدرس اللغوي التراثي.

شكر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومعهد المخطوطات؛ لنهوضهما بنشر هذا التحقيق.

ثانيًا: أحمد بن فارس.. حياته وعصره، وتناول فيه (١/ ٩ - ٣٧):

صورة العصر.

ترجمته: (اسمه ومولده، وموطنه، وثقافته وأساتذته، وتلامذته، ومذهبه، وأخلاقه، ووفاته).

آثاره (١/ ٣٩ - ٥٧).

شعره (١/ ٥٧ - ٦٦).

آراءه (١/ ٦٧ - ٩٢).

ثالثًا: دراسة مجمل اللغة (١/ ٩٣ - ١٢٣).

رابعًا: بيان النسخ الخطية، ووصفها كوديكولوجيًّا (١/ ١٢٤ - ١٢٩).

خامسًا: بيان العمل في التحقيق ومنهجه وإجراءاته (١٣٠ - ١٣٨) مع صور ضوئية للنسخ المعتمدة.

وفحص عمل هادي حسن حمودي في صناعة المكملات الحديثة القبلية في تحقيقه المجمل يكشف عن العلامات التالية:

أولًا: اختصار المقدمة جدًّا.

ثانيًا: تشعيث ترجمة ابن فارس، وفصل الحديث عن آثاره وشعره عن جسم الترجمة، مع أنهما في التقاليد العربية والاستشراقية يعالجان بوصفهما جزأين من ترجمة المصنف.

ثالثًا: تخصيص جزء لدراسة عصر المؤلف، وهو أمر يبدو أنه جاء من الإيمان بتقليد علمي قديم وافد من فيلولوجيا القرن التاسع عشر الميلادي، يقرر أن النص ناتج ظروف العصر الذي نتج فيه، وهي النظرية المعروفة بنظرية المرآة التي شاعت في المجال العلمي العربي المعاصر بتأثير: جوستاف لانسون (ت ١٩٣٤م)، وهيبوليت تين (ت ١٨٩٣م)، وسانت بيف (ت ١٨٦٩م)؛ الذين ينطلقون في دراسة النصوص من ارتباطها الوثيق بالحياة الاجتماعية، وهذا التقليد العلمي قد تجاوزه الدرس المعاصر، وأقام الأدلة الكثيرة على عدم حتمية هذه العلاقة.

وتحليل التصنيف المعجمي في عصر ابن فارس يكشف عن عدم وجود علاقة حتمية تجعل من النصوص استجابة حتمية لظروف العصر، وهو ما يمكن أن نراه في تحليل منهجية تصنيف المجمل والمقاييس من جانب، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي (ت ٤٢٩هـ) من جانب آخر، مع تقدير اتفاق العصر (ق ٤هـ)، وتقدير الاتفاق في البيئة (فارس).

رابعًا: مخالفة دراسة المجمل للمستقر في الدرس المعجمي، كما بينا في الملحظ الذي علقناه على عمل زهير سلطان في المكملات الحديثة الخاصة بدراسة المجمل بين يدي تحقيقه له.

خامسًا: عدم تسمية منهج التحقيق وهو النص المختار، وعدم التفصيل في بيان إجراءات التحقيق، وأدواته، وعدم التفصيل في الوصف المادي للمخطوطات المعتمدة في التحقيق.

(١/ ب) خطاب المكملات القبلية الحديثة في تحقيق مقاييس اللغة

تضمنت معالجة عبد السلام هارون للمكملات الحديثة القبلية في تحقيقه معجم مقاييس اللغة ما يلي:

أولًا: التعريف بابن فارس (١/ ٣ - ١٠)، وتناول فيه: اسمه وموطنه، وإقامته بهمذان وانتقاله إلى الري، وشيوخه وتلاميذه، ووفاته.

ثانيًا: ابن فارس الأديب (١/ ١١ - ٢٠)، تناول فيها: شعره، واستعمال الشعر في تقييد مسائل اللغة، رأيه في النقد.

ثالثًا: ابن فارس اللغوي (١/ ٢١ - ٢٥)، وتناول فيها: توثيقه، وولوعه باللغة، وحذقه بها، وتأليف كتاب المقاييس.

رابعًا: مؤلفات ابن فارس (١/ ٢٦ - ٣٧).

خامسًا: كتاب المقاييس (١/ ٣٩)، وتناول فيه: معنى المقاييس = (الاشتقاق الكبير)، ونسخ المقاييس، والمجمل والمقاييس وسبق الأول للأخير، ونظام المعجميين، وتحقيق المقاييس.

سادسًا: مقدمة كاشفة بين يدي الطبعة الثانية، وذكر بعض موائزها من زيادة تحقيق وزيادة تخريجات، واستكمال نسبة شواهد.

والحقيقة أن موقع هارون في التنظير لقواعد هذا العلم في العصر الحديث يفرض فحص منجزه التطبيقي في صناعة المكملات الحديثة القبلية هنا، وهو ما يكشف عن العلامات التالية:

أولًا: غياب المقدمة في صور المكملات القبلية.

ثانيًا: زيادة مبحثي ابن فارس الأديب وابن فارس اللغوي من دون الحاجة إليهما بصورة آكدة.

ثالثًا: تشعيث مكونات ترجمة المصنف، وتأخير الكلام عن مؤلفاته مثلًا إلى ما بعد الحديث عن أدبه وآرائه اللغوية.

رابعًا: عدم دراسة المقاييس دراسة منهجية تكشف عن بنيته الكبرى وبنيته الصغرى، ومصادر مادته، ومنهج التعامل معها.

خامسًا: عدم تفصيل القول في إجراءات التحقيق وأدواته.

(٢)
خطاب تطبيق المكملات الحديثة البَعْدية

لقد استقر أن ينهض محقق النص التراثي بصناعة عدد من المكملات الحديثة يضعها بعد جزء النص المحقَّق، تستهدف خدمة النص من منظور المستعمِل. وفيما يلي بيان تناول محققي المجمل والمقاييس لعناصر المكملات الحديثة البعدية، الكشافات والملاحق على وجه التعيين:

خطاب تطبيق المكملات الحديثة البعدية في تحقيق المجمل لابن فارس في العصر الحديث

(١/ أ) نشرة زهير سلطان للمجمل

لم يتم الشنقيطي ولا محمد محيي الدين عبد الحميد تحقيق معجم المجمل، وهذا يعني عدم ظهور أية تجليات للمكملات الحديثة البعدية ممثلة في الكشافات والملاحق.

ويكشف فحص عمل زهير سلطان في تحقيقه المجمل عن العناية بالمكملات الحديثة البعدية التالية:

أولًا: الكشافات (الفهارس العامة)

صنع المحقق زهير سلطان عددًا من الكشافات أطلق عليها مصطلح «الفهارس العامة»، وهو المصطلح الذي كان شائعًا قبل ظهور التفرقة الدقيقة بين الفهرس بوصفه قائمة للمكونات الكبرى، والكشافات بوصفها قائمة مرتبة للمكونات الصغرى في النص مشغلة التحقيق، بتأثير إيجابي من علم التكشيف في حقل دراسات المكتبات.

وقد توجهت عناية المحقق إلى صناعة الفهارس والكشافات التالية:

فهرس مصادر الدراسة والتحقيق ومراجعهما (٢/ ٩٤٥ - ٩٥٨). مرتبًا وفق العنوانات على وفاق الترتيب الألفبائي المشرقي.

كشاف الآيات (٢/ ٩٦٣ -٩٧١).

كشاف الحديث (النبوي) (٢/ ٩٧٢ - ٩٩٠).

كشاف الأمثال (٢/ ٩٩٠ - ٩٩٤).

كشاف الأشعار (٢/ ٩٩٥ - ١٠٧٨).

كشاف الأرجاز (٢/ ١٠٧٩ - ١٠٩٤).

كشاف الأعلام (٢/ ١٠٩٥ - ١١٠٩).

كشاف القبائل والأحياء (٢/ ١١١٠ - ١١١٤).

كشاف المواضع والبلدان (٢/ ١١١٥ - ١١٢٢).

كشاف الموضوعات (٢/ ١١٢٣ - ١١٧٨).

ثانيًا: الملاحق

كما صنع المحقق زهير سلطان ملحقًا استدرك فيه ما فَرَط منه من أخطاء، وذكر توصياتها (٢/ ١١٨١ - ١١٨٣).

وتحليل عمل زهير سلطان في هذه الفهارس والملاحق يكشف عما يلي:

أولًا: الحرص على متابعة المنهجيات المستقرة في ترتيب كل كشاف نوعي، بمعنى أنه حرص في ترتيب المكونات الصغرى في كل كشاف على رعاية طبيعة هذه المكونات الصغرى، فجاء ترتيب الآيات ترتيبًا مصحفيًّا، وجاء ترتيب الشعر ترتيبًا عروضيًّا خليليًّا.

ثانيًا: الحرص على التيسير على المستعملين، وقد تجلى ذلك فيما يلي:

تثبيت المؤشر المكافئ في صورة ذكر الصفحة.

التورط الحميد أحيانًا في تفصيل المؤشر المكاني، بذكر الصفحة والعمود والسطر، كما في ملحق التصويبات.

زيادة التبصرات أمام عدد من المكونات الصغرى في كشاف الأعلام؛ فقد زاد التبصرة (والد المصنف) أمام اسم فارس بن زكريا (٢/ ١١٠٦)، وزاد التبصرة (الصنم) أمام: الاسم العلم (الغلس) (٢/ ١١٠٦)، والتبصرة (الفرس) أمام الاسم العلم (كامل) (٢/ ١١٠٧).

العناية بالتفرقة بين ما جاء من شواهد الشعر منسوبًا، بإطلاق اسمه في الكشاف من غير حصر بين قوسين، وما جاء عاري النسبة بحصره بين قوسين هلاليين، وترك الموضع خاليًا لما جاء عاري النسبة ولم يستطع المحقق عزوه.

ثالثًا: التورط في بدعة التفرقة بين الأشعار والأرجاز من دون مسوّغ علمي ظاهر.

(١/ ب) نشرة هادي حسن حمودي للمجمل

أولًا: الكشافات

خصص هادي حسن حمودي الجزء الخامس من نشرته النقدية للمجمل للفهارس أو الكشافات التي ضمت ما يلي:

فهرس آيات القرآن الكريم (٥/ ٥ - ١٨).

فهرس الأحاديث (النبوية) (٥/ ١٩ - ٣٨).

فهرس الشواهد الشعرية (٥/ ٣٩ - ١٣٦).

فهرس الأرجاز (٥/ ١٣٧ - ١٧٠).

فهرس الأمثال (٥/ ١٧١ - ١٨٢).

فهرس الأعلام (٥/ ١٨٣ - ٢٠٤).

فهرس الأمكنة والبقاع (٥/ ٢٠٥ - ٢٢٢).

فهرس المصادر (٥/ ٢٢٣ - ٢٤٠).

فهرس الكتاب (٥/ ٢٤١).

وتحليل عمله في هذه الكشافات والفهارس يكشف عن جملة العلامات التالية:

أولًا: غياب كشاف للألفاظ أو الجذور اللغوية، وهو أمر لازم من جانبين:

جانب التيسير على المستعمل، مع اتساع مساحة معالجة عدد كبير من الجذور أحيانًا على صفحات ممتدة.

قيام الدليل على وقوع اضطراب في ترتيب عدد كبير من جذور المعجم ومواده.

ثانيًا: غياب تحكيم منظور التيسير على المستعمل، وهو ما تمثل في التأشير المكاني إلى المكونات الصغرى في الكشافات بذكر المواد أو الجذور اللغوية، بديلًا عن ذكر الصفحات! وهو أمر يهدر وقت المستعمل، ويرهقه.

ثالثًا: مخالفة المستقر في قواعد تكشيف القرآن الكريم، فقد رتب الآيات على غير الترتيب المصحفي الشائع، وقال (٥/٥): «نظمت فهارس الشواهد القرآنية بناءً على تنظيم المصنف للكتاب نفسه، أي بحسب المواد اللغوية الواردة فيه»، زاعمًا أن هذا التنظيم (كان) لتسهيل التعرف على موضع الاستشهاد من الفهرس ذاته. والحقيقة أنه رتب أجزاء الآيات بحسب أوائلها، لا بحسب الجذور، وهو أمر يهدر الوقت والجهد على المستعمل.

رابعًا: الاستجابة لمطلب تيسيري تمثل في بيان ما إذا كانت نسبة الأشعار في المتن، من المصنف أو من عمل المحقق بإطلاق المنسوب من الأقواس، وتقييد ما نسبه المحقق بالأقواس الهلالية، وترك المكان خاليًا لما لم ينسب من المصنف والمحقق معًا.

خامسًا: التورط في بدعة الفصل بين الشعر والرجز بلا مسوغ علمي.

سادسًا: التورط في تكشيف الأعلام الواردة في الهوامش، مخالفة لقواعد تكشيف النصوص التراثية محل التحقيق، وإن كان قد خفف من آثار تلك السلبية بوضع تبصرة متمثلة في الإشارة بالرمز (ح) أمام الأعلام المكشَّفة في الهوامش (= الحواشي في اصطلاح المحقق).

ثانيًا: الملاحق

يمكن أن نعد ما ذكره المحقق في آخر الجزء الرابع من أمر إثبات ورقة ملحقة تفردت بها النسخة «ل» (ع/ ٥٧٢)؛ ملحقًا، والحقيقة أن هذا الملحق مهم جدًّا لأنه يتضمن ما يلي:

أولًا: ذكر ابن فارس مصادره التي اعتمدها في جمع مادة معجمه، ولا سيما سماعاته من العلماء.

ثانيًا: ذكر إجازة ابن فارس رواية كتابه لابن دار الباب.

ثالثًا: ذكر سنة الفراغ من تصنيف المجمل (سنة ٣٨٨هـ)، ومكان الفراغ من ذلك (المحمدية).

رابعًا: ذكر روايات المجمل المختلفة.

خطاب تطبيق المكملات البَعْدية (الكشافات والملاحق) في تحقيق معجم مقاييس اللغة لابن فارس في العصر الحديث

أولًا: الكشافات

خصص هارون قسمًا كبيرًا من الجزء السادس من تحقيقه معجم مقاييس اللغة للفهارس العامة، ضمت ما يلي:

فهرس اللغة (٦/ ١٦٣ - ١٨٥): خصصه لما ورد من الألفاظ اللغوية في غير مادته، وللألفاظ غير العربية، ولما فات المعاجم المتداولة، ولما انفرد به ابن فارس، ورتبه على جذور المواد، واضعًا أمام الجذر والكلمة في صيغتها الواردة والمفسرة في المعجم.

والحقيقة أن هذا الكشاف مهم جدًّا، وهو يراعي خدمة المستعمل والتيسير عليه، ولكن صناعة كشاف تام لجذور المعجم كان أمرًا مهمًّا في ظل المنهج المتسلسل الذي رتب عليه ابن فارس جذور المعجم في الأبواب الألفبائية، وفي ظل التطبيقات لنظام الأبنية المستمر من لدن الخليل بن أحمد في العين.

فهرس الأشعار (٦/ ١٨٦ - ٣١٨): وقد قدم هارون إرشادات استعمال مهمة جدًّا، هدفها خدمة المستعمل والتيسير عليه.

فهرس الأرجاز (٦/ ٣١٩ - ٣٤٠): كان هارون -رحمه الله- من أوائل من ابتدع بدعة الفصل بين الشعر والرجز في صناعة تكشيف النصوص التراثية مشغلة التحقيق، ولم يسوغ ذلك الفصل بمسوغ علمي.

فهرس الأمثال (٦/ ٣٤١ - ٣٤٨): وقد توسع هارون في مفهوم الأمثال في هذا الكشاف ليضم: ما له أصل قصصي ومضرب خاص، وما هو عبارة مثالية، وما هو حكمة خالدة، وما هو من عبارات التأبيد. وقد رُتبت المداخل فيه ترتيبًا ألفبائيًّا بحسب أوائل العبارات.

فهرس الأعلام (٦/ ٣٤٩ - ٣٩٣): وقد كشف فيه الأعلام الواردة في الشعر، وغير الشعر، والأعلام المفسرة التي لم يعينها النص، وسكت عن تكشيف الأعلام التي زاد ذكرها عن (٤٠٠) مرة، فلم يذكر أمامها مؤشرات مكانية، أو أرقام مواضع ذكرها!

فهرس القبائل والطوائف (٦/ ٣٩٥ - ٤١٤).

فهرس البلدان والمواضع (٦/ ٤٠٣ - ٤١٤).

فهرس مراجع الشرح والتحقيق (٦/ ٤١٥ - ٤٢٠).

وتحليل عمل هارون في الفهارس أو الكشافات يكشف عن الملاحظ التالية:

أولًا: تطبيق المستقر في التكشيف بشأن المؤشرات المكانية، فقد ذكر أرقام الصفحات أمام المكونات الصغرى التي ضمها كل كشاف.

ثانيًا: تطبيق المستقر بشأن ترتيب المداخل أو المكونات الصغرى، ففي اللغة رتب المداخل وفق الجذور، وفي الشعر رتب الأشعار وفق القوافي، وهكذا.

ثالثًا: أخلّ هارون بعدد من الكشافات شائعة الخدمة، فقد سكت عن صناعة كشاف لآيات الكتاب العزيز، والحديث النبوي، ربما لكثرة الشواهد! كما سكت فلم يصنع كشافًا للكتب الواردة في متن المعجم التي هي مصادره، ولكنه لم يسوغ في السكوت عن هذين الكشافين وغيرهما.

رابعًا: الحرص على مبدأ التيسير على المستعمل، فقد حرص على بيان حال الشاهد المنسوب الذي أشار إليه ابن فارس ولم يذكره، حيث وضع قائله بين قوسين معقوفين [ ]، وما ذكره منسوبًا بوضعه من غير أقواس، وما ذكره عاري النسبة وتوصل المحقق إليه بوضعه بين قوسين هلاليين.

خامسًا: كما حرص على ذكر تعدد النسبة عند ورود أبيات متعددة النسبة لأكثر من شاعر.

سادسًا: الحرص على توفير الجهد على المستعملين، باستعمال التبصرات أمام عدد من المكونات الصغرى عند قيام الحاجة إلى ذلك [انظر: البابليان: (هاروت وماروت)، م٦/ ٣٥٤].

سابعًا: التورط في بدعة الفصل بين الأشعار والأرجاز، بلا مسوغ علمي مذكور، مع أن الرجز أحد بحور الشعر التي توصل إليها الخليل.

ثانيًا: الملاحق

لم يصنع هارون ملاحق للمعجم، اللّٰهُمَّ إلا إذا عَدَدْنا الصفحة القائمة التي صنعها بعد الفهارس العامة، لتفسير بعض الرموز المستعملة في الترميز لبعض مصادر التخريج؛ ملحقًا.

والحقيقة أن هذا المعجم كان بحاجة إلى عدد من الملاحق، أظهرها ملحق خاص بالنصوص التي انتقلت منه إلى المعجمات الأخرى التي خلفته، لبيان أثره في الخالفين.

(٣)
خطاب تطبيق إجراءات التحرير في تحقيق المجمل والمقاييس لابن فارس في العصر الحديث

اتفق محققو معجمي ابن فارس: المجمل والمقاييس، على جملة أمور في إنجاز تحريرهما بعد إنهاء تحقيقاتهم.

وهذه الأمور المتفق عليها في التحرير هي:

أولًا: الاتفاق على الهيئة الكلية النهائية لترتيب عناصر العمل المحقق، لتظهر وفق الترتيب: مقدمة التحقيق، المكملات الحديثة القبلية، النص محل التحقيق، المكملات الحديثة البَعْدية. وبيان ذلك كما يلي:

البدء بالمقدمة التي تتضمن كلمة كاشفة عن العمل مشغلة التحقيق، ولم يشذ إلا عبد السلام هارون الذي جعل مقدمة الطبعة الثانية من تحقيق المقاييس آخر المكملات الحديثة القبلية، من دون ذكر لمقدمة الطبعة الأولى!

المكملات الحديثة القبلية، واشتمل عمل كل محقق على ما يلي:

ترجمة المصنف.

دراسة نظام المعجم، ومنهج ترتيب المداخل اللغوية فيه.

بيان منهج العمل في التحقيق وإجراءاته، ولم يفعل ذلك محمد محيي الدين عبد الحميد في تحقيقه الجزء الأول من المعجم (المجمل).

بيان تفصيلات النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق، مع إيراد عدد من الصور الضوئية من هذه النسخ، ولم يفعل ذلك محمد محيي الدين عبد الحميد، لأنه -فيما يبدو- اعتمد في نشرته للجزء الأول من المجمل على نشرة (مطبوعة) قديمة للشيخ الشنقيطي (القاهرة ١٩١٤م).

المكملات الحديثة البعدية، واشتمل عمل كل محقق على ما يلي:

الكشافات أو (الفهارس العامة).

الملاحق.

وقد خلا تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد من أية كشافات أو ملاحق؛ نظرًا لأنه لم يتم، وصدر منه الجزء الأول فقط.

أما زهير سلطان في تحقيق المجمل فبدأ بالكشافات أو الفهارس، يتصدرها فهرس مصادر التحقيق مراجعة، وانتهى بكشاف الاستدراكات والتصويبات، وهو ما عددناه ملحقًا.

وأما هادي حسن حمودي في تحقيق المجمل، فبدأ بما عددناه ملحقًا ضم مصادر المعجم، وسماعات مصنفه وإجازاته لغيره وروايته، وبيانات الانتهاء من نَسْخ المصنِّف لمعجمه، ومكان الانتهاء من نسخه، وانتهى بكشافات التحقيق للنص.

وأما هارون فبدأ بالكشافات أو الفهارس العامة، وانتهى بما عددناه ملحقًا، وهو ما تمثل في القائمة التي صنعها للرموز المفسرة للمراجع التي استعملها في التحقيق والدراسة.

ثانيًا: الاتفاق على تحرير صفحة العنوان وفق ما يلي من أعلى الصفحة لأسفلها:

عنوان المعجم.

اسم المصنف.

تاريخ وفاة المصنف، وسكت عن بيانها هادي حسن حمودي في نشرته للمجمل.

بيان مفهوم ما نهض به المحقق، وقد ظهر مصطلح «التحقيق» في كل الأعمال قبل: اسم المحقق.

اسم المحقق.

دار النشر التي صدر عنها المعجم المحقق، ولم يرد ذلك في صفحة العنوان لنشرة محمد محيي الدين للمجمل.

ثالثًا: الاتفاق على إخراج الصفحة، وتحريرها من كتلتين طباعيتين:

الكتلة الأعلى للمتن؛ أو لنص المعجم.

الكتلة الأدنى للهوامش التي لإثبات فروق النسخ الناتجة عن المقابلة، أو للتخريجات والتعليقات والتوثيقات.

رابعًا: الاتفاق في سياسة توظيف الحجوم الطباعية المختلفة؛ بمعنى حصول التمييز بين خطوط ما يلي:

عنوانات الأبواب المعجمية، وقد اتخذ هذا التمييز الطباعي العلامات التالية:

تكبير حجوم الحروف والكلمات، وطبعها بحجم طباعي كبير.

تسويد الحجوم، وتغليظها.

وقد اتفق المحققون جميعًا على هذه السياسة التجريبية، وزاد محيي الدين عبد الحميد في تحقيق المجمل، وهارون في تحقيق المقاييس ما يلي:

وضع العنوانات الخاصة بالأبواب المعجمية بين قوسين مزهرين أسودين قاتمين غليظين.

وزاد محيي الدين عبد الحميد في تحقيق المجمل فوق ما مر ما يلي:

وضع خط في آخر كل باب معجمي/ وقبل عنوان الباب الجديد، واتخذت هذه الخطوط صورًا كثيرة متعددة.

الاتفاق على تمييز الكتب المعجمية، أو بداية كل حرف بكتابته بحجم طباعي كبير، وتسويده، وتغليظه، ووضع ذلك بين أقواس مزهرة في أحيان أخرى (عند محيي الدين عبد الحميد تعيينًا).

الاتفاق على جعل حجم كتابة المتن متوسطة دون العنوانات وفق الهوامش.

الاتفاق على كتابة رسوم المداخل بطريقة مائزة طباعيًّا بالتسويد والتغليظ، مع وضعها بين قوسين هلالين في تحقيق هادي حسن حمودي للمجمل، ومزهرين في تحقيق محيي الدين عبد الحميد للمجمل، وهارون في المقاييس، وتثبيت مواضعها في أول الفقرات، ولم يفعل ذلك محيي الدين عبد الحميد في تحرير رسوم المداخل للمجمل.

الاتفاق على سياسة الشواهد القرآنية بكتابتها بالرسم العثماني، ووضعها بين الأقواس العزيزية، وكذلك الشواهد الشعرية.

الاتفاق على تصغير الحجم الطباعي للهوامش في عمل كل محققي معجمي ابن فارس: المجمل والمقاييس.

وتأمُّل سياسات تحرير المحققين للمجمل والمقاييس يكشف عما يلي:

أولًا: غياب سياسات الترقيم للكتب (الحروف) والأبواب تحتها.

ثانيًا: غياب سياسات تمييز الكلمات في الشواهد التي تعرف بمواضع الاستشهاد بأية علامة تمييزية.

خاتمة

تناولت هذه الدراسة فحص عمل محققي معجمي ابن فارس: المجمل المقاييس، وتوقفت طويلًا أمام المطالب التالية من أجل تحقيق هذه التحقيقات:

أولًا: مدخل عن منزلة ابن فارس في تاريخ المعجمية العربية، وبيان سهمته في تطويرها.

ثانيًا: معجمات ابن فارس اللغوية: مقالة في خطاب التأريخ للتحقيق وعلاماته.

ثالثًا: المنجز المعجمي الألفبائي، لابن فارس: خطاب تحقيق التحقيق. وتناول هذا المبحث:

قراءة في تطبيقات الأسس والأصول: (حضور معايير الاختيار/ ومعايير جمع النسخ وترتيب منازلها/ تطبيقات النسخ والمقابلة/ تطبيقات المعالجة والتحقيق واستعادة الصورة التاريخية للمعجمين مشغلة المراجعة).

قراءة في تطبيقات المكملات الحديثة: (المكملات الحديثة القبلية: مقدمة التحقيق/ ترجمة ابن فارس/ ودراسة المعجم محل التحقيق/ العمل في التحقيق، والمنهج والإجراءات/ المكملات الحديثة البعدية: الملاحق/ والكشافات/ وتحرير العمل المحقق).

وقد كشفت هذه الدراسة عن حزمة من النتائج، بيانها كما يلي:

أولًا: ظهور الوعي المبكر مع بدء ظهور تقاليد تحقيق النصوص التراثية في المجال العربي الحديث، بقيمة منجز ابن فارس اللغوي في المعجمية العربية، إذ يعود الاشتغال بتحقيق المجمل إلى سنة ١٩١٤م.

ثانيًا: تنامي محددات الوعي بقيمة معجمات ابن فارس اللغوية، وتنوعها، والجديد الذي أضافته إلى مجال تطوير الوظائف المعجمية في تاريخها العربي.

ثالثًا: انحصار الوعي بقيمة معجمات ابن فارس، والتوجه إلى تحقيقها في المشرق العربي، فقد تعاور المحققون المشرقيون على خدمة هذه المعجمات في مصر والعراق تعيينًا.

رابعًا: حضور الوعي بجملة الأصول والأسس التي استقرت في التقاليد العربية لتحقيق

النصوص؛ تمثلت في ظهور قدر من العناية بجمع النسخ، وترتيب منازلها عند الاشتغال على النصوص بالتحقيق، وكذلك النسخ والمقابلة وإثبات فروق النسخ الناتجة عنهما، كما ظهر وعي بالمعالجة وتدقيق قراءة النص، وضبطه، وتعليل الضبط، والتعليق وتعليله، والتخريج للنصوص، والآراء المنضوية في هذين المعجمين، وتوثيق هذه التخريجات والتعليقات.

خامسًا: حضور الوعي بجملة المكملات الحديثة بصورة جيدة في الغالب، وإن حصل تفاوت في: استيفاء عناصرها، وترتيبها، وبناء الكشافات من عمل محقق لآخر من جملة محققي هذين المعجمين.

سادسًا: ظهور تفاوت في المبادئ الحاكمة لترتيب منازل النسخ المعتمدة في تحقيق معجمات ابن فارس.

سابعًا: ظهور نقص في عناصر دراسة النص بصورة واضحة عند كل محققي معجمات ابن فارس.

ثامنًا: ظهور نقص في الكشافات التي صنعها محققو هذه المعاجم، كلٌّ على حدة.

تاسعًا: ظهور نقص في استيعاب جمع النسخ من محقق لآخر، نتج عنه تفاوت في كثافة المعجم عند تكرار تحقيقه.

عاشرًا: ظهور مشكلات في قراءة النص، وضبطه؛ بسبب القصور في عرض نصوص معجمات ابن فارس عند تحقيقها على مصادرها التي رجع إليها المصنف، وكثير منها متداول منشور.

المصادر والمراجع

استعارة أسماء أعضاء الإنسان، تحقيق د. أحمد خان، كتاب المورد، بغداد، ١٩٨٧م.

أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيها، تحقيق ماجد الذهبي، الكويت ١٤٠٩ه = ١٩٨٩م.

تحقيق النسخة الفريدة: مأزق التعامل مع النص نظرًا وتطبيقًا، يوسف السناري، إصدارات كرسي عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٨م.

تمام فصيح الكلام، تحقيق إبراهيم السامرائي، ضمن رسائل في اللغة والأدب والتاريخ، الأردن، ١٤٠٨ه= ١٩٨٨م.

مجمل اللغة، ابن فارس، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، سنة ١٩٤٧م.

معجم مقاييس اللغة لابن فارس: استدراكات وتصحيحات، مجلة الدارة، المملكة العربية السعودية، ع (١)، مج (١٩)، ١٤١٣ه.

المِجَنَّة في الطاعون والوباء
لإلياس اليهودي بن إبراهيم الإسباني

دراسة وتحليل

د. شريف علي الأنصاري(*)

ملخص البحث

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي شهده التراث العربي المخطوط من البحث والدراسة، فإنه ما زال هناك الكثير من المخطوطات التي باتت في طي النسيان، والتي لم يُشَر إليها ولا إلى صاحبها بكلمة واحدة في بحث علمي.

والمخطوط الذي بين أيدينا «الـمِجَنَّةُ في الطاعون والوباء» -للأسف- كان حظه كحظ مؤلفه لم يُكتب عنه كلمة سواء بالإيجاب أو السلب، وكأن صاحبه كان نسيًا منسيًّا. ومن ثم، وجب أن نتناوله بالبحث والدراسة، خاصة أنه يتحدث عن الطاعون والوباء، وشرح أسباب حدوث كلٍّ منهما، وطرق حفظ الصحة من الوباء والطاعون، فكان لزامًا علينا أن نعرف كيف فهم وتعامل الأطباء في ظل الحضارة العربية الإسلامية مع الوباء والطاعون؟ هل كانت آراؤهم العلمية نتيجة للتفكير العلمي المحض أو كان يشوبها نوع من الأساطير والخرافات؟ ولن يتسنى لنا ذلك إلا بعد دراسة هذا المخطوط دراسةً علمية والتعريف بمؤلفه.

(*) كبير باحثين بمركز المخطوطات، مكتبة الاسكندرية.

Al-Mijanna fī al-Tā'ūn wa al-Wabā' by Ilīās al-Yahūdī b. Ibrāhīm al-Aspānī: An Analytical Study

Dr. Sherif Ali Al-Ansary(*)

Abstract

Despite the great scholarly interest in written Arab heritage, many Arabic manuscripts, along with their authors, have fallen out of any academic attention into oblivion. This was the case of the manuscript in hand, al-Mijanna fī al-Tā'ūn wa al-Wabā' (The Shield from Plagues and Epidemics), which, unfortunately, suffered the same fate of its author, being neglected from any written record or scientific work. Thus, it became incumbent to examine and study it, particularly as it tackles the causes and prevention of plagues and epidemics. The study examines how physicians in the Arab-Islamic civilization understood and dealt with epidemics and plagues, and whether their opinions were purely scientific, or were influenced by superstition and fantasy. Moreover, the study gives special attention to introducing its author.

(*) Senior Researcher at the Manuscripts Center, the Bibliotheca Alexandrina.

المِجَنَّة في الطاعون والوباء: المخطوط المنسي كصاحبه

نقف اليوم أمام عالِم عربي لم تُكتب عنه كلمة واحدة في تاريخ العلم عامة، والعلم العربي خاصة، هو إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني. ونقف كذلك على مخطوطة لم تُدرس أو تُحقَّق، أو حتى يُشار إليها في مؤتمر أو محاضرة، أو بحث علمي محكّم أو حتى غير محكّم. هذه المخطوطة هي «الـمِجَنَّةُ في الطاعون والوباء»، والمقصود بالـمِجَنَّة أي الموضع الذي يُستتر فيه، أو الأرض الكثيرة الجن، مَجَن الشيء مُجونًا: صَلُبَ وغَلُظَ، ومنه اشتقاق الماجن لصلابة وجهه وقلة استحيائه»[1].

ومن ثم، يقصد المؤلف بالعنوان: الأرض التي يُكثر بها الطاعون أو الوباء، أو المكان الذي تختفي فيه أسباب الطاعون والوباء، وهو ما أراد الحديث فيه في هذه المخطوطة. وعلى الرغم من أهمية المخطوطة كما سيتضح بعد قليل، فإنها لم تلقَ اهتمامًا من أيٍّ من الباحثين سواء في الشرق أو الغرب! قد يظن القارئ أن السبب الرئيس راجع إلى ندرة نسخ هذه المخطوطة، لكن يتضاعف التعجب والتساؤلات إذا علمنا أن هناك العديد من النسخ في غير موضع من مكتبات العالم، وهو ما سنعرضه بعد قليل.

هل كان انصراف الباحثين عن هذا العالِم ومؤلفاته راجعًا إلى أنه غير مسلم؟! إذا كانت الحضارة العربية الإسلامية في أوج تقدمها لم تنظر إلى مثل هذه التساؤلات، ولم تنادِ بها، ولم تلتفت إليها؛ وإذا كان المعيار الرئيس هو جودة العمل والإخلاص فيه بغض النظر عن الدين؛ فلماذا نلتفت نحن معشر العلماء المعاصرين إلى مثل هذه الدعاوى والنداءات الطائفية والدينية؟! حقيقة تعلمتها من دراستي لتاريخ الحضارة وفلسفتها: عندما تكون الحضارة قوية، يصبح العلماء مثقفين وأقوياء علميًّا، ولا يلتفتون لمثل هذه المشكلات الصغيرة، والعكس عندما

---

(١) **لسان العرب**، ابن منظور، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج١٣، (مادة مَجَنَ): ٣٢.

تكون الحضارة ضعيفة؛ تظهر على الساحة تفاهات المسائل وسفاسف الأمور، وأصبحت تأخذ الكثير من تفكيرنا ووقتنا، وتشغل جزءًا كبيرًا من عقولنا.

ولكي يتسم بحثنا هذا بالموضوعية، فلقد ألزمت نفسي بالمنهج التحليلي في دراستي لهذا النص المخطوط وهذا العالم، معتمدًا في ذلك على النقد والمقارنة. إلا أنني واجهت بعض المشكلات، منها أولًا: ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن عالمنا إلياس بن إبراهيم الإسباني، وثانيها: أنني بذلت قصار جهدي في الحصول على النسخة الثالثة من تركيا، وبعد طول بحث وعناء ومراسلات وتوصيات لم يُجبني سوى صدى صوتي! فاكتفيت بالنسختين اللتين سوف أتناولهما بالعرض في أثناء بحثي هذا.

(١) اسم المؤلف

هو إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، على حسب ما ورد في متن المخطوطة[٢]. ويبدو أنه تعلم الطب على يد أهله وأقاربه، وذلك بناءً على ما ذكره هو، يقول: «فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم وتعمّقات إشاراتهم، أدمتُ المـُدَارسَةَ العلمية مع أهلي»[٣].

ولا تذكر المراجع والمصادر عنه شيء، وكأن الرجل كان نسيًا منسيًّا. ونستطيع أن نتبين ملامح من ترجمته من خلال ذكره للسلطان بايزيد محمد خان[٤]، وأنه كان يغدق عليه كثيرًا من الأموال

(٢) **المجنة في الطاعون**، (ق ١ب).

(٣) المصدر السابق، (ق ٢أ).

(٤) أبو نصر بايزيد خان الثاني ابن محمد الفاتح ابن مراد العثماني: هو ثامن السلاطين العثمانيين، ولد ١٦ رمضان سنة ٨٥١ هجرية (١٤٤٧م)، وتوفي في الأول من ربيع الأول سنة ٩١٨ هجرية (١٥١٢م)، وتقلد الحكم منذ عام ١٤٨١م، عرف عنه أنه كان يؤلف الشعر والموسيقى، ويتقن فن الخط العربي. وكان أكبر أولاد أبيه السلطان محمد الفاتح. حكم في عهد أبيه مقاطعة أماسيا. تولى السلطنة بعد أبيه بعد أن نازعه أخوه «جَمّ» عليها. حصلت خلافات في عهده بين دولته والدولة المملوكية، وتحاربت الدولتان حربًا تم إبرام صلح بعدها.

وصلت الفتوحات في عهده لدولة البندقية التي انتصر عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، فقامت حروب صليبية بين الطرفين. ظهرت في عهده دولة روسيا سنة ٨٨٦ هجرية، وأرسلت له سفيرها عام ٨٩٧ هجرية. أُجبر من قبل الإنكشارية في آخر حياته على التنازل عن الحكم لابنه سليم الأول سنة ٩١٨ هجرية، وهي نفس السنة التي توفي فيها. (**الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط**، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، مصر، ١٤٢١ه/ ٢٠٠١م: ١٦٣ وما بعدها).

والعطايا، وله عنده مكانة رفيعة، مما جعل إلياس الإسباني يذكره بكثير من عبارات التبجيل قائلًا: «وخدمتُ بتلك البضاعة القليلة بوضع رأسي إلى تراب ذلك الباب، هو كعبة مرادات جملة الطلاب، وبتقبيلي بقلب صادق ذلك الرقاب، هو مقصد كافة أولي الألباب، وتوجهت بمسح وجهي إلى عتبة خليفةٍ خَلّفهُ الله في الدوران على سلاطين الزمان... أبو النصر السلطان ابن السلطان سلطان بايزيد بن محمد خان»(٥).

وقد أهدى مؤلَّفه هذا إلى السلطان بايزيد بن محمد خان، وكان شائعًا إهداء العلماء للمؤلفات العلمية للحكام والسلاطين، وتضمين أسمائهم في هذه المؤلفات تخليدًا لهم، وتمجيدًا لاهتمامهم بالعلم والعلماء، ومن أمثلة ذلك الذخيرة الخوارزمية لخوارزم شاه والزيج السلطاني والزيج الحاكمي. وهذا الموضوع يطول الحديث فيه، لكني آثرت الإلماح إليه هنا.

(٢) مؤلفاته وإنتاجه العلمي

على الرغم من ندرة ما ورد عن إلياس بن إبراهيم الإسباني من معلومات، إلا أنني -بفضل الله- توصلت إلى ثلاثة مؤلفات من مؤلفاته:

أ- **كتاب إظهار الفلاسفة**: أحال عليه الإسباني في أثناء حديثه في المخطوطة، فذكر: «وقد استوفيت هذا البحث في كتابي المـُسمَّى بإظهار الفلاسفة»(٦).

ب- **شرح القانون في الطب، لابن سينا**: وأحال إليه إلياس بن إبراهيم الإسباني في غير موضع من المخطوط، ويبدو أنه كان يهتم بكتاب القانون؛ فيذكر: «وقد فصّلنا في شرحنا في كتاب الرابع من القانون»(٧).

ج- **المِجَنَّة في الطاعون والوباء**: وهو موضوع البحث.

(٥) المصدر السابق، (ق ٣أ، ب).
(٦) المصدر السابق، (ق ٢٦ب).
(٧) المصدر السابق، (ق ٣٢ب).

ومن الملاحظ أن جميع مؤلفات إلياس بن إبراهيم الإسباني لم تظهر للوجود حتى الآن، وقد نالت حظ ونصيب مؤلفها، فلم يُكتب عنها ولا عنه كلمة واحدة في بحث علمي -وفقًا لمعلومات الباحث. (صفحة أخرى محزنة ومشينة من موسوعة التراث العربي والعلماء العرب والمسلمين!).

(٣) أهمية المخطوط

تبدو أهمية مخطوط «المجنة في الطاعون والوباء» خلال عدة نقاط نوجزها فيما يلي:

أولًا: اهتمام إلياس بن إبراهيم بالحدود، أي تعريفات الأشياء، حتى يتم توحيد المصطلحات بالتعبير المعاصر اليوم، وذلك قبل أن يتكلم عن أسباب الطاعون وعلاماته والوقاية والعلاج منه؛ فبدأ في الباب الأول بتعريف دقيق لكلٍّ من الوباء والطاعون، فيذكر: «اعلم أن الوباء: فساد وعفونة تعرض لجوهر الهواء، بحيث يصل إلى أرواح الحيوانات والأخلاط المجاورة للقلب يوجب هلاكهم. والطاعون: ورم أو بثور مع تلهب شديد مؤذٍ جدًّا مجاوز المقدار، وحوله أسود أو أخضر أو يحمر سريعًا»(٨).

وفي بداية الباب الثاني يورد تعريفًا لمنصور الحكيم -ولعله أحد أطباء عصره- قبل الحديث عن علامات الحميات، فيذكر: «الباب الثاني: في علامات الحميات الوبائية. اعلم أن منصور الحكيم يسمي الحمى الوبائية بالحمى الخادعة؛ لأنه يخدع الأطباء؛ لأنها لا تستقر بحالةٍ واحدةٍ»(٩).

ثانيًا: يعكس المخطوط أننا أمام طبيب بارع بكل المقاييس، وإن لم نكن نعرف عنه شيئًا؛ فنجد إلياس بن إبراهيم أثناء وصفه الدقيق عن العلامات القريبة للحمى الوبائية، يذكر: «وأما العلامات القريبة المصدقة لهذا المرض، فهي أن المريض يجد في باطنه حرارة مفرطة، ولكن لا توجد في ظاهره، ويكون نَفَسُهُ عظيمًا مُتواترًا، ويجد عطشًا شديدًا مع جفاف اللسان، وله قلق

(٨) المصدر السابق، نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٤أ، ب)، اعتمد الباحث على نسخة تشستربيتي برقم ٣٦٧٦ م. ك. مج ٦؛ لأن النسخة الأولى تنقصها هذه الورقة.

(٩) النص المخطوط، (ق ٨ب).

واضطراب عظيم. وقد يكون معه التهوّعُ والقيء، ويخرج بالقيء أشياء سمجة، والنبض أكثره صغير متواتر، وقد يكون معه إسهال صفراءٍ»(١٠).

لم يتوقف إلياس عند هذا الحد بل وصف مخرجات المريض بالحمى الوبائية قائلًا: «وما يخرج من العرق والبول والبراز والقيء منتن الرائحة، وقد يكون معه سعال يابسٌ، وقد يلزمه الغشى، وقد يكون معه هذيانٌ واختلاط، والسهر المفرط، والوجع فيما يجاور القلب. واعلم أن بول هؤلاء يدل على هذه الحمى دلالةً صحيحةً، وقد يكون رقيقًا أبيض، وقد يكون أسود، وقد يكون بوله مثل بول الصحيح، وإذا كان كذلك تدل على قرب الموت»(١١).

ثالثًا: تضم المخطوطة بين عباراتها شهادة حق من الأطباء النصارى على اهتمام أبي علي ابن سينا -المتوفى ٤٢٨ هجرية- بالتجريب(١٢)، وأنه كان لا يكتب علاج الأمراض إلا بعد تجريب العلاج وتتبع أحوال المريض، فيذكر: «واعلم أن الأطباء المتقدمين يختصرون في كتبهم في علاج هذا المرض غاية الاختصار، وخصوصًا منهم الشيخ أبو علي الذي هو رئيس الأطباء، فإنه في قانونه يختصر عند ذكر علاج هذا المرض، ويطوّل في ذكر علاج كل مرضٍ سواه، مع أن هذا المرض كثير الوقوع وكثير الضرّر، وبعض الأمراض قليل الوقوع وقليل الضرر، فالمناسب أن يطول علاجه غاية التطويل.

وأجاب عن هذا حُكماء النصارى: بأن أبا علي مع وفور علمه وكمال فضله، كان لا يكتب في علاج كلِّ مرض إلا بالتجربة الكثيرة، وتتبع أحوال ذلك المرض... وأما مرض الطاعون فلما كان فيه مخافة السراية كان لا يزور المريض بمرض الطاعون، ولا يرسل إليه خادمًا، وإنما كتب ما كتب في علاجه بمقتضى عقله وكياسته، فاختصر لقلة اطلاعه بحقيقة الحال في هذا المرض»(١٣).

---

(١٠) المخطوط، (ق ٨ب، ٩أ).

(١١) المخطوط، (ق ٩أ).

(١٢) يعتبر التجريب من الأمور المهمة في المنهج العلمي، وكثيرًا ما وُصِمَ العلماء العرب المسلمون بافتقارهم للمنهج التجريبي، وهناك الكثير من المؤلفات المجحفة لإسهامات العلماء العرب والمسلمين بناءً على هذا المعيار، وفي مقابل ذلك التمجيد والتهليل لعلماء الغرب ومنهجهم العلمي القائم على التجريب وما يلزم ذلك من خطواته وهي: الملاحظة، وفرض الفروض، والتأكد من صحة الفروض (التجربة)، وصياغة النتائج في قانون علمي.

(١٣) النص المخطوط، (ق ١٤أ، ب).

كما تظهر مدى دقة وكفاءة الشيخ الرئيس ابن سينا الذي يتتبع أحوال المرض، من البدء حتى الذروة وانحطاط المرض أي شفاء المريض، كما أنه لا يزور المريض ولا حتى يرسل إليه خادمًا، وذلك لعلمه أن هذا المرض مُعدٍ.

رابعًا: يروي لنا إلياس بن إبراهيم عن الوباء والطاعون الذي وقع في إسبانيا وكيفية الشفاء لمن أصيب به، فيذكر: «وأقول: وقع في بلاد إسبانيا الوباء العظيم مع الطاعون، وأكثر مَن يشرب ماء لحم الفروج كان يُردّ إلى الصحة، ومن يمسك ولا يأكل شيئًا من ذلك فيهلكه»(١٤). وهو ما نصح به جميع الأطباء في الوقت الحاضر بضرورة شرب كثير من السوائل؛ وذلك للمحافظة على الصحة من الوباء، ومَن أصيب بالوباء فعليه الاهتمام بالأطعمة وشرب السوائل؛ لتعويض جسم المريض بما يفقده من سوائل.

خامسًا: أورد إلياس بن إبراهيم تفسيرًا علميًّا منطقيًّا؛ حيث ذكر أن حدوث الوباء والطاعون راجع إلى صعود الأبخرة من الأرض نتيجة الأشعة المنعكسة من الأجرام السماوية، فيذكر: «إن من المعلوم أن الأجرام السماوية وشعاع الكواكب الواصل إلى الأرض يخرج منه الأبخرة والأدخنة، وإذا كان الكواكب العلوية مقابلة للسفلية يخرج من الأرض أبخرة غليظة شديدة لم يكن للهواء قوة تُحلِّلُها؛ لكثرتها أو لغلظتها... لم تكن تحلله يتعفن الهواء.

فالقول الذي نُقل من الأفاضل من أنه يتولد من الأجرام السماوية الحرارةُ فمسَلّم، لكن يحصل بسبب تلك الحرارة الأبخرة والأدخنة الغليظة، وبسببها يحصل الرطوبة في الهواء، فيحصل العفونة، فالأجرام السماوية يحصل منها الحرارة أولًا، وبالذات ويحصل الأبخرة منها ثم يحصل الرطوبة والعفونة ثانيًا»(١٥).

سادسًا: اختتم إلياس بن إبراهيم حديثه عن الوباء والطاعون وكيفية الوقاية منه بقوله: «والمناسب أن يُغسل اليد والوجه وسائر الأعضاء بالخلّ وماء الورد، ويُغرغر أيضًا بهما، هذا كافٍ

(١٤) النص المخطوط، (ق ٢١ب).
(١٥) النص المخطوط، (ق ٢٥أ، ب).

في حفظ صحة هذا المريض وعلاجه من الأغذية والأشربة والطلاء والضماد والبخور والشموم... هذا هو الذي وجدته بالتجربة في هذا المرض العظيم»[١٦].

وهو ما أكده العلم الحديث، وهو تطهير الأيدي دائمًا والأسطح، وأن تجعل فمك وحلق الإنسان دائمًا رطبًا حتى لا يعلق به أي فيروس، وأكد إلياس الإسباني أنه اعتمد على التجربة قبل إيراد هذه الآراء في رسالته كما هو واضح من الفقرة السابقة.

سابعًا: المؤلفات: ذكر المؤلِّف في هذه المخطوطة أسماء العديد من المؤلَّفات، ونسبة هذه المؤلفات للمؤلفين، منها ما هو معروف، ومنها ما هو مجهول لدينا. ومن ثم، فهو هنا يكشف اللثام عن الكتب التي هي مجهولة لدينا[١٧]، فيذكر: «لما رزقني الله تعالى معرفة علم الأبدان الذي صحة الإنسان، بإعطاء التوفيق للوصول إلى خدمة أطباء الزمان، في كثير من البلدان، ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين، مثل:

- كتاب فيديميا، وكتاب الأمراض الحارّة، وكتاب تقديم المعرفة لأبقراط.
- وكتاب أصناف الحميّات، وكتاب صناعات الكبير، وكتاب الأغذية لجالينوس.
- وكتاب الحميّات لإسحاق اليهودي.
- والحاوي لزكريا الرازي.
- ورسائل مروان بن زُهر.
- وقانون الشيخ[١٨].
- وكليات ابن رشد الفاضل القرطبيّ، وغيرهم من اليهود والنصارى»[١٩].

(١٦) النص المخطوط، (ق ٢٢أ).

(١٧) آثرت هنا ذكر الفقرة التي ورد بها اسم المؤلف؛ وذلك لتتميم الفائدة، ودقة التوثيق.

(١٨) يقصد بالشيخ هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري، ويلقب بالشيخ الرئيس (٣٧٠ - ٤٢٨هـ)/ (٩٨٠ - ١٠٣٧م) (معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م، ج٣: ٦١٨؛ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ج٢: ٢٤١، ٢٤٢؛ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ج١: ٣٠٨).

(١٩) المجنة في الطاعون، إلياس بن إبراهيم الأسباني، (ق ١ب، ٢أ).

- وذكر أن لأرسطو مقالة الزلزلة، فيذكر: «قال رئيس الفلاسفة أرسطو في مقالة الزلزلة»[٢٠].
- «وقال أشيدروس الحكيم في كتاب بطوء الشيخوخة»[٢١].
- «كما قال جيدوا الحكيم[٢٢] ذكر اسم أحد الفلاسفة الأطباء».
- «قال جالينوس في شرحه لفصول الفاضل أبقراط»[٢٣].
- «هكذا قال جالينوس في مقالةِ جيد الكيموس»[٢٤].
- «كما قال جالينوس في كتاب ترياق القيصران»[٢٥].
- «وقال إسحاق اليهودي أيضًا في كتاب الحميات»[٢٦].
- «فمروي عن علي بن عباس في كتب العنصر»[٢٧].
- «وأيضًا مروي عن بطليموس، وهو رئيس الحكماء الهندي، في علم الهيئة في كتاب المحيط»[٢٨].
- «وقد استوفيت هذا البحث في كتابي الـمُسمى بإظهار الفلاسفة»[٢٩].
- «مروي عن أرسطو في كتاب علاماته العُلويّة»[٣٠].
- «مروي من جالينوس في كتاب الحمّيات، ومن الرازي في مقالة الطاعون»[٣١].
- «قال جالينوس في كتاب المزاج»[٣٢].
- «جالينوس في كتاب صناعة الصغيرة»[٣٣].

---

(٢٠) المجنة في الطاعون، (ق ٤ب).
(٢١) المجنة في الطاعون، (ق ٧أ).
(٢٢) المجنة في الطاعون، (ق ٧أ).
(٢٣) المصدر السابق، (ق ٩أ).
(٢٤) المخطوط، (ق ١٢أ).
(٢٥) المخطوط، (ق ١٢ب).
(٢٦) المخطوط، (ق ١٤أ).
(٢٧) المخطوط، (ق ٢٤أ).
(٢٨) المخطوط، (ق ٢٤ب).
(٢٩) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣٠) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣١) المخطوط، (ق ٢٦ب).
(٣٢) المخطوط، (ق ٢٨أ).
(٣٣) المخطوط، (ق ٢٨ب).

- «كلام جالينوس في كتاب الحميات»[٣٤].
- «قال أرسطو في كتاب العلامات العُليا»[٣٥].
- «وقد فصّلنا في شرحنا في كتاب الرابع من القانون»[٣٦].
- «وهذا مروي من جالينوس في كتاب ماء الأمير»[٣٧].
- «جالينوس حقق في مقاله الترياق[٣٨]»[٣٩].

(٤) وصف النسخ

(أ) نسخة المكتبة الخاصة

نسخة جيدة، كتبها محمد الطبيب في ولاية بودين[٤٠]، بقلم نسخي معتاد واضح، بعضها مشكول، في أواسط شهر شعبان المعظم سنة ست وتسعين وتسعمائة. تضم المخطوطة ستًّا وثلاثين ورقة (الورقة صفحتان) من القطع المتوسط، تضم كل صفحة ثلاثة عشر سطرًا، ويضم كل سطر ثماني كلمات تقريبًا، كتبت العناوين بقلم مغاير، ومن ثم فهي غير واضحة في النسخة المصورة، تنقص المخطوطة بمقدار ورقة بعد الورقة الخامسة، وهو ما ظهر بالدراسة وقراءة سياق النص، وتم استكمال النص من نسخة تشستربيتي، وأشرت إلى ذلك، كلٌّ في موضعه.

(٣٤) المخطوط، (ق ٣٠أ).

(٣٥) المخطوط، (ق ٣٢أ).

(٣٦) المخطوط، (ق ٣٢ب).

(٣٧) المخطوط، (ق ٣٤ب).

(٣٨) التِّرياق (Theriac): هو الدّرياق، اسم يوناني لدواء مُرَكَّب تركيبًا صناعيًّا، من شأنه إذا ورد على بدن الإنسان تقوية الروح الحيواني والحرارة الغريزية، وحِفْظ الصِّحَّة، وإزالة المرض، والتخلص من السموم الحيوانية والنباتية والمعدنية.
(انظر: معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي، د. أحمد فؤاد باشا، مركز تحقيق التراث العربي، ط١، القاهرة، ١٤٣٤ه = ٢٠١٣م، مادة ترياق: ٥٩؛ كتاب الماء: أول معجم طبي لغوي في التاريخ، أبو محمد عبد الله بن محمد الصحاري الأزدي، حققه د. هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١، سلطنة عمان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ج١، مادة ترق: ١٩٤ وما بعدها؛ مفاتيح العلوم، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، تقديم د.جودت فخر الدين، دار المناهل، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ= ١٩٩١م: ١٦٤).

(٣٩) المخطوط، (ق ٣٥أ).

(٤٠) تقع ولاية بودين في دولة المجر حالًيا، وألحقت بالدولة العثمانية تحت اسم ولاية بودين سنة ١٥٤١م.

بأولها وبآخرها نُقول باللغة التركية، وعليها تعليقات، انتهى المؤلف من تأليفه للمخطوطة في أوائل شعبان المعظم من شهور سنة خمسة عشر وتسعمائة في بلدة قسطنطين.

أولها: الحمد لله الذي شرح صدور الأطباء بعلم الأبدان، ونوّر قلوبهم بإخراج عفونة البُخار والدخان، ليكونوا مصلحين لأحوال سائر الحيوان، وخاصة لمصالح الإنسان... وبعد؛ فيقول أضعف العبيد... إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، لـمّا رزقني الله تعالى معرفة علم الأبدان... للوصول إلى خدمة أطباء الزمان، في كثير من البلدان، ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين... فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم... أدمتُ المدارسة العلمية مع أهلي... إلى أن حصل عندي أصل الطب بالتجارب الكثيرة، وظهر لي قدرةُ الإقدام على علاج الأمراض الخطيرة، سيما الداء العضال المسمى بالوباء والطاعون الأليم، المنبعث سريعًا بالأهوية المتعفنة في هذا الإقليم، ولم نقدر على إتيان شكر هذه النعمة العظيمة... غير أن أجمع أوراقًا أبيّن فيها بالخصوص باعث تلك الأمراض المخصوص... وكتبت رسالة بها يتفوّح للروح ريح الصبا مسماة بمجنة الطاعون والوبا، وبيّنت فيها أسبابهما وعلاماتهما وطرق علاجهما ومداواتهما...

الأبواب والمباحث الداخلية الواردة في المخطوط

الباب الأول: في تعريف الوباء والطاعون وأسبابهما.

الباب الثاني: في علاماتهما.

الباب الثالث: في حفظ الصحة وقت حدوثهما.

الباب الرابع: في بيان علاج الطاعون والمحموم والوباء.

المباحث الواقعة في هذه الرسالة من الطاعون

المبحث الأول: هل الأجرام السماوية وقوة الكواكب سبب الحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الثاني: هل الشهب والصواعق وعمود النار المرئي في الهواء علامات الطاعون أم لا؟

المبحث الثالث: هل يحصل العفونة في الهواء بحسب طبيعته أم لا؟

المبحث الرابع: هل الحمى الوبائية مندرج تحت الحمى اليومية أو تحت العفنية أم لا؟

المبحث الخامس: هل الروح الحيوانية متولد من القلب وفي القلب أم لا؟

المبحث السادس: هل يمكن أن يكون الشخص فقط محمومًا بالحمى الوبائية وما عداه سالـمًا؟

المبحث السابع: هل الذي منافذه واسعة ويداوم الاستحمام أقل للحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الثامن: هل يتخالف النبض والبول كثيرًا في الحماء الوبائية أم لا؟

المبحث التاسع: كيف الفصل أقبل للحماء الوبائية من فصول السنة؟

المبحث العاشر: هل الفصد يكون مفيدًا للحماء الوبائية أم لا؟

المبحث الحادي عشر: هل الخل وسائر الحوامض مفيد في زمان الحمى الوبائية أم لا؟

المبحث الثاني عشر: هل يفيد استعمال الترياق الفاروق في زمان الحمى الوبائية أم لا؟

آخر خاتمة المؤلف

وأما ما كان مزاجه صحيحًا عاريًا من كل العفونة يضرّه الترياق الفاروق، وتطويل هذا البحث مذكور في شرحنا في كتاب الرابع من القانون لأبي علي، والله أعلم... تم المقال، تمت هذه الرسالة الموسومة بمجنة الطاعون والوباء بعون الملك... للفقير الحقير الشهير بإلياس بن إبراهيم اليهود... في قسطنطين المحمية... في أوائل شعبان المعظم من شهور سنة خمس عشر وتسعمائة، تم.

خاتمة الناسخ

تمت هذه الكتابة بيد محمد الطبيب المحتاج إلى رحمة الله... في ولاية بودين في أواسط شعبان المعظم من يوم دوشنبه[41] سنة ست وتسعين وتسعمائة.

(٤١) اسم مشتق من اللغة الطاجيكية، أي يوم الإثنين، نسبةً للسوق الذي كان يقام في البلد كل يوم إثنين.

(ب) نسخة تشستربيتي

نسخة جيدة، كتبها السيد مصطفى المتطبب، بقلم رقعة، في سنة إحدى عشرة ومائة وألف هجرية على ما ورد في بطاقة الفهرسة الخاصة بالمكتبة. وحيث إنها ضمن مجموعة من (١٨٥ب – ٢١٦ب) ذُكر بالمخطوطة التي قبلها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وهي منسوخة بنفس الخط وعدد السطور، وهذا يؤكد أنها لنفس الناسخ، رقم الحفظ بالمكتبة ٣٦٧٦ م. ك. مج ٦، تضم المخطوطة واحدًا وثلاثين ورقة (الورقة صفحتان) من القطع المتوسط، وتضم كل صفحة ستة عشر سطرًا، ويضم كل سطر سبع كلمات تقريبًا، كتبت العناوين بقلم مغاير، ومن ثم فهي غير واضحة في بعض المواضع في النسخة المصورة.

(٥) سمات المنهج

(أ) التجريب[٤٢]

يعد التجريب من المعايير المهمة في فكر العالم، وبقدر اعتماد العالم على التجريب بقدر ثقة الآخرين فيه؛ فهو مثلًا لا يقبل رأي الآخرين -سواء السابقين أو المعاصرين له- إلا بعد أن يتأكد من صحته بالتجربة، وهو لا يقدم نتيجة علمية توصَّل إليها إلا بعد أن يتأكد من صحتها بالتجربة وهكذا، ونجد إلياس الإسباني يؤكد على ذلك بقوله:

(٤٢) التجربة: فِعلٌ تحصل به المجربات، وهي القضايا التي يحتاج العقل في جزم الحُكم بها إلى واسطة تكرار المشاهدة، ولا يقال إلا في التأثير والتأثر، وبملاحظاتها مرارًا يحصل لمشاهدها العلم التجريبي، ويقال للتجربة كلية عندما يتكرر وقوعها بحيث لا يحتمل معه اللاوقوع.

والمجربات الكلية من أقسام اليقينيات الضرورية، والتجربة بالمعني العام يقال لها خبرة، والمعنى الخاص هي التجربة العلمية التي تتم بشروطٍ معينة تسمى الطريقة أو المنهج التجريبي، وهو يقوم على الملاحظة والتصنيف والفرض والتحقيق، وتسمى مجربات التجربة العلمية علومًا تجريبية لاعتمادها على التجريب.

يعرفه المسعودي بأنه: ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من الرعاف والعروق والإسهال والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعةً أو ضررًا. (مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت – لبنان: ١٧٣؛ المعجم الفلسفي، د. عبد المنعم الحفني، الدار الشرقية للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٠م: ٥٣.

لمزيد من التفصيل، راجع: الموسوعة الفلسفية العربية، د. محمود فهمي زيدان وآخرون، رئيس التحرير د. معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦م، المجلد الأول (الإصطلاحات والمفاهيم)، مادة تجربة: ٢٣٢، ٢٣٣.

«فلما وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم وتعمقات إشاراتهم، أدمت المدارسة العلمية مع أهلي، وأدمنت الممارسة العملية لإزالة بقية جهلي، إذ العملي لا ينكشف إلا بمزاولة العمل، وترك التواني والكسل، إلى أن حصل عندي أصل الطب بالتجارب الكثيرة، وظهر لي قدرةُ الإقدام على علاج الأمراض الخطيرة، سيما الداء العضال المسمى بالوباء والطاعون»(٤٣).

كما جعل العمل والتجريب شرطًا للوصول إلى العلم الحقيقي، والوصول إلى أصل الطب لا يكون إلا بالتجارب الكثيرة، وهو السبيل إلى القدرة على معالجة الأمراض الخطيرة.

وفي موضع آخر يؤكد على صحة أن الهواء المستور أصلح من المكشوف بالتجربة بقوله: «إن الهواء في زمن الهواء الحادث... إذا كان مستورًا أصلح من الهواء المكشوف حتى وجدنا في تجربتنا في ذلك الزمان أن مَن كان في قعر السجن يتخلّص ولا يفسد»(٤٤).

وفي موضع آخر بعد أن أورد إلياس بن إبراهيم كلامًا شافيًا في حفظ الصحة في زمن الوباء والطاعون لأبقراط، يؤكد ما ذكر أن جربه هو ونفع نفعًا عظيمًا، فيذكر: «وأنا أيضًا عملتُ في بلدنا بولي(٤٥) هكذا نفع نفعًا عظيمًا»(٤٦).

وفي موضع آخر يؤكد إلياس بن إبراهيم على أن النتائج التي يتوصل إليها تكون معتمدة بعد التجارب والممارسات، وهو دليل مهم على اعتماده على التجريب في تأليفه لهذه الرسالة المهمة، فيذكر: «فأنا أقول لما تصفحت كتب هؤلاء الأفاضل، واطلعت على ما أودعوه فيها من المعالجات، وزدت عليها أمورًا وجدتها بالتجارب والممارسات؛ فلا جرم أني وضعت هذه الرسالة لمصلحة العامة»(٤٧).

وبتحليل الفقرة السابقة يتضح

(١) أن إلياس بن إبراهيم اطلع على المؤلفات السابقة عليه في موضوع الطاعون والوباء.

---

(٤٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٢أ، ب).

(٤٤) **المجنة في الطاعون**، (ق ٦ب، ٧أ).

(٤٥) تقع في إيران.

(٤٦) المصدر السابق، (ق ١١ب).

(٤٧) النص، نسخة مكتبة تشستربيتي، رقم ٣٦٧٦، (ق ١٩٣ب، ١٩٤أ).

(٢) أنه في مؤلَّفه هذا زاد على هذه المؤلَّفات أمورًا وجدها، وتأكد من صحتها بالتجارب والممارسات.

(٣) أن تأليفه لهذه الرسالة جاء للكل؛ الغني والفقير وجميع الشعوب، فهي ذات نظرة شمولية.

وفي موضع آخر يؤكد إلياس بن إبراهيم قيامه بالتجريب في مدينتي، وهو ما يؤكد تفهمه الشديد لأثر البيئة والجو في صحة الإنسان، مما دعاه إلى تكرار التجربة مرات كثيرة في مدينتي، فيذكر: «ولقد جرّبتُ هذا في إسبانيا ونابولي مراتٍ كثيرة، فنفع نفعًا عظيمًا»(٤٨).

وأورد إلياس بن إبراهيم صفة معجون يسمى فاذزهر(٤٩) كان يقدَّم للسلاطين، وهو مقوٍّ جدًّا ونافع، وجرّبه هو ليتأكد من صحة ذلك، فيقول: «وقالت النصارى ليس معجونًا مجرّبًا مثل هذا، وعَلمنا هذا بالتجربة»(٥٠).

ويذكر إلياس بن إبراهيم: «وأقول أن هذا السفوف الذي سأذكره يوافق الطاعون والوباء، وقد جرّبت مرارًا كثيرة»(٥١). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه كان يتأكد من صحة النتائج بتكرار التجربة.

(ب) الموضوعية

تظهر الموضوعية عند إلياس بن إبراهيم الإسباني في أثناء عرضه لآرائه العلمية؛ فنجده يذكر أسماء العلماء وعناوين المؤلفات المهمة والشهيرة في علم الطب(٥٢)، دون النظر إلى ديانة هذا العالم أو ذاك، وبعد أن انتهى ذكر عبارة: «وغيرهم من اليهود والنصارى»(٥٣).

---

(٤٨) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٢ب، ١٣أ).

(٤٩) أوردها ابن سينا ضمن الأدوية التي تعارض السموم فلا تدعه يصل إلى القلب، في فصل خاص بذلك تحت عنوان: فصل في أدوية مشتركة للسموم. (القانون في الطب، ابن سينا، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٣: ٢٨٤).

(٥٠) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٣ب).

(٥١) **المجنة في الطاعون**، (ق ١٨ب).

(٥٢) راجع النص الوارد في أسماء المؤلفات البند الأول، فلم نُرد تكراره.

(٥٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٢أ).

وفي موضع آخر بعد أن يورد الأسباب التي جعلت ابن سينا يكتب بإيجاز عن علاج مرض الطاعون من وجهة نظر الأطباء النصارى، يذكر إلياس الإسباني الأسباب الأخرى التي هو مقتنع بها ويراها صحيحة، فيذكر: «وأما عند الفقير، فالجواب أن الشيخ أبا علي ابن سينا لكثرة علمه ولطافة عقله، رأى أن في علاج هذا المرض كان جميع الأطباء مثل الأعمى، ومن أول يوم خلق الدنيا لم يوجد الإنسان يعلم علاجه بالذات وبالحقيقة، ويكون ذلك العلاج مفيدًا لجميع الإنسان كما رُوي عن داود عليه السلام، جميع الأطباء في علاج الطاعون مثل الأعمى؛ ولذلك كتب أبو علي ابن سينا قليلًا؛ لأن ذلك المرض قريب من الروحاني المذكور في الباب الأول»(٥٤).

أي إن ابن سينا كتب باختصار في علاج الطاعون؛ لأنه عقاب من الله، ولا سبيل للشفاء منه إلا بالعودة إلى الله عز وجل، كما ذكر إلياس الإسباني في الباب الأول في أسباب الطاعون.

(ج) الأمانة العلمية

تتجلى الأمانة العلمية عند إلياس بن إبراهيم الإسباني في ثنايا بحثه، إلا أنها ظهرت جلية واضحة في ذكره لثَبْت المؤلفات التي اعتمد عليها في دراسته وتأليفه لهذه المخطوطة، فيذكر: «ومطالعة الكتب المعتمَد عليها للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين مثل كتاب فيديميا، وكتاب الأمراض الحارة، وكتاب تقديم المعرفة لأبقراط، وكتاب أصناف الحميات، وكتاب صناعات الكبير، وكتاب الأغذية لجالينوس، وكتاب الحميات لإسحاق اليهودي، والحاوي لزكريا الرازي، ورسائل مروان بن زهر، وقانون الشيخ، وكليات ابن رشد الفاضل القرطبي، وكتب غيرهم من اليهود والنصارى»(٥٥).

(٥٤) المصدر السابق، (ق ١٤ب، ١٥أ).

(٥٥) المصدر السابق، (ق ١ب، ٢أ).

(٦) أسباب الطاعون والوباء

لخص إلياس الإسباني أسباب الطاعون والوباء في مخطوطته مجنة الوباء والطاعون في أربعة أسباب هي:

(أ) **اقتران العلويات**: والمقصود بالعلويات الكواكب، واقتران هذه الكواكب يحدِث الوباء والطاعون، فيذكر: «وأسبابهما أربعة، أحدها قران العلويات مثل مقارنة الزحل بالمرّيخ؛ لأنه يقع في أوانها وباء عظيم»(٥٦).

(ب) **الأسباب الأرضية**: «كالجيف الكثيرة الواقعة حوالي البلد، والماء الراكد فيه؛ لأنهما تفسدان جوهر الهواء ويعفّنان، كما قال جالينوس إن في الهند وقع جرب عظيم، وقتل كثير من الناس بحيث يتعذّر دفن أبدانهم، فتعفّن الهواء، وحدث وباء شديد في جميع المعمورة. ثم قال جالينوس: إذا حدث هذا الوباء كان يعرض لشخص ثم يردّ إلى الصحة، فيحصل له نسيان عظيم بحيث ينسى هذا الشخص اسمه وابنه وامرأته وصديقه»(٥٧).

(ج) **الزلازل والشهب والأكوان**: وأرجع إلياس الإسباني سبب الطاعون من وجهة نظره إلى الأهوية المتعفنة المنبعثة في الإقليم الذي ينتشر فيه الطاعون والوباء، فيذكر: «سيما الداء العضال المسمّى بالوباء والطاعون الأليم، المنبعث سريعًا بالأهوية المتعفنة في هذا الإقليم»(٥٨).

ثم عاد وتحدث عن سبب الطاعون بالتفصيل، فيذكر: «إني ما ألّفتُ هذه الرسالة، وما كتبت هذه المقالة من غلبة الغرور والتكبر... وإنما دعاني إلى ذلك أمران؛ **أحدهما**: أني لما شاهدت ما وقع في زماننا هذا من الزلزلة العظيمة، خِفت من أن يردفها ويعقبها وباءٌ وطاعون، بناءً على ما قاله رئيس الفلاسفة أرسطو في مقالة الزلزلة؛ أن سبب الزلازل هو خروج الرياح المحتبسة تحت كرة الأرض الحادثة من الأبخرة الغليظة والأدخنة الخبيثة، فإنه إذا حدثت تلك الرياح تحت

(٥٦) المجنة في الطاعون، (ق ٧ب).
(٥٧) المجنة في الطاعون، نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٤ب).
(٥٨) المجنة في الطاعون، (ق ٢ب).

الأرض واحتبست اقتضت طبيعتها الحركة إلى العلو؛ بسبب ميلانها إلى كرة الهواء الكائنة فوق كرة الأرض وكرة الماء. فتضطربُ[٥٩] تلك الرياح للخروج فتحرك الأرض وتشقها فتخرج، فإذا خرجت فبسبب غلظتها تُغيّر الهواء وتفسده، وتخرِجه عن طبيعته، وتجعله غليظًا... ويقول الفقير هذا ليس ببعيد؛ لأنه قد اتفقت الحكماء والأطباء على أنه إذا ظهر في الهواء عمودٌ من النار وغلظ الهواء وكثر الضباب، يخاف أن يقع الطاعون؛ لأن هذه من علامات الطاعون... فثبت أن الزلزلة مما يحصل عقيبها الطاعون، فكتبت هذه الرسالة»[٦٠]...

وثانيهما: أني وجدت «أطباء هذه الديار لا يعالجون مرض الطاعون إلا قليلًا ولا يلتفتون إليه... إلا متكاسلًا، ويعدون الخلاص من هذا المرض أمرًا ممتنعًا محالًا. وإني أيضًا لا أشك في أن هذا المرض مُشْكِل وعلاجه صعب، لكن الخلاص منه ممكن؛ لأني عالجت هذ المرض مرارًا على ما تلقيته من الأطباء المهرة، فعوفي بإذن الله تعالى»[٦١].

اتفق إلياس بن إبراهيم اليهودي فيما أورده سابقًا مع ما ذكره كشاف اصطلاحات الفنون في تعريفه للوباء فيذكر: «الوَباء (Epidemic, Plague): بالفتح، وتخفيف الموحدة، ومَدّ الألف وقصرها، وَبَاءٌ عامٌّ، وهو الذي يقال له مركامركي: الموت العام. وقال الأطباء هو فسادٌ يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية كالماء الآسن والجيف، والمراد بفساد الهواء أنْ يصير حقيقته غير صالحة لما أوجدت له من إصلاح جوهر الروح، ودفع الأبخرة، وتغذي الأبدان، وهو تعفُّن يعرض له بشبهة تعفن الماء المجتمع المتغيّر، وهذا الهواء ليس بسيطًا، فلا يرد أنَّ البسيط لا يتعفَّن. وقيل الوباء هو الطاعون كذا في الأقسرائي وبحر الجواهر»[٦٢].

(د) أرسله الله لتأديب العُصاة: أرجع إلياس بن إبراهيم السبب الحقيقي لحدوث الوباء إلى تأديب العصاة، وأخذ يورد آراء الحكماء، ويورد عناوين مؤلفاتهم، فيذكر: «بل الله تعالى أرسل

(٥٩) هكذا في المخطوط، والأصوب: فتضطر.

(٦٠) **المجنة في الطاعون**، (ق ٤ب، ٥أ، ب).

(٦١) تم استكمال باقي النص من نسخة تشستربيتي، (ق ١٩٣أ، ب).

(٦٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي للعربية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د.جورج زيناتي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م، ج٢: ١٧٥٣.

هذا المرض لتأديب العُصاة؛ لأن يرجع إلى الله تعالى، وهو السبب الحقيقي، كما قال الفاضل أشيدروس في كتاب صورة العالَم، وعرّف الوباء: بأنه مرض مخصوص مجهول مرسل من الله تعالى إلى العالَم، وكذلك وجدنا في توراة موسى وزبور داود عليهما السلام: في كل زمان إذا أراد الله تعالى أن يعذب العصاة يرسل بالخصوص مرض الطاعون»[٦٣].

ونجده يذكر بعض الأدلة النقلية فيذكر: «كما قال يحي -عليه السلام- لا تخافوا من العلامات العلوية والآفات السماوية، إن كنتم تسلكون إلى طريق الهداية الإلهية»[٦٤].

(٧) حفظ الصحة في زمن الوباء

أورد إلياس بن إبراهيم كلامًا رائعًا في حفظ الصحة زمن الوباء والطاعون، مبتدئًا برأي الأطباء من النصارى واختتم برأي أبقراط، فيذكر: «في حفظ الصحة عن الوباء والطاعون وقت حدوثهما، قال الأطباء من النصارى: ينبغي أن يفرّ من البلاد التي وقع فيها الطاعون والوباء، واستدلوا من هرب الطيور والحيوانات الزكية من موضعها لأجل العفونة، وسكونها في موضع لا يكون العفونة فيه.

وقال: إن الحيوانات مع عدم عقله هربت من هذه العفونة، فبالأولى أن يهرب الإنسان؛ لأنه عاقل متصرف في الكليات والجزئيات. وإن تعذر الهرب فينبغي لهم أن يجلس في مكانٍ عالٍ بابه مفتوح إلى الشمال، ويرشّ في البيت ماء وخل، ويمسك في يده خرقة مبلولة بالخل والماء»(٦٥). وأكد على أن يكون الباب مفتوحًا جهة الشمال، وذلك لتلقي الرياح الشمالية الخالية من أي تلوث، وأن يرش في البيت الماء والخل كنوع من التطهير للمكان الذي يعيش فيه الإنسان، وكذلك القطعة المبللة بالماء والخل لتطهير أي هواء داخل إلى رئة الإنسان، وهي تقوم مقام الكمامة في الوقت الحالي.

(٦٣) **المجنة في الطاعون**، (ق ٧ب، ٨أ).
(٦٤) المصدر السابق، (ق ٨ب).
(٦٥) المصدر السابق، (ق ٩ب).

ويعرض إلياس بن إبراهيم الإجراءات الواجب اتباعها لحفظ الصحة في الطاعون والوباء سواء في المأكل أو المشرب أو الخروج من المنزل والعودة إليه إلى غير ذلك، وينهي حديثه بكلام لأبقراط، يذكر فيه:

«وينبغي أن يُحرق في البيت أو في البلد الحطب الواقعة للعفونة، مثل ورق الغار والأبهال والكيل والحيل وورق السرو والصنوبر، كما قال أبقراط: إنّ في زماننا حدث الطاعون الشديد في أكثر المعمورة، وأمرتُ أن يُحرق الحطب الدافع للعفونة حول المدينة، فخلص البلد بهذا العمل، ومع هذا لا يبقى أحد في غير هذا البلد، هذا تمام كلامه»[٦٦].

(٦٦) المصدر السابق، (ق ١١أ).

الخاتمة ومستخلصات البحث

دائمًا ما تختتم المؤلفات العلمية والأبحاث الأكاديمية بالنتائج التي توصل إليها الباحث في نقاط محددة، ومن هذا المنطلق آثرت هنا أن أضع خلاصة ما توصلت إليه في بحثي هذا، عسى أن يكون إجابة شافية وافية للأسئلة التي كانت تدور في ذهني حول هذا العالم ومؤلفاته. فلقد جال في خاطري بعض التساؤلات منها -على سبيل المثال لا الحصر- لماذا لم يلتفت أحد من قبلُ إلى إلياس بن إبراهيم اليهودي؟ هل السبب أنه عالم غير مسلم أو لا؟! ولكنه عاش في ظل وأكناف الحضارة العربية الإسلامية، وألَّف العديد من المؤلفات، وجميعنا يعلم أن الحضارة العربية الإسلامية ضمت بين جنباتها علماء مسلمين وغير مسلمين، منهم على سبيل المثال لا الحصر: حنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وحبيش الأعسم، ومنهم علماء ألّفوا باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى كالتركية والفارسية.

قد يكون الدين سببًا، ولكنه ليس السبب الرئيس، فمن وجهة نظري أننا بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة حول إسهامات العلماء العرب والمسلمين، والمقصود بهؤلاء العلماء هم جميع العلماء الذين عاشوا أو ألّفوا في كنف الحضارة العربية الإسلامية، أو ألفوا باللغة العربية، أو كانت لهم صلات قريبة أو بعيدة بالحضارة العربية الإسلامية، سواء تأثروا بها أو أثروا فيها، كما أننا بحاجة إلى دراسة مؤلفاتهم، فقد تحتوي على نظريات أو أفكار أو آراء شارحة لبعض المؤلفات، زمن ثم تفتح الباب أمام الباحثين العرب والمستشرقين، فتكشف اللثام عن أشياء كان يصعب فهمها أو يستحيل دون الاطلاع على هذه الآراء.

وتلخيصًا للنتائج التي توصلت إليها في بحثي هذا، وردًّا على الأسئلة المطروحة في ذهني قبل البحث، جاءت النتائج التالية:

(١) اسم عالمنا هذا بعد البحث هو: إلياس اليهودي ابن إبراهيم الإسباني، وهو من القوقاز، ولم تُشر المصادر عن سبب نسبته بالإسباني؛ هل لأن أحد جدوده من إسبانيا أو لأنه زار إسبانيا وعاش بها فترة، كما ذكر هو نفسه في أثناء حديثه عن علاجه لحالات الطاعون هناك؟

(٢) ورد في ثنايا المخطوط أن إلياس بن إبراهيم الإسباني له العديد من المؤلفات لم تكشف عنها فهارس أو فهرسة المكتبات بعد، وهي قضية مهمة للغاية، فيجب ألا نجزم أن هذا المخطوط مفقود أو موجود إلا بعد أن ننتهي من فهرسة جميع مكتبات المخطوطات. وإذا لم يكن بد من الإشارة إلى أحد المؤلفات، فلا بد أن نشير إلى أنها موجودة إذا كانت هناك نسخة أو نسخ خطية موجودة، وإذا لم نجد فعلينا أن ننوه على حسب ما هو موجود في فهارس المخطوطات المتاحة حتى الآن. ومن ثم، فما لدينا حتى الآن من مؤلفاته هو مخطوط «المجنة في الوباء والطاعون»، وتوجد منه نسختان؛ الأولى هي من ممتلكات مكتبة شخصية، وتم تحميلها من شبكة المعلومات الدولية(٦٧)، وقد قمت ببحثي ودراستي على هذه النسخة، والنسخة الأخرى هي نسخة مكتبة تشستربيتي برقم ٣٦٧٦، ورجعت إليها في المواضع التي نقصت الأوراق في النسخة الأولى، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه.

(٣) من الأمور الهامة -أي الجالبة للهُمِّ- والمهمة التي يجب الاعتناء بها، أن النسختين اللتين اعتمدتُ عليهما في الدراسة لهذه المخطوطة؛ إحداهما من مقتنيات مكتبتي الشخصية، والنسخة الثانية من مقتنيات مكتبة تشستربيتي، ومن ثم وجب علينا الاهتمام بالمكتبات الشخصية، وكذلك المكتبات التي في الغرب، وبذل قصارى الجهد في استعادة مثل هذه الكنوز التراثية المخطوطة المهمة إلى بلداننا العربية.

(٤) ظهرت ملامح المنهج واضحة جلية في هذا المخطوط، مما يؤكد اعتماد إلياس بن إبراهيم الإسباني عليه سواء في الموضوعية؛ حيث إنه كان يتحدث بموضوعية شديدة، ولا يخلط بين الآراء العلمية ومرجعية العالم الدينية. وكذلك في التجريب؛ حيث كان لا يقبل بصحة آراء سابقيه إلا بعد أن يقوم بالتجريب بنفسه، ويتأكد من ذلك مرارًا. والأمانة العلمية، وظهر ذلك من بداية المخطوطة؛ حيث عرض للمؤلفات التي اعتمد عليها في تكوين معارفه الطبية عن الوباء والطاعون، كما ظهرت الأمانة العلمية في عرضه للآراء العلمية ونسبة كل رأي إلى صاحبه من العلماء.

(٦٧) أهداني هذه المخطوطة أخي وصديقي الدكتور رضا الحسيني، فله مني كل الحب والتقدير، جعلها الله في ميزان حسناته إلى يوم الدين.

(٥) استطاع إلياس بن إبراهيم أن يحصر الأسباب الأربعة لحدوث الوباء والطاعون، وهي: (أ) اقتران العلويات، (ب) الأسباب الأرضية، (ج) الزلازل والشهب والأكوان، (د) أرسله الله لتأديب العُصاة. ويدل شرحه الموجز لهذه الأسباب على امتلاكه لمعارف علمية فلكية جمّة.

(٦) تحدث إلياس بن إبراهيم عن حفظ الصحة في زمن الوباء والطاعون، فأورد نصائح هي أقرب ما تكون متَّبَعة في الوقت الحاضر، وذلك دليل على تفهمه الشديد لطبيعة هذا الوباء والطاعون.

(٧) من الأمور المهمة في هذه المخطوطة أنها تضم بين طياتها شهادة حق من الأطباء النصارى على اهتمام الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا المتوفى ٤٢٨ هجرية؛ بالتجريب، وأنه كان لا يكتب علاج الأمراض إلا بعد تجريب العلاج وتتبع أحوال المريض. وهو خير رد على ما يزعمه بعض المستشرقين من أن المنهج التجريبي وليد العقول الأوروبية، ونتاج الحضارة الغربية المعاصر، وهو في حقيقته رأي به كثير من الإجحاف للعلماء العرب والمسلمين، ولإسهاماتهم العلمية.

المصادر والمراجع

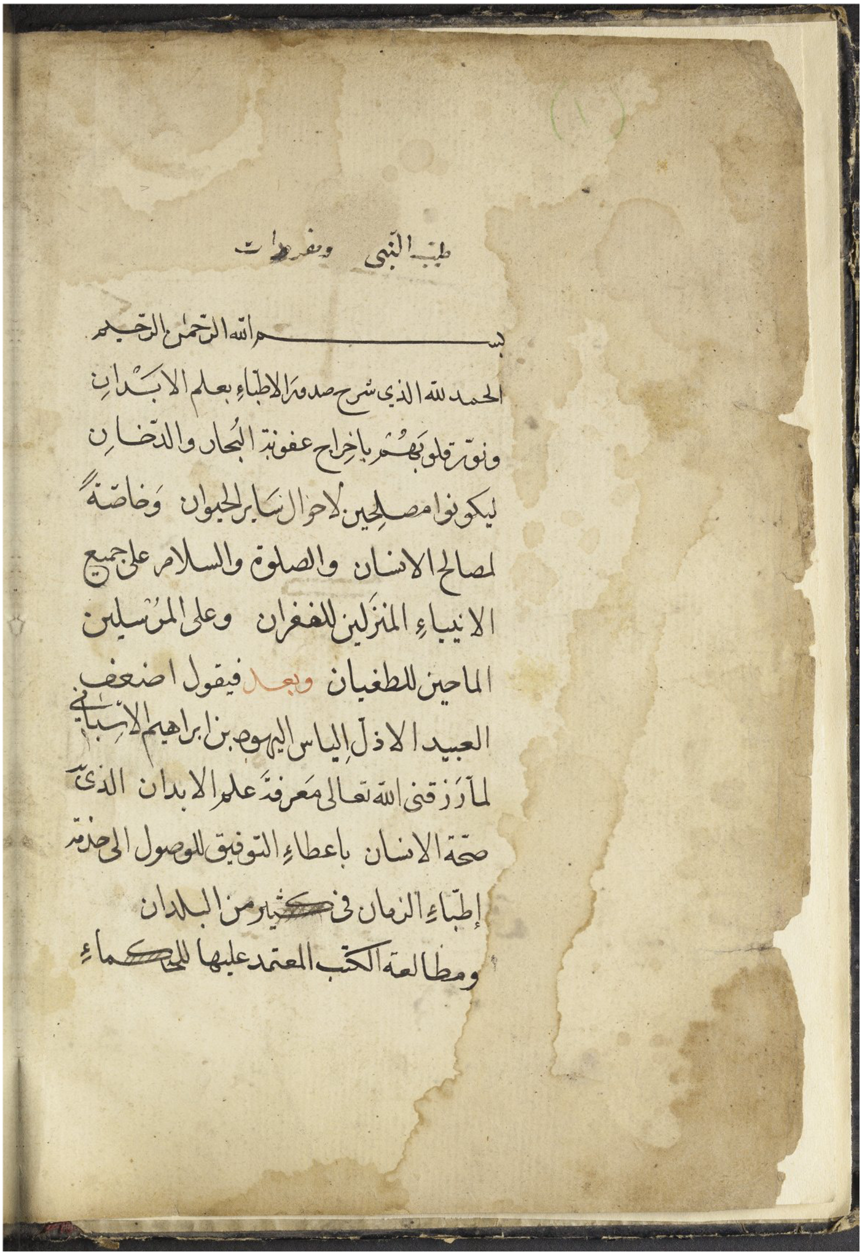
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ج٢.
- **الدولة العثمانية**: **عوامل النهوض وأسباب السقوط**، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، مصر، ١٤٢١ه/ ٢٠٠١م.
- **القانون في الطب**، ابن سينا، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، ج٣.
- **كتاب الماء**: **أول معجم طبي لغوي في التاريخ**، أبو محمد عبد الله بن محمد الصحاري الأزدي، حققه د. هادي حسن حمودي، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١، سلطنة عمان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م، ج١.
- **لسان العرب**، ابن منظور، طبعة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ج١٣.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت - لبنان.
- **المعجم الفلسفي**، د. عبد المنعم الحفني، الدار الشرقية للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٠م.
- **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م، ج٣.
- **معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي**، د. أحمد فؤاد باشا، مركز تحقيق التراث العربي، ط١، القاهرة، ١٤٣٤ه = ٢٠١٣م.
- **مفاتيح العلوم**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، تقديم د. جودت فخر الدين، دار المناهل، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- **الموسوعة الفلسفية العربية**، د. محمود فهمي زيدان وآخرون، رئيس التحرير د. معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٦م، المجلد الأول (الإصطلاحات والمفاهيم).

- **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي للعربية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د. جورج زيناتي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م، ج٢.
- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ج١.

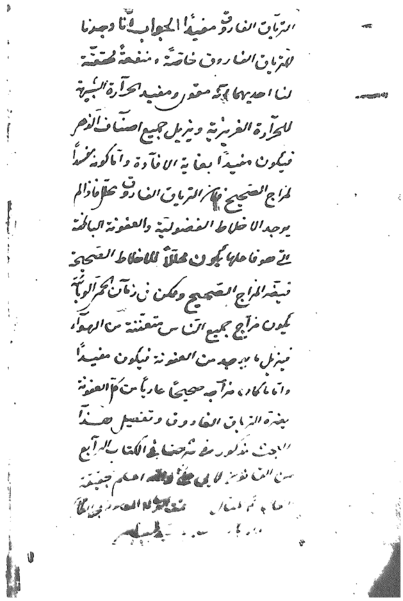
ملحق نماذج المخطوطات

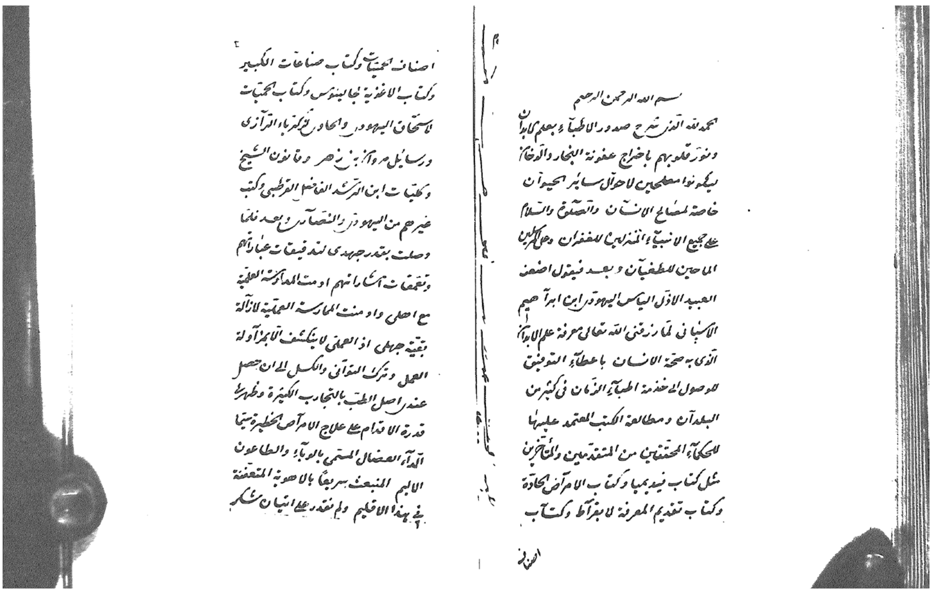
36

المزاج الصحيح ولكن في زمان الحمى الوبائية
يكون مزاج جميع الناس متعفنة من الهواء فيزيل
ما يوجد من العفونة فيكون مفيدًا واما ما كان
مزاجه صحيحًا عاريًا من كل العفونة يضره الترياق
الفاروق وتطويل هذا البحث مذكور
في شرحنا في كتاب الرابع
من القانون لابي علي
والله اعلم بحقيقة الحال
تم المقال
تمت هذه الرسالة الموسومة بجنة الطاعون والوباء
بعون الملك العظيم الالاء للفقير الحقير الشهير بالياس
ابن ابراهيم اليهودي ارشده الله العزيز الودود في قسطنطين
المحمية عن البلايا الى اليوم الموعود
في اوايل شعبان المعظم من شهور
سنة خمس عشر وتسعمائة
٩١٥
م

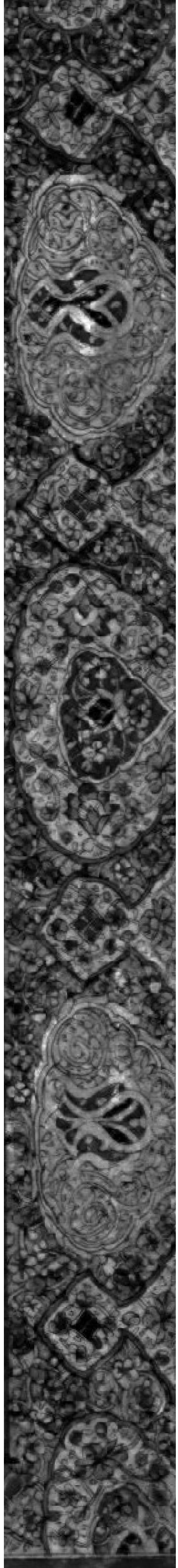

طب النبي ومفردات

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي شرح صدور الاطباء بعلم الابدان
ونور قلوبهم باخراج عفونة البخار والدخان
ليكونوا مصلحين لاحوال ساير الحيوان وخاصة
لمصالح الانسان والصلوة والسلام على جميع
الانبياء المنزلين للغفران وعلى المرسلين
الماحين للطغيان وبعد فيقول اضعف
العبيد الاذل الياس اليهودي بن ابراهيم الاسباني
لما رزقني الله تعالى معرفة علم الابدان الذي به
صحة الانسان باعطاء التوفيق للوصول الى حذقة
اطباء الزمان في كثير من البلدان
ومطالعة الكتب المعتمد عليها للحكماء


الترياق الفاروق مفيداً الجواب انا وجدنا
للترياق الفاروق خاصة ومنفعة محققة
لنا احديهما انه مقوى ومفيد للحرارة الغريزية
للحرارة الغريزية ويزيل جميع اصناف الزهر
فيكون مفيداً بغاية الافادة واما كونه مفسداً
لمزاج الصحيح فان الترياق الفاروق محلل فاذا لم
يوجد الاخلاط الفضولية والعفونة الباطنة
التي هو فاعلها يكون محللاً للاخلاط الصحيحة
فيفسد المزاج الصحيح ويمكن في زمان الحمى الوبائية
يكون مزاج جميع الناس متعفنة من الهواء
فيزيل ما يوجد من العفونة فيكون مفيداً
واما ما كان مزاجه صحيحاً عارياً من العفونة
يفسده الترياق الفاروق وتفصيل هذا
البحث مذكور في شرحنا في الكتاب الرابع
من القانون لابي علي والله اعلم بحقيقة


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي شرح صدور الاطباء بعلم الابدان
ونور قلوبهم باخراج عفونة البخار والدخان
ليكونوا مصلحين لاحوال ساير الحيوان
خاصة لمصالح الانسان والصلوة والسلام
على جميع الانبياء المنزلين للغفران وعلى الكرام
الماحين للطغيان وبعد فيقول اضعف
العبيد الاول الياس اليهودي ابن ابراهيم
الاسباني لما رزقني الله تعالى معرفة علم الابدان
الذي به صحة الانسان باعطاء التوفيق
للوصول الى خدمة اطباء الزمان في كثير من
البلدان ومطالعة الكتب المعتمد عليها
للحكماء المحققين من المتقدمين والمتأخرين
مثل كتاب فيدمبا وكتاب الامراض الحادة
وكتاب تقديم المعرفة لابقراط وكتاب

اصناف الحميات وكتاب صناعات الكبير
وكتاب الاغذية لجالينوس وكتاب الحميات
لاسحاق اليهودي والحاوي لزكريا الرازي
ورسائل مروان بن زهر وقانون الشيخ
وكليات ابن الرشد الفاضل القرطبي وكتب
غيرهم من اليهود والنصارى وبعد فلما
وصلت بقدر جهدي لتدقيقات عباراتهم
وتعمقات اشاراتهم اودمت المذاكرة العلمية
مع اهلها وادمت الممارسة العملية لازالة
بقية جهلي اذ العلم لا ينكشف الا بمزاولة
العمل وترك التواني والكسل الى ان حصل
عندي اصل الطب بالتجارب الكثيرة وظهر لي
قدرة الاقدام على علاج الامراض الخطيرة سيما
الداء العضال المسمى بالوباء والطاعون
الاليم المنبعث سريعاً بالاهوية المتعفنة
في هذا الاقليم ولم نقدر على اتيان شكر



دراسات كوديكولوجية

دراسة جديدة لنسخة مخطوط «عجائب المخلوقات» للقزويني المحفوظة بمكتبة ولاية بافاريا بميونخ تحت رقم حفظ «cod.arab.463»

أ. م. إيهاب أحمد إبراهيم(*)

أ. ريهام محمد يسري محمد جعفر(**)

ملخص البحث

إن قضية تأريخ المخطوطات، ومحاولة نسبتها إلى مركز فني بعينه، والتوصل إلى أساليب فنية جديدة من خلال دراسة المخطوطات، والوصول إلى عدد أكبر من أسماء النسّاخ والمصورين عبر المدارس الفنية المختلفة؛ هي من القضايا التي تشغل بال الكثير من الباحثين المهتمين بدراسة التصوير الإسلامي.

ومن نماذج ذلك نسخة مخطوط «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني المحفوظة بمكتبة ولاية بافاريا، تحت رقم حفظ cod.arab. 463، والتي جاءت خالية من اسم الناسخ

(*) أستاذ التصوير والآثار الإسلامية المساعد، كلية الآثار - جامعة القاهرة.

(**) باحث دكتوراه بكلية الآثار، جامعة القاهرة؛ ومفتش آثار بوزارة السياحة والآثار.

والمصور ومكان وتاريخ نسخها. ليس هذا فحسب بل هناك جدل كبير بين الباحثين حول قضية نسبة هذه النسخة إلى مركز فني بأدلة قاطعة. لذا، كان الهدف الرئيسي من دراستها هو محاولة تأريخها، ونسبتها إلى مركز فني بعينه من خلال دراسة أسلوبها الفني، ومقارنتها مع النُّسخ الأخرى التي تحمل السمات الفنية نفسها، مع التركيز على المؤرَّخة منها، والتي تحمل إشارات واضحة إلى مكان نسخها، حتى نستطيع حسم الجدل حول تاريخ ومكان نَسْخها، وخاصة أنه يتضح من أسلوبها الفني أنها تنتمي إلى أحد المراكز الفرعية التي تنتمي إلى المدرسة العثمانية، ومنه المساهمة في التعرف على المزيد من خصائص التصوير العثماني في تلك المراكز الفرعية.

A New Study of the Manuscript Copy of *'Ajā'ib al-Makhlūqāt* by al-Qazwīnī, Preserved in the Bavarian State Library (cod.arab. 463)

Dr. Ihab Ahmed Ibrahim(*)

Riham Mohamed Yousri Mohamed Gaafar(**)

Abstract

The issues of dating manuscripts, attributing them to specific artistic centers, deducing new artistic methods in use, and identifying scribes and illustrators from different artistic schools, are among the scholarly concerns of many researchers of Islamic pictorial art and illumination.

In this context, the manuscript copy of *'Ajā'ib al-Makhlūqāt* (The Wonders of Creation) by al-Qazwīnī, preserved in the Bavarian State Library in Munich (cod. arab. 463), does bare reference neither to its scribe, nor illustrator nor the place, nor the date of copying. Moreover, there is a great debate among researchers on the issue of attributing this copy to a certain art center with conclusive evidences. Thus, the main objective of studying this manuscript is to attempt to date and attribute it to a specific artistic center through a study of its artistic style, and comparing it with other copies that bear the same artistic features, particularly the ones with clear copying dates and places to resolve the abovementioned controversy. Moreover, given that its artistic style attributes it to one of the sub-centers of the Ottoman school, this will lead, by its turn, to the identification of more characteristics of pictorial Ottoman art and illumination in those sub-centers.

(*) Associate Professor of Islamic Archeology, Faculty of Archeology, Cairo University.

(**) PhD Candidate, Faculty of Archeology, Cairo University

مقدمة

نشرت مكتبة ولاية بافاريا بميونخ ضمن كتالوج معرضها Die Wunder der Schöpfung الذي انعقد في الفترة من (١٦ سبتمبر حتى ٥ ديسمبر ٢٠١٠)[١]؛ نسخةً مصورةً من مخطوط «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني، تحت رقم حفظ cod.arab.٤٦٣، مع الإشارة إلى احتمالية نسبة هذا المخطوط إلى فلسطين، في الفترة (١١٦٤ - ١١٨٤هـ/ ١٧٥٠ - ١٧٧٠م)[٢].

وبالاطلاع على هذه النسخة، تبين أنها تخلو من اسم الناسخ وتاريخ ومكان النَّسخ (لوحة ٥)[٣]. والواضح أن الاحتمالية التي وضعتها مكتبة بافاريا، بنسبة هذه النسخة إلى فلسطين غير مؤكَّدة؛ نظرًا لوجود علامة استفهام، إذ لم تُشِر أي دراسة تثبت هذه النسبة، بالإضافة إلى أن التاريخ التقديري الذي وضعته للمخطوط يتراوح في مدة عشرين عامًا، كما أن هناك عدة دراسات سابقة قد تناولت تلك النسخة بوصفها أحد الأعمال الفنية التي تنتمي إلى مصر خلال العصر العثماني، ومنها: فن التصوير في مصر الإسلامية، حسن الباشا، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٦م؛ فن التصوير عند العرب، ريتشارد إتنجهاوزن، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد ١٩٧٤م؛ الخصائص الفنية لمدرسة التصوير المحلية في مصر في العصر العثماني (٩٢٣ - ١٢٢٠هـ/ ١٥١٧ - ١٨٠٥م)، أبو الحمد محمود فرغلي، المجلة التاريخية المصرية، ع ٣٨، القاهرة ١٩٩٥م؛ مدرسة التصوير في مصر في العهد العثماني من خلال تصاوير المخطوطات

---

(١) قامت مكتبة ولاية بافاريا بوصفها من أهم المكتبات العالمية في العالم، بتكوين مجموعة من ١٦٧٠٠ مخطوطة شرقية لأكثر من ٤٥٠ عامًا، بما في ذلك ٤٠٠٠ مخطوطة من الثقافات الإسلامية. وفي عام ١٩١٠م، أقيم في ميونخ المعرض الشامل لروائع الفن الإسلامي، والذي ركّز على المناهج العلمية للفن الإسلامي. وبمناسبة مرور ١٠٠ عام على هذا المعرض، أقامت مكتبة ولاية بافاريا أول معرض كبير وشامل لمخطوطاتها الإسلامية في Fürstensaal، مع عرض ٢٦٢ معروضًا، حيث عرضت المكتبة مرة أخرى في Fürstensaal الأشياء التي تم عرضها في ١٩١٠م، بالإضافة إلى مقتنيات جديدة رائعة من المائة عام الماضية في كنزها الدفين. وتشمل المعروضات ثمانين مخطوطة قرآنية، وكتب الصلاة، ومخطوطات عربية وتركية مصورة، ومخطوطات فارسية مصغرة، وفن الخط، وأمثلة على تقنيات الكتب الخاصة. وقُدِّم الكتالوج باللغتين الألمانية والإنجليزية، وهو غني بالرسوم الإيضاحية.

(٢) Die Wunder der Schöpfung, Handschriften der Bayerischen Staatsbibliothek aus dem islamischen kulturkreis, "The Wonders of Creation: Manuscripts of the Bavarian State Library from the Islamic World", Rebhan, Helga and Bayerische Staatsbibliothek (München). Ausstellungskataloge. Nr. 83, Ausstellung 16. September bis 5. Dezember 2010

(٣) https://www.wdl.org/ar/item/8961/view/1/603/

(٩٢٣ - ١٢٢٠هـ/ ١٥١٧ - ١٨٠٥م)، أسماء حسين، رسالة دكتوراه، كلية الآثار جامعة القاهرة، ٢٠٠٨. ولكن دون الاعتماد في تلك النسبة على نسخ مؤكدة النسبة إلى مصر في العصر العثماني.

لذا، فإن هذه الورقة البحثية تهدف إلى إعادة دراسة هذه النسخة دراسة متأنية لمحاولة تأريخها، ونسبتها إلى مركز فني بعينه، وتحديد سماتها الفنية، وذلك من خلال مناقشة الآراء السابقة، والبحث عن أدلة أكثر دقة. وسوف أناقش ذلك من خلال عدة محاور رئيسية، تتمثل في: التعريف بالكتاب، وترجمة لمؤلِّفه، ثم التعريف بالنسخة، ودراستها وتحليلها فنيًّا من خلال: أولًا: مقارنتها بالنُّسخ الأخرى من كتاب «عجائب المخلوقات»، وخاصةً المعاصرة لها، حتى يتسنى تحديد السمات الفنية لهذه النسخة، ومحاولة الوصول إلى تاريخ محدد لنسخها. وثانيًا: مقارنتها بمخطوطات الكتب الأخرى التي تُنسب إلى الفترة الزمنية نفسها، وتحمل السمات الفنية نفسها، مع التركيز على المخطوطات التي تحمل إشارات واضحة إلى مكان وتاريخ النَّسخ، حتى يتسنى من خلالها نسبة نسخة مكتبة ولاية بافاريا -موضوع الدراسة- إلى مركز فني يتوافق مع الأسلوب الفني لهذه النسخة، بدلائل واضحة وأكثر دقة، ولا تعتمد فقط على آراء السابقين.

التعريف بالكتاب

يعد كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني واحدًا من أشهر الكتب الإسلامية التي حظيت بشعبية واسعة، واهتمام رعاة الفن والمصوِّرين والخطاطين والمذهِّبين على حدٍّ سواء؛ وذلك لكونه موسوعة كونية شاملة، روى فيها القزويني كلَّ ما قرأ أو رأى أو سمع حتى صارت مادة موسوعته خصبة واسعة، شملت الأرض والسماء. وقد سجّل هذه المعلومات بشكل موجز، وبطريقة علمية غير معقدة، وأضاف إليها أقاصيص العجائب التي دائمًا ما تستهوي خيال القارئ.

ويبدأ كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني بديباجة أو توطئة يليها شرح عنوان الكتاب في مقدمات أربع، يلي هذه المقدمات مقالتان، كلُّ مقالة قسمها إلى عدة فصول، وسمّى كل فصل منها «نظر»[٤]، تناول في المقالة الأولى العُلويات، وقسّمها إلى ثلاثة عشر نظرًا، ويقصد بالعلويات السماء وما تحويها من الشمس والكواكب والأفلاك والبروج، كما تحدث عن الجن والشياطين والملائكة وغير ذلك، أما المقالة الثانية فجاءت في السفليات التي عرّفها القزويني بقوله: «هي ما دون فلك القمر من العناصر والمولدات» من كرة الأثير وكرة الهواء، وسُحُبها وأمطارها وعجائب بحارها، وكرة الأرض وسعتها وقرارها، ورسوخ جبالها وامتداد أنهارها، وفوائد معادنها وخواص أشجارها ونباتاتها، وأنواع حيواناتها وحشراتها وصفات طيورها وزواحفها، ثم الإنسان سيدها ومالكها، وقد قسم السفليات إلى قسمين: القسم الأول قسمه إلى خمسة أنظار، والقسم الثاني قسمه إلى ثلاثة أنظار، ثم خاتمة في الحيوانات التي تخالف أشكالها وصورها أشكال الحيوانات المعهودة، وقسمها إلى ثلاثة أقسام[٥].

---

(٤) النظر: هو أحد المصطلحات المستخدمة في تقسيم الكتاب؛ حيث قسم القزويني كتابه إلى مقالتين، وكل مقالة مقسمة إلى عدة أنظار، وكل نظر مقسم إلى عدة فصول.

(٥) للمزيد انظر: **عجائب المخلوقات للقزويني**، عبد الحليم منتصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥: ٨-٣٩؛ **دراسة أثرية فنية لنسخة مخطوط عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني المحفوظة بمكتبة الأزهر تحت رقم عام (١٣٢٨٠٢) رقم خاص (٩٢٣٧) معارف عامة**، ريهام محمد يسري، رسالة ماجستير، كلية الآثار – جامعة القاهرة، ٢٠٢٠: ١٤-٢٣.

ونظرًا لأهمية تلك الموسوعة الكونية، فقد تمت ترجمتها من اللغة العربية إلى عدد من اللغات الأخرى كاللغة الفارسية والتركية والأردية، كما صدرت لها ترجمات إنجليزية وألمانية وفرنسية في مطلع القرن ١٣هـ/ ١٩م[٦]. وقد جاءت أغلب الترجمات مزوَّقة بالتصاوير بحسب أساليب مدارس التصوير الإسلامي المختلفة، وهو الأمر الذي أمدّنا بالعديد من أسماء النسّاخ والخطاطين والمصوِّرين والمذهِّبين ورعاة الفن عبر العصور المختلفة، فضلًا عما تُبرزه صور النُّسخ المختلفة من سمات وخصائص فنية، تمثل المدارس الفنية والأساليب التصويرية للتصوير الإسلامي على مدار القرون السبعة الماضية، التي تمثل رحلة فن التصوير الإسلامي في المخطوطات من القرن ٧هـ/ ١٣م حتى القرن ١٤هـ/ ٢٠م في كل أرجاء العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي ساعد على خلق وابتكار أساليب متنوعة للتعبير عن كل موضوع من موضوعات الكتاب، سواء على مستوى التصميم أو الألوان أو الخلفيات أو غيرها من عناصر الصورة.

(٦) «مخطوط عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني وأثره في التصوير الإسلامي»، حسن محمد نور، **مجلة كلية الآداب**، جامعة سوهاج، العدد ١٩، يناير ١٩٩٦: ٤-٥.

ترجمة مؤلف الكتاب

مؤلّف هذا الكتاب هو أبو عبد الله زكريا(٧) بن محمد بن محمود القاضي جمال الدين أبو يحيي الأنصاري القزويني(٨)، وينتهي نسبه(٩) إلى الصحابي الجليل أنس بن مالك النجاري خادم رسول الله ﷺ(١٠)، فجدُّه شيخ أبو القاسم بن هبة الله القزويني، ربما ينحدر من سلالة أنس بن مالك(١١). وقد صرّح هو نفسه بنسبته تلك في ديباجة كتابه حيث قال: «يقول العبد الأحقر زكريا بن محمد

(٧) وهو نفسه عماد الدين زكريا بن محمود الموكوني القزويني النجاري الكوفي، حيث زاد حاجي خليفة ومَن نقل عنه في نسبته، فنسبه إلى الكوفة أيضًا، حيث قال «الكوفي القزويني»، ويفسر ليويسكي Lewicki سبب إطلاق لقب الكوفي عليه، بأن القزويني أقام فترة في الكوفة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ومن هنا أطلق عليه لقب «الكوفي»، **كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون**، حاجي خليفة، ج٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١١٢٥؛ «عجائب المخلوقات للقزويني: دراسة في تراثنا العلمي»، عزيز العلي العزّي، **مجلة المورد** ٦ (٤)، بغداد ١٩٧٧م: ٢١؛ «**مخطوط عجائب المخلوقات**»، حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١؛ **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠م: ٥؛ Lewicki, "Al-Kazwini", in **The Encyclopedia of Islam**, T, Vol. IV, Leiden 1997, P. 865.

(٨) يعد القزويني علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية، فهو القاضي والعالم والرحّالة والجيولوجي والمؤرِّخ المشهور، الذي يعد من أوائل الباحثين المسلمين الذين كتبوا في الجغرافيا الطبيعية، وذلك في موسوعته التي تحمل عنوان: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، وهي لا ريب أجلّ ما أنتجه في هذا الميدان علماءُ العصور الوسطى قاطبةً، ولذلك استحق لقب «هيرودتس العرب». وضمّت هذه الموسوعة علوم الطبيعة والسياسة والأدب والتاريخ. ومن المعروف أيضًا أن القزويني اتصل بكثير من الرحّالة، وقرأ آثارهم، وأفاد من مشاهداتهم، فنقل عن أبي الربيع سليمان الملتاني الرحالة الذي نفذ إلى وسط إفريقيا، ونقل عن إبراهيم الطرطوشي الأندلسي وأحمد بن عمر العذري اللذين توفيا نحو سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م. ولهذا عده الدكتور زكي محمد حسن ضمن الرحالة المسلمين في العصور الوسطي، وقال: لقد كتب المستشرق الألماني جاكوب C. Jacob عدة أبحاث عما ذكره القزويني من البلاد الأوروبية، وعن العلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوروبا الوسطى والشمالية. والقزويني أيضًا عالم جيولوجي عربي اعترف الغرب في كتبهم بفضله على العالم في مجال علم الجيولوجيا، فهو أول مَن تكلم في طبقات الأرض، وأول مَن وضع نواة علم «الكوزموغرافيا» أو علم نشوء الكون، وهو أول مَن أعطى تعليلًا لخسوف القمر، بل وفرّق بين الخسوف الجزئي والخسوف الكلي، وتكلم عن دوران الشمس وكسوفها، كما تكلم عن زاوية الاختلاف «Parallax» التي على أساسها يختلف المنظر إذا تبدل موقف الرائي، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، زكي محمد حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣: ٩٣-٩٤؛ **عجائب المخلوقات**، عبد الحليم منتصر: ٦٩١؛ «**مخطوط عجائب المخلوقات**»، حسن محمد نور: ٣-٤، هامش رقم ٢.

(٩) يذكر الدكتور عبد الحليم منتصر والدكتور علي عبد الله الدفاع أن القزويني ينتهي نسبه إلى الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي، **عجائب المخلوقات للقزويني**، عبد الحليم منتصر: ٨٦٦؛ «علوم الكون في الإسلام: القزويني»، علي عبد الله الدفاع، **مجلة الدارة**، المجلد ٧، العدد ٣، فبراير ١٩٨٢م: ٢٢٧.

(١٠) «**مخطوط عجائب المخلوقات**»، حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١.

(١١) Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

بن محمود القزويني، توّلاه الله بفضله، وهو من أولاد بعض الفقهاء الذين كانوا موطّنين بمدينة قزوين، وينتهي نسبه إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ»(١٢).

وُلد في قزوين بين طهران ورشت سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م)(١٣)، وقيل سنة (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)(١٤)، فهو من أولاد بعض الفقهاء الذين كانوا مقيمين بمدينة قزوين، كما ذكر في ديباجته السالفة الذكر، ويبدو أنه تلقى تعليمه الفقهي هناك، وارتحل عن قزوين وهو صغير(١٥).

ترك القزويني مسقط رأسه في تاريخ يصعب تحديده، وارتحل إلى بغداد طلبًا للعلم(١٦)، وخلال رحلته طاف القزويني بجملة من بلدان العالم الإسلامي، فزار بلاد الشام والعراق وإيران(١٧)، لينهل على عادة علماء عصره من أئمة العلماء، وتتلمذ على أيديهم، فالتقى بالعديد من علماء وفلاسفة ومؤرخي عصره، وتعلم ونقل عنهم، كما تقلد العديد من الوظائف(١٨).

وقد تولى القزويني القضاء في زمن المستعصم بالله آخر خلفاء الدولة العباسية (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ - ١٢٥٨م)، فولي قضاء الحلة سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، ثم قضاء واسط سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، وبعد سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) اعتزل القزويني الحياة العامة، وتفرغ للأنشطة العلمية(١٩).

(١٢) **عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات،** زكريا بن محمد بن محمود القزويني، تحرير فرديناند وستينفيلد، غوتنغن ١٨٤٩م: ٣؛ **عجائب المخلوقات،** عزيز العلي العزّي: ٢١؛ **عجائب المخلوقات،** القزويني: ٧.

(١٣) **مخطوط عجائب المخلوقات،** حسن محمد نور: ٧، هامش رقم ١؛ **موجز دائرة المعارف الإسلامية،** أ. جي بريل، تحرير م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، الجزء ٢٧، ط١، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م: ٨٣٠٩؛ **الرحالة المسلمون،** زكي محمد حسن: 93؛ Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

(١٤) **عجائب المخلوقات،** عزيز العلي العزي: ٢١؛ **مخطوط عجائب المخلوقات،** حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١؛ **عجائب المخلوقات،** القزويني: ٥؛ **عجائب المخلوقات،** عبد الحليم منتصر: ٦٨٦.

(١٥) **موجز دائرة المعارف،** بريل: ٨٣٠٩؛ Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

(١٦) **موجز دائرة المعارف،** بريل: ٨٣٠٩؛ Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

(١٧) وربما يكون قد زار مدينة سنجار أيضًا، كما سافر القزويني إلى بلاد فارس، وأقام مدة طويلة في واسط والحلة في العراق، كما تقابل مع الجغرافي والعالم ابن سعيد الغرناطي الذي زار المشرق الإسلامي في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، **موجز دائرة المعارف،** بريل: ٨٣٠٩؛ **عجائب المخلوقات،** عبد الحليم منتصر: ٦٨٦؛ Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

(١٨) **مخطوط عجائب المخلوقات،** حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١.

(١٩) **عجائب المخلوقات،** عزيز العلي العزي: ٢١؛ **موجز دائرة المعارف،** بريل: ٨٣٠٩؛ Lewicki, "Al-kazwini", p. 865.

وتوفي محمد بن زكريا القزويني ببغداد سنة (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)[٢٠]، وقيل سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[٢١]، وحُمل إلى بغداد ودفن فيها[٢٢].

(٢٠) **عجائب المخلوقات**، عزيز العلي العزي: ٢١؛ **مخطوط عجائب المخلوقات**، حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١؛ **موجز دائرة المعارف**، بريل: ٨٣٠٩؛ الرحالة المسلمون، حسن: ٩٣.

(٢١) **مخطوط عجائب المخلوقات**، حسن محمد نور: ٣، هامش رقم ١.

(٢٢) **عجائب المخلوقات**، عزيز العلي العزي: ٢١.

التعريف بالنسخة

تقع نسخة مكتبة ولاية بافاريا في ٢٩٩ ورقة، تبلغ مقاساتها (٣٠ × ٢٠٫٥سم)، ومسطرتها ٢٣ سطرًا، كتبت باللغة العربية بمداد أسود بخط النسخ، بينما كُتبت العناوين بالمداد الأحمر[٢٣]، وهي مرقمة بطريقة التعقيبة[٢٤]، وتضم ١٣ شكلًا توضيحيًا و٤٤٣ صورة ملونة بالألوان المائية والمذهبة، والنسخة مكونة من مجلد واحد، محفوظ في جلدة بنية اللون من دفتين متشابهتين عليا وسفلى، الدفة السفلى ذات لسان (لوحة ٢)، يزخرِف كلَّ دفة في المنتصف سرةٌ مركزية مفصصة ذات ذيلين منفصلين، وبداخلها زخرفة نباتية منفذة بأسلوب الضغط، ويؤطِّر الجلدةَ من الثلاث جهات إطارٌ خطي مزدوج غائر (لوحة ١).

جاء عنوان الكتاب واسم مؤلِّفه في سبعة أسطر في صفحة البداية (العنوان) (لوحة ٣) بصيغة: «هذا كتاب عَجايب المخلوقات/ وغَرايب الموجُودَات تاليف/ سيّدنا ومَوْلانا العَالم العلامَة/ الحَبْر البَحرُ لفهَامَة محمّد ابن/ عبد الله القزويني نفعَنا/ به وبَركاته وَاعَاد علينا من/ صَالح اعمَاله آمين». يلي ذلك فاتحة المخطوط التي بدأت من منتصف الصفحة بالبسملة مباشرةً، بدون الزخارف التي عادةً ما تشغل النصف العلوي من الفاتحة، بل ظهر في هذا الجزء العلوي بقايا ثلاثة أسطر كتابية تم شطبها من قبل الناسخ (لوحة ٤)، كما خلت النسخة من أي إطار أو خطوط فاصلة بين

---

(٢٣) Die Wunder der SchÖpfung, p.70.

(٢٤) التعقيبة: هي أحد أنظمة الترقيم في التراث العربي المخطوط، حيث تسجَّل في نهاية كل صفحة من صفحات المخطوط أول كلمة في الصفحة التالية. والتعقيبة إحدى أهم الطرق التي استخدمها العرب لترتيب المؤلفات من جهة، ولمساعدة المختصين في صناعة المخطوط كالمرقّمين والمسفرين وغيرهم في ترتيب ملازم المخطوط، ومن أجل الحفاظ على ترتيب أوراق وكراسات وملازم المخطوطات الإسلامية. ويُجمع الباحثون على أن استعمال أسلوب التعقيبة في لغتنا جاء متأخرًا، ولم تظهر في المخطوط العربي إلا بعد القرن الرابع للهجرة. ولكن بعد البحث المتواصل والفحص الدقيق لأقدم المخطوطات التي تحمل التعقيبة المحفوظة في مختلف الخزانات الأوروبية، تأكد أن نظام التعقيبة في العربية أقدم مما يُظن؛ حيث تحتفظ الخزانة الوطنية الفرنسية بنسخة من كتاب «المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم» لأبي معشر جعفر البلخي في عام ٢٧٢ه/ ٨٨٥م، نسخة علي المطرز عام ٣٢٥ ه/ ١٩٣٦م، وقد استخدم التعقيبة لترتيب أوراقه، «نظام التعقيبة (فن فهرسة المخطوطات)»، **ندوة قضايا المخطوطات**، أحمد شوقي بنين، تنسيق وتحرير فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٩٩م: ٦٥-٦٦، حاشيه ١، ٦٥-٦٨؛ «نماذج منتقاة من فنون الكتاب في ضوء نسخة فريدة لمخطوط ليلى والمجنون المحفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة: دراسة ونشر لأول مرة»، سامح فكري البنا، **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب**، العدد ٢١، ٢٠٢٠م: ٦٣؛ «دارسة لفنون الكتاب في ضوء نسخة من الجزء الثاني من مخطوط روضة الصفا المحفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة»، تامر مختار، **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب**، المجلد ٢٢، العدد ١، ٢٠٢١م: ٤٤٨، حاشيه ١٢.

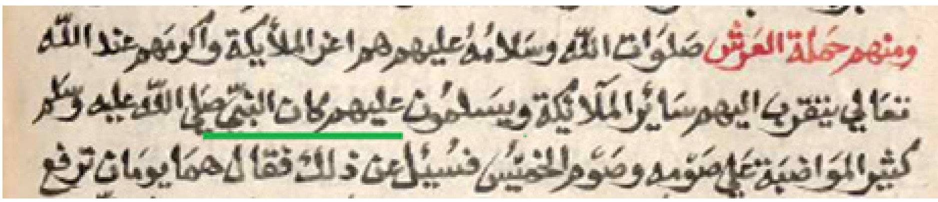
الصور والنص أو الصور بعضها ببعض، ثم يبدأ كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني بعد البسملة بديباجة أو توطئة بدأها بالثناء والحمد على خالق الكون وبارئه، والصلاة على النبي ﷺ، بصيغة: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله رب العالمين العظم لك والكبرياء جلالك يا قديم الذات مفيض الخيرات واحب الوجود....»، ثم تحدث عن أسباب وضعه لهذا الكتاب، وأسباب اختياره لموضوع الكتاب، ذاكرًا بعض القصص كأمثلة لموضوع كتابه، ووسيلته في جمع مواده ومصادره.

ثم انتقل القزويني إلى شرح عنوان الكتاب الذي يعبِّر عن محتوياته في مقدمات أربع، أشار فيها إلى موضوعات الكتاب، وفسر في هذه المقدمات الأربع عنوان كتابه ومضمونه؛ حيث أفرد القزويني المقدمة الأولى لشرح العجب، أما المقدمة الثانية فجاءت في تقسيم المخلوقات، وفسر القزويني في المقدمة الثالثة لكتابه ما يقصده بالغريب، وتحدث في المقدمة الرابعة عن تقسيم الموجودات. ويلي هذه المقدمات مقالتان، كل مقالة مقسمة إلى عدة فصول، سمّى كلًّا منها «نظر»، تناول في المقالة الأولى العلويات، وقسمها إلى ثلاثة عشر نظرًا، أما المقالة الثانية فجاءت في السفليات، وقسمها القزويني إلى قسمين: القسم الأول: مقسم إلى خمسة أنظار، أما القسم الثاني فيشمل ثلاثة أنظار، ثم تأتي الخاتمة وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام، وهذا التقسيم في المقدمة هو نفس تقسيم الكتاب بشكل عام، الذي سبق وتحدثنا عنه، إلا أن هذا التقسيم وترتيبه سوف يختلف داخل هذه النسخة كما سوف نوضح في الأسطر التالية.

تنتهي صفحة حرد المتن لهذه النسخة (لوحة ٥) بنص كتابي في أحد عشر سطرًا على هيئة مثلث قاعدته لأسفل، جاء فيها ذكر آخر أنواع الحيوانات غريبة الصورة، ثم أنهى الناسخ كلامه بحمد الله، على النحو التالي: «ومنها ما ذكر ابو الريحان الخوارزمي ان والي سنجار اهدي الي نوح ابن/ منصور الساماني ثعبانًا له جناحان من ريش اذا قرب منه/ الناس نشرهما واذا بعدوا الصقهما ثم قال وهذا/ ليس بغريب عندنا في الثعالب في عهد/ الملوك الكنانية كانت طياره والله/ يخلق ما يشاء ومنها دجاجة برأسين/ ودجاجة بأربعة ارجل وليكون/ هذا اخر الكلام من عجاب/ الحيوان والله اعلم/ والحمد لله رب/ العالمين».

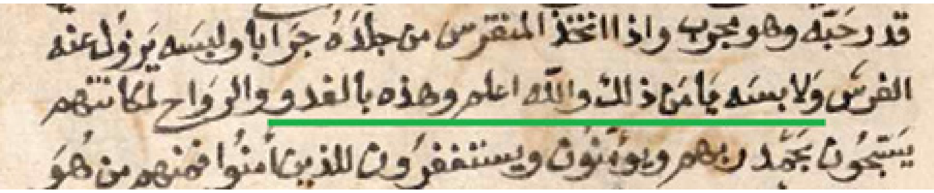
وكما هو مبيَّن من خاتمة المخطوط أنه لا توجد أي إشارة إلى مكان النَّسخ أو تاريخه أو أي اسم لناسخ أو مصوِّر. ولكن ما يلفت النظر في هذه الورقة وجود تاريخ كُتب بشكل مائل على جانب الصفحة من أسفل، نصه «سنة ١١٨٤ه»، فهل يمثل هذا التاريخ تاريخ نسخ المخطوط، أو أنه تاريخ لاحق لامتلاك أحد الأشخاص لهذه النسخة؟ هذا ما سأحاول البحث عنه وتوضيحه من خلال دراسة هذه النسخة.

ومما يلفت النظر في هذه النسخة أيضًا وجود بعض الأخطاء النسخية في ترتيب أقسام الكتاب، والتي بدأت في ورقة ٤٢ ظهر عند الحديث عن حملة العرش؛ أحد سكان السماوات، والتي تأتي ضمن النظر الثاني عشر من مقالة العُلويات، حيث كتب الناسخ: «ومنهم حملة العرش صلوات الله وسلامه عليهم، هم أعز الملائكة وأكرمهم عند الله تعالى، يتقرب إليهم سائر الملائكة ويسلمون عليهم»، وفجأة أوقف الناسخ الحديث عن حملة العرش، وأكمل النص في السطر نفسه، وبالتحديد في السطر العشرين ودون أي فواصل بقوله: «كان النبي صلى الله عليه وسلم كثير المواضبه على صومه وصوم الخميس»، يقصد بذلك الحديث عن يوم الإثنين، الذي يأتي الحديث عنه في الجزء الخاص بفضائل الأيام ضمن النظر الثالث عشر والأخير من مقالة العلويات، والخاص بالحديث عن الزمان.


ومنهم حملة العرش صلوات الله وسلامه عليهم هم اعز الملايكة واكرمهم عند الله
تعالى يتقرب اليهم ساير الملايكة ويسلمون عليهم كان النبي صلى الله عليه وسلم
كثير المواضبة على صومه وصوم الخميس فسيل عن ذلك فقال انهما يومان ترفع

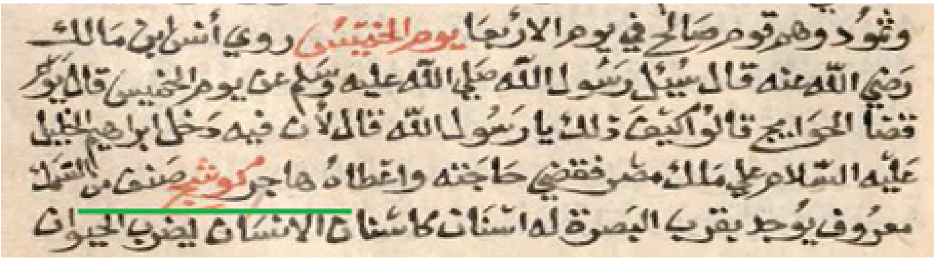
ويستمر النص بعد ذلك باستكمال باقي فضائل الأيام وحتى انتهاء نظر الزمان في الورقة ٥٧ ظهر، وانتهاء المقالة الأولى أيضًا. وبدأ الحديث عن المقالة الثانية الخاصة بالسفليات، ويستمر الناسخ في قسم السفليات بترتيبه الصحيح حتى ورقة رقم ٩٦ ظهر، وبالتحديد في السطر التاسع، إذ نجد الناسخ يقطع النص عند الحديث عن كلب الماء؛ أحد حيوانات الماء، ويستكمل الحديث عن الملائكة التي لم يكتمل نَصُّها في المقالة الأولى، وذلك كالتالي: «وإذا اتخذ المنقرس من جلده جرابًا ولبسه يزول عنه الفرس، ولابِسه يأمن من ذلك والله اعلم»، أي أثناء الحديث عن فوائد

كلب الماء، ثم يستكمل الناسخ النص في السطر نفسه دون أي فواصل: «وهذه بالغدو والرواح لِمكانتهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ويستغفرون للذين آمنوا، فمنهم من هو على صورة الأسد، ومنهم من هو على صورة الثور، ومنهم من على صورة البشر، ومنهم من هو على صورة العقاب»، أي إن الناسخ عاد في هذا الموضع ليستكمل نص حملة العرش.

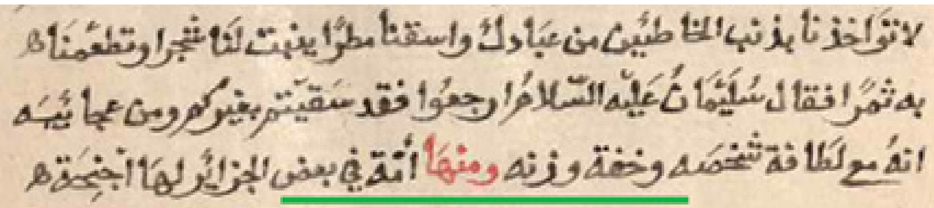

قد جربته وهو مجرب واذا اتخذ المنقرس من جلده جرابا ولبسه يزول عنه
النقرس ولابسه يأمن ذلك والله اعلم وهذه بالغدو والرواح لمكانتهم
يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ويستغفرون للذين آمنوا فمنهم من هو

وعندما انتهى الناسخ من ذكر حملة العرش عند السطر السابع عشر قام بتظليل باقي الورقة باللون الأخضر، وجاءت صورة حملة العرش في الصفحة التالية، ثم أغفل الناسخ كتابة عنوان ملك الروح، على الرغم من ذكر وصف الملاك في موضعه عقب صورة حملة العرش، ثم استكمل الناسخ النص بذكر باقي الملائكة حتى انتهائهم في ورقة ١٠٤ ظهر، حيث استمر الناسخ في كتابة ما فاته من المقالة الأولى، فعندما أنهى الحديث عن الملائكة التي تمثل النظر الثاني عشر من المقالة الأولى، بدأ النظر الثالث عشر في الزمان في الورقة نفسها، حيث كتب عنوان النظر بالمداد الأحمر، يليه شرح المقصود بالزمان ثم القول في الليالي والأيام حتى يوم الخميس، ثم نجد الناسخ يخطئ مرة أخرى ويكمل النص بعد يوم الخميس بذكر سمكة الكوسج، وهي آخر أنواع حيوانات الماء التي تأتي بعد كلب الماء، والتي توقف عندها النص سابقًا ليكتب الناسخ ما فاته من الجزء الخاص بمقالة العلويات، وشارك المصور في هذا الخطأ بأن رسم في هذا الجزء صورة كلب الماء في موضع بعيد تمامًا عن نصها[٢٥]، ثم نجد الناسخ يعود مرة أخرى في ورقة ١٠٦ ظهر ليكمل مقالة السفليات بترتيبها الصحيح.

(٢٥) هذا الخطأ يجعلني أرجّح أن الناسخ ربما يكون هو نفسه المصوِّر؛ لأن المصور إن كان شخصًا آخر لقام على أقل تقدير برسم صورة سمكة الكوسج في هذا الموضع، بناءً عن النص الذي أمامه، وليس برسم صورة كلب الماء التي جاء نصها في موضع بعيد تمامًا عن الصورة.


وثمود وهم قوم صالح في يوم الاربعا يوم الخميس روي انس ابن مالك
رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الخميس قال يوم
قضا الحوايج قالوا كيف ذلك يا رسول الله قال لان فيه دخل ابراهيم الخليل
عليه السلام على ملك مصر فقضي حاجته واعطاه هاجر كوشنج صنف من النمل
معروف يوجد بقرب البصرة له اسنان كاسنان الانسان يضرب الحيوان

كما يلفت النظر أن ورقة ١١٢ ظهر قد تُركت فارغة بالكامل لرسم صورة جبل بيستون، ولكن المصور لم يرسمها. ويستمر نص السفليات في ترتيبه حتى نصل إلى ورقة رقم ٢٩٣، وفيها نجد الناسخ أثناء حديثه عن النمل؛ آخر أنواع الهوام والحشرات، وبالتحديد عند عبارة: «فقال سليمان عليه السلام ارجعوا فقد سقيتم بغيركم، ومن عجائبه أنه مع لطافة شخصه وخفة وزنه»، نجده يستكمل النص في السطر نفسه، وهو السطر الأخير بقوله: «ومنها أمة في بعض الجزاير لها أجنحة». وهذه العبارة تصف النوع الأول من الأمم الغريبة التي تنتمي إلى القسم الأول من خاتمة الكتاب التي يُقسمها القزويني إلى ثلاثة أقسام، وذلك دون ذكر عنوان الخاتمة وشرحها، كما هو الحال في باقي النُّسخ الأخرى المكتملة أجزاؤها بالترتيب وبشكل صحيح، كما ظهر الخلل في هذه النسخة في باقي قسمي الخاتمة؛ حيث اشتمل كلٌّ منهما على عدد من الصور التي ينتمي بعضها إلى القسم الأول الخاص بأمم غريبة الأشكال.


لا تواخذنا بذنب الخاطيين من عبادك واسقنا مطرا ينبت لنا شجرا وتطعمنا
به ثمرا فقال سليمان عليه السلام ارجعوا فقد سقيتم بغيركم ومن عجايبه
انه مع لطافة شخصه وخفة وزنه ومنها امة في بعض الجزاير لها اجنحة

دراسة النسخة

ننتقل بعد ذلك للدراسة الفنية والتحليلية لنسخة مكتبة بافاريا، وذلك من خلال:

(أولًا)
مقارنة نسخة مكتبة بافاريا بنسخ كتاب «عجائب المخلوقات»

سأقوم بدايةً بمقارنة نسخة مكتبة بافاريا بالنُّسخ الأخرى من الكتاب نفسه؛ لأنه من السهل على العين اكتشاف مدى تشابه واختلاف السمات الفنية بين نُسخ العمل الواحد، نظرًا لتشابه الموضوعات والمحتوى. ومن ثم، فالنُّسخ التي تنتمي إلى نفس المركز الفني والفترة الزمنية لن تختلف فيها طريقة وأسلوب تناول العمل نفسه، وهو ما سيساعد إلى الوصول بشكل أدق للنُّسخ التي تتشابه في أسلوبها الفني مع نسخة الدراسة.

ومن خلال ما أمكن الاطلاع عليه من نسخ لهذا الكتاب، تبين أن هناك تشابهًا كبيرًا بين نسخة مكتبة بافاريا وثلاث نسخ أخرى من الكتاب نفسه، لدرجة تصل إلى حدِّ التطابق. وإحدى هذه النُّسخ محفوظة بالمكتبة الأهلية بفيينا، تحت رقم حفظ (N.F.152A)[٢٦]، والثانية محفوظة بمكتبة الأزهر بالقاهرة، تحت رقم عام (١٣٢٨٠٢)، ورقم خاص (٩٢٣٧)[٢٧]، والثالثة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم حفظ (arabe 2178)[٢٨]، وذلك من حيث كتابتها باللغة

(٢٦) Quatre signes d›un zodiaque caché, Les porteurs du Trône divin dans les cosmographies en arabe et persan d›époque médiévale, **Caiozzo, Anna**, annales Islamologiques 33 – 1999, p. 3.

(٢٧) تقع هذه النسخة في مجلدين يتألف المجلد الأول من ١٣٢ ورقة، بينما يتألف المجلد الثاني من ١٧٣ ورقة، ليكون مجموع الجزأين معًا ٣٠٥ ورقات، مسطرتها ٢٣ سطرًا، ويبلغ مقاسها (٢١ × ٣٠سم)، كُتبت هذه النسخة باللغة العربية، بخط النَّسْخ، بالمداد الأسود، في حين كُتبت العناوين بالمداد الأحمر، وهي مؤرَّخة بسنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م كما ورد في خاتمة المخطوطة، ويتخلل متنها ٤٤٦ صورة ملونة و١٠ أشكال **توضيحية**، تنوعت هذه الصور ما بين صور للأفلاك والأبراج والملائكة والنباتات والحيوانات البرية والبحرية والطيور والزواحف، فضلًا عن صور للغرائب والعجائب، **عجائب المخلوقات**، ريهام محمد يسري: ٣٠-٣٢.

(٢٨) يبلغ عدد أوراقها ٢٨٠ ورقة، مسطرتها ٢٣ سطرًا، مقاسها (٣٠ × ٢١سم)، كُتبت هذه النسخة باللغة العربية، بخط النسخ، بالمداد الأسود، بينما كُتبت العناوين بمداد أحمر، وهي مؤرَّخة بسنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٣م كما ورد في خاتمة المخطوطة، وهي تحتوي على حوالي ٤٤٩ تصويرة ملونة، و١٢ شكلًا توضيحيًّا. http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8406160j/f1.planchecontact (9/4/2021).

العربية، والأسلوب الفني الذي رُسمت به التصاوير في هذه النُّسخ، وكذلك الموضوعات المختارة للتوضيح بالصور بهذه النسخ، والخطة اللونية المستخدَمة، ونوع الخط وشكله، والأخطاء النسخية التي وقع فيها الناسخ في كل نسخة بطريقة تنُمُّ على أن هذه النسخ الأربع قد تم نسخها في نفس ورشة العمل (المرسم - ورشة النسخ)، وفيما يلي توضيح ذلك، من حيث:

أولاً: الأسلوب الفني

من خلال المقارنة بين نسخة مكتبة بافاريا وكلٍّ من نسخ فيينا والأزهر وباريس السالفي الذكر، تبيّن اشتراك هذه النُّسخ في تنفيذ التصاوير على ورقة المخطوط مباشرةً دون وجود خلفية -وإن كانت هذه سمة غلبت على كثير من نسخ كتاب «عجائب المخلوقات»- يحيط بالصور والنص في كلٍّ من نسخ فيينا والأزهر وباريس إطار خطي بسيط باللونين الأحمر والأزرق، بينما خلت نسخة بافاريا -موضوع الدراسة- من أي إطار سواء للنص أو للصورة.

كما يلاحظ التشابه الشديد بين رسوم الأشخاص في هذه النسخ، أولًا: من حيث الملامح؛ حيث تشابهت ملامح الوجوه -سواء كانوا رجالًا أو نساءً- في هذه النسخ الأربع (لوحات ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤)، فجاءت صافية ناعمة عبارة عن وجه بيضاوي أبيض اللون أو خمري، وعيون لوزية واسعة، تعلوها حواجب مقوّسة قليلًا، وأنف مستقيم، ووجنتان تشوبهما الحمرة، وشفاه رفيعة حمراء، تعتليها في بعض الأحيان ابتسامة خفيفة، وأحيانًا أخرى يُضفَى عليها الجمود. وبالنسبة لملامح الرجال فجاء أغلبها بشارب ولحية مشذبَيْن، أما النساء فأحيانًا ما تنسدل خصلات شعرهن الناعمة على أكتافهن أسفل طرحة طويلة، وأحيانًا يُغطّى شعرهن بالكامل بالطرحة، ولا يظهر منه شيء، خاصة في رسوم الخدم والوصيفات. وملامح الوجوه هذه تُشبه كثيرًا ملامح الوجوه في المخطوطات المسيحية التي تُنسب إلى فترة القرن ١٢هـ/ ١٨م، ومنها نسخة من مخطوط «ميامر العذراء وعجائبها» المحفوظ بالمتحف القبطي بالقاهرة، تحت رقم حفظ ٤٧٧ تاريخ،

والمؤرَّخ بسنة ١٤٠٣ للشهداء/ ١٦٨٧م[٢٩]، ونسخة من مخطوط «البشائر الأربع» المحفوظ بالمتحف القبطي، تحت رقم حفظ مقدسة ٩٩، والمؤرَّخ بسنة ١٤٠٥ للشهداء/ ١٦٨٩م[٣٠]، ونسخة من مخطوط «قصة شيماس الحكيم مع وردخان ببلاد الهند» المحفوظ بمكتبة الدولة ببرلين، والمؤرَّخة بالقرن ١٦/ ١٧م (لوحة ٣٧)[٣١]، ونسخة من مخطوط «تاريخ برلام ويواصف» المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم حفظ (Arabe 274)، مؤرَّخة بسنة ١٤٩٤ للشهداء/ ١٧٧٨م[٣٢] (لوحات ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٣٦). كما يتضح ثانيًا من رسوم الأشخاص مدى الاهتمام بإبراز الشخصية الرئيسية، ورسمها بحجم أكبر من باقي الشخصيات في الرسم، بالإضافة إلى أن السمة الغالبة على كل هذه النسخ هي الاهتمام بالتناول المباشر للموضوع، بأقل عدد من العناصر، ودون إغراق في التفاصيل.

أما الملابس فجاءت في أغلب الأحيان على هيئة ثوب نصفي الأكمام، يصل إلى القدمين، وأحيانًا إلى الركبتين، وأسفله يوجد سروال، وأسفل الثوب يظهر قميص ضيق الأكمام، مع

(٢٩) يبلغ عدد أوراق هذا المخطوط ٢٢١ ورقة، مسطرته ١٨ سطرًا، ومقاسه (٢٠ × ٣٠سم). وقد كتب هذا المخطوط برسم الشماس سميكة خادم المعلقة، ويوجد تاريخ الفراغ منه في الورقة رقم ٢٠٨، وهو بؤونة سنة ١٤٠٣ للشهداء الموافق ١٦٨٧م، مدرسة **التصوير في مصر في العهد العثماني من خلال تصاوير المخطوطات (٩٢٣-١٢٢٠ه/ ١٥١٧-١٨٠٥م)**، أسماء حسين، رسالة دكتوراه، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م: ٢٩١، لوحتا ٢٣٨، ٢٣٩؛ «حادثة أتريب في التصوير العثماني من خلال مخطوط محفوظ بالدار البطريركية بالقاهرة»، أسماء حسين، **دراسات في آثار الوطن العربي ١١**: ٧٥٦-٧٨٤، لوحة ٦؛ «أضواء على عقد إجارة جزء مصور من مخطوط ألف ليلة وليلة (مع نسبة صور المخطوط لمدرستها الفنية)»، أسماء حسين، **مجلة مركز المسكوكات الإسلامية**، مصر، المجلد ١، العدد١، ديسمبر ٢٠١٨، لوحة ٣٠.

(٣٠) يبلغ عدد أوراق هذا المخطوط ٣٤٦ ورقة، مسطرته ١٣ سطرًا، ومقاس كل صفحة (١٣× ٩سم)، كتب هذا المخطوط باللغة العربية، وهو يحتوي على الأربع بشائر (أناجيل)، وبأول كل بشارة بيان الفصول ومضمونها، ويحتوي هذا المخطوط على تاريخ الانتهاء منه في الخاتمة، وهو ١٦ طوبة سنة ١٤٠٥ للشهداء، أي ما يوافق سنة ١٦٨٩م، **مدرسة التصوير في مصر**، أسماء حسين: ١٧٠-١٧٢، لوحات ١٣٠- ١٤٤، ١٤٨-١٥٣.

(٣١) «أضواء على عقد إجارة»، أسماء حسين، لوحة ٢٤، ٢٥؛
Verzeichnis der orientalischen Handschriften in Deutschland: Arabische Handschriften, XVII, Schoeler, G, Franz Steiner Verlag Stuttgart, 1990, p. 362.

(٣٢) يبلغ عدد أوراق هذه النسخة ١٨٤ ورقة، مسطرتها ١٦ سطرًا، مقاسها (٢٤ × ١٥سم)، كتبت باللغة العربية بخط النسخ، وتضم ٣٦ صورة ملونة بتعليقاتها، قام بنسخها الكاهن جرجس في ٢١ أمشير ١٤٩٤ للشهداء، كما جاء في خاتمة المخطوط ورقة ١٨٣ ظهر و١٨٤ وجه، وهذا العمل تأليف راهب من جبل الجسمانية، لسرد سيرة القديس يواصف ابن الملك انتين ملك الهند، وما جرى له على يد القديس برلام، وذلك وفقًا لما جاء بالورقة رقم ٢ وجه.
https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8419219x/f388.planchecontact.r=arabe%2027# 24/4/2021

وجود حزام ضيق جدًّا حول الخصر. والمرأة دائمًا ما يغطي رأسها طرحة طويلة، تشبه نظيرتها في المخطوطات المسيحية، سواء ظهر من تحتها خصلات شعرها أو غُطي بالكامل ولم يظهر منه شيء. أما الرجل فتنوع غطاء رأسه باختلاف وظيفته، ما بين التاج أو الخوذة أو الطاقية أو العمامة متعددة الطيات، والتي كانت تتوَّج أحيانًا بالريش، وترصَّع بالأحجار الكريمة كما في صور الملائكة، والصفة الغالبة على الملابس في هذه النُّسخ هي خلوّها من الزخرفة؛ حيث اقتصر الأمر على مجرد إبراز ثنايا وطيات الثياب بشكل واضح، وذلك بعمل خطوط واضحة باستخدام اللون الأسود غالبًا، أو درجات داكنة من نفس ألوان الثياب أحيانًا بشكل طولي للدلالة على طيات الثياب (لوحات ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٣، ٢٥، ٢٧). وكان ذلك إحدى وسائل الفنان لإضفاء الواقعية على رسمه، وإن وجدت زخارف فتتمثل في زخارف الأفرع النباتية الملتفة الدقيقة (لوحتا ١٢، ١٤).

كما تميزت هذه النُّسخ بقلة ظهور العناصر المعمارية، وإن وجدت فقد تميزت بالبساطة في التنفيذ والتعبير عنها بشكل مسطح وبأبسط الأساليب، مع إضفاء طابع الزخرفة، دون مراعاة اتباع قواعد المنظور أو إظهار البعد الثالث لها (لوحات ١٥، ١٦، ١٧).

كذلك تطابقت رسوم الحيوان[٣٣] في هذه النسخ الأربع في أسلوب رسمها بطريقة تنُمُّ على أنها نُفِّذت على يد فنان واحد؛ حيث نُفِّذت بطريقة مسطحة خالية من التجسيد في أغلب الأحيان، سواء من حيث وضعية الحيوان أو الدقة في رسم تفاصيل البدن أو مراعاة نسبه التشريحية أو الألوان التي رُسم بها كل حيوان. لذا، جاءت بعض الحيوانات بعيدة إلى حدٍّ كبير عن شكلها في الواقع، لدرجة لم نعد نستطيع معها تحديد نوع الحيوان. وإن نجح الفنان -في بعض الأحيان- في رسم بعض الحيوانات بصورة قريبة إلى حدٍّ ما من الطبيعة، من حيث الشكل العام للحيوان، فإن الحظ لم يحالفه أحيانًا في اتباع خطة لونية تُضفي على تصويره جانبًا من الواقعية، إلا من

(٣٣) جاءت رسوم الحيوان في نسخ كتاب «عجائب المخلوقات» بشكل عام بصورة منفردة، نظرًا لطبيعة الكتاب التي أفردت لكل حيوان قسمًا كاملًا بذاته، تناول فيه القزويني صفات الحيوان العلمية والتشريحية أحيانًا، وفوائد أجزائه من الناحية الطبية، ومن أهم ما يميز موضوعات الحيوان في كتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني بشكل عام، هو التصنيف الذي وضعه القزويني نفسه في تقسيم الحيوان إلى دواب ونَعَم وسباع وطيور وهوام وحشرات، وتناوله كل قسم من هذه الأقسام على حدة، من خلال أنواع الحيوانات التي تندرج أسفل كل نوع، **عجائب المخلوقات**، ريهام محمد يسري: ٩٨٧.

بعض الأمثلة القليلة التي وُفِّق فيها الفنان بشكل كبير، ومنها -على سبيل المثال- صورة الجمل (لوحة ١٨) التي نجح الفنان في رسمه بصورة قريبة من شكله في الواقع، وذلك في الوقت الذي لم نفرِّق فيه بين رسم صورة ابن آوى والذئب في الشكل، فضلًا عن ابتعاد كلٍّ منها عن شكل الحيوان في الواقع (لوحتا ١٩، ٢٠).

كما يلاحظ أن السمة الغالبة على رسوم الطيور في هذه النُّسخ إضفاء طابع الجمود والافتقار إلى الحيوية، وذلك راجع إلى حدّة خطوط الرسم التي جاءت مستقيمة وغير انسيابية، والمحدَّدة باستخدام اللون الأسود. بالإضافة إلى قلة تنوع أوضاع رسم الطيور بشكل عام؛ حيث جاءت أغلبها في وضع الوقوف، فيما عدا بعض الأمثلة القليلة التي جاءت بها الطيور في وضع السير أو الطيران، ويكون بدن الطائر ورأسه في وضع جانبي، وأرجله وفخذاه في وضع ثلاثي. كما لم يكن هناك أي تعبير عن تفاصيل الريش سوى في الذيل والجناح، وذلك عن طريق رسم خطوط رفيعة مستقيمة في الذيل ومتعرجة في الجناح بالقلم الأسود تعبيرًا عن الريش؛ نظرًا لأن أقوى ريش لدى أي طائر يكون في الجناح والذيل، لذلك نجد أن الفنان قد حرص في كل مرة على إظهار تفاصيله. ويلاحظ أيضًا احتفاظ الفنان في أغلب رسوم الطيور بشكل محدَّد لرسم الطائر؛ بحيث لا يمكن تحديد أنواع هذه الطيور أو التفرقة بينها بناءً على شكلها في أغلب الأحوال؛ فقد تميزت في أغلب الأحيان بالبدن البيضاوي المسحوب، والجناح اللوزي الشكل المضموم إلى البدن، والرأس المستدير الذي تتوسطه عين الطائر المستديرة، والمنقار إما أن يكون معقوفًا في نهايته أو حادًّا ومدبب الطرف، وإما أن يكون مقوسًا قليلًا، والذي يأخذ غالبًا اللون الأحمر، كما أنه دائمًا ما يأخذ هو والأرجل اللون نفسه. أما الذيل فمستطيل مستعرَض، بحيث تكون نهايته مستطيلة القص أو منحنية أو متشعبة. أما الأرجل فهي دقيقة، وتنتهي بثلاثة مخالب أو أربعة، وأحيانًا يعلو المخالب المهماز. كما جاءت أغلب رسوم النباتات في هذه النُّسخ متشابهة بعضها مع بعض، بطريقة يصعب معها التفريق بين كلِّ نوع وآخر، وهو ما يؤكد على فكرة أن رسوم النبات في كتاب «عجائب المخلوقات» لم تكن رسومًا علمية بحتة، يحاول فيها المصور رسم أجزائها بعناية كالكتب العلمية الأخرى المتخصصة في

علم النبات[٣٤]، فقد رسمت كل هذه النباتات على رقعة أرضية على هيئة ربع دائرة نبتت عليها الحشائش، كما صورت كل رسوم النبات بطريقة منفردة، بحيث رُسم كل نوع على حدة على ورقة المخطوط مباشرة دون وجود خلفية، والتزم الفنان في تنفيذ رسوم النبات بالتصنيف الذي وضعه القزويني للنبات[٣٥] من تقسيمها إلى شجر ونجم[٣٦] في أغلب الأحوال.

أما عن الخطة اللونية المتَّبعة في كل هذه النسخ فتمثلت في استخدام الألوان الأساسية مثل الأزرق والأحمر والأصفر والأخضر والأسود والبني، واللون الذهبي في نسخة بافاريا، مع القليل من التدرج في استخدام هذه الألوان، في محاولة من الفنان في بعض الصور لإظهار قواعد الظل والنور، وإضفاء بعض التجسيد على الرسم.

---

(٣٤) ذلك أن المسلمين منذ أن بدأوا في الاهتمام بالمخطوطات العلمية، وخاصة التي تتضمن النباتات الطبية، لم يكن تصوير أصناف النباتات في تلك المخطوطات اتجاهًا فنيًّا فحسب بل كان اتجاهًا علميًّا، ليسهل معرفة النباتات وتميز بعضها عن بعض، فأخذوا يتتبعون أماكنها ويصورونها بدقة وبقرب من الطبيعة. ولشدة العناية بهذا الاتجاه ارتحل بعض الأطباء إلى مواطن النباتات يدرسونها على الطبيعة، ويضعون لها مواصفاتها وألوانها وأنواع كل نبات ليسهل تفرقة كل أنواع النباتات بعضها عن بعض، كما رسموا النبات في مراحل نموه المختلفة مثل مرحلة الإنبات والنمو والنضج. ويذكر ابن أبي اصيبعة في ذلك عن الصيدلي رشيد الدين الصوري (١١٧٧م – ١٢٤١م) أن كتابه «الأدوية المفردة» كان مصورًا بالألوان، وكان يصطحب معه مصورًا، ومعه الأصباغ على اختلافها وتنوعها، فكان يتجه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان، وغيره من المواضع التي اختص كلٌّ منها بشيء من النباتات، فيشاهد النبات ويحققه ويُريه للمصور، فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصوره بحسبها، ويجتهد في محاكاتها، ثم إنه سلك أيضًا في تصوير النبات مسلكًا مفيدًا، وذلك أنه كان يُري النبات للمصوِّر في إبان نباته وطراوته فيصوِّره، ثم يريه إياه في وقت كماله وظهور بذره فيصوِّره، ثم يُريه إياه في وقت يبسه فيصوِّره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به على الأرض، ومن ثم كانت صور النباتات قريبة من الطبيعة، ليس في هذا المخطوط فحسب بل في مختلف المخطوطات الطبية، **الصيدلة وأدواتها ومكاييلها والنباتات الطبية وصورها وفوائدها في العصر الإسلامي في ضوء «مخطوط مفردات النباتات الطبية» لأحمد بن محمد بن خليد الغافقي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م): دراسة فنية حضارية**، خلف عبد الرحيم، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢: ٣٧، ٣٨.

(٣٥) من الملاحظ أن القزويني لم يصنف النبات أو حتى الحيوان حسب التصنيف الطبيعي المعروف اليوم، والذي يعتمد على تشابه كل مجموعة معينة منها فى صفات خاصة مشتركة بين أنواعها، بل حسب حجومها أو بيئاتها، فمثلًا صنّف النبات إلى أشجار ونجوم، وجمع حيوانات الماء فى مجموعة واحدة وإن اختلف تصنيفها الطبيعي، وأدخل ضمن الطيور حشرة هي اليراعة ولبونًا هو الخفاش. ولا غرابة فى ذلك، فقد كانت تلك الطريقة في التصنيف هي السائدة والمأخوذ بها آنذاك. أما التصنيف العلمي الحديث فلا يجاوز عمره قرنين إلى ثلاثة قرون من الزمان، أما الأنواع ضمن المجموعة الواحدة فقد رتبها ترتيبًا أبجديًّا، وهو ترتيب معمول به اليوم تيسيرًا للدراسة فحسب لا لبيان صلة القربى بين أجناس الحيوان أو النبات وأنواعه، **عجائب المخلوقات**، عزيز العلي العزي: ٣١.

(٣٦) الشجر: يعرفه القزويني بأنه كل ما له ساق، ويبدأ هذا القسم بوصف عام، يليه وصف منفرد لكل نوع من الأشجار الواردة في كتابه، والتي رتبها على حروف المعجم، وتبدأ من شجرة الآس إلى شجرة الياسمين، ويعرف النجم بأنه كل نبت ليس له ساق صلب مرتفع، كما للزرع والبقول والرياحين والحشائش البرية، «علم النبات في كتاب **عجائب المخلوقات لزكريا القزويني**»، **أنس خالدوف، مجلة التراث العربي**، المجلد ١٠، العددان ٣٧–٣٨، جمادى الآخرة – يناير ١٩٩٠م: ١٧٥؛ **عجائب المخلوقات**، ريهام محمد يسري: ٦٢٥.

كما يلفت النظر في رسوم الأسماك في هذه النسخ تشابهها الكبير مع سمك البلطي النيلي المصري (لوحتا ٢١، ٢٢)، حيث البدن المستعرض البيضاوي المغطّى بالكامل بقشور عبارة عن أقواس متتالية، تستدقُّ كلما اتجهنا للذيل. وقد غلب على رسوم الأسماك اللون الأزرق، واقتصر الاختلاف في التعبير عن أغلب أنواع السمك في هذه النسخ على الحجم، أو في التزام الفنان في بعض الأحيان بالوصف الذي حدده القزويني لنوع السمكة.

كذلك اتخذت رسوم التنانين والحيات في هذه النسخ شكل الثعبان الضخم ذي البدن المنعقد على هيئة دائرة في أغلب الأحيان، ويكون إما مغطّى بقشور السمك أو نقاط صغيرة، ومنها على سبيل المثال تنين جزيرة التنين وسمكة التنين (لوحة ٣٠)، أو ينعقد الجسم على هيئة قلب كما في صورة حية عظيمة تبلع الجاموس والفيل(٣٧).

ثانيًا: الموضوعات المصورة

إذا ما تتبعنا مراحل تصوير كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني عبر مدارس التصوير المختلفة، فسوف نلاحظ أن هناك اختلافًا بين النسخ في طبيعة الموضوعات المختارة للتصوير، مثله في ذلك مثل أمهات المخطوطات الأخرى التي خضعت للتصوير في كل مدارس التصوير الإسلامي. يزيد من ذلك طبيعة هذا الكتاب الموسوعي ذي الشعبية الواسعة، والذي خضع للتصوير في كل مراحل التصوير الإسلامي، وباختلاف الفئات الاجتماعية التي اقتنته؛ حيث كان هناك مساحة كافية للفنان لاختيار الموضوعات التي يرغب في تصويرها نظرًا لكثرة موضوعاته، وطبيعتها الشيقة المليئة بالقصص العجيبة، والحكايات الغريبة التي دائمًا ما تستهوي القارئ، وتشبع خيال الفنان. إلا أن هذه النسخ الأربع لم يكن بينها أي اختلاف في الموضوعات المختارة لتصويرها في أي قسم من أقسام الكتاب، حتى مواضع الصور لم تتغير، على الرغم من أن بعضها جاءت في غير موضعها الصحيح، ومنها على سبيل المثال صور الملائكة التي جاءت في مقالة السفليات، على الرغم من أنها تتبع مقالة العلويات، أو صورة كلب الماء الذي جاء الحديث عنه في حيوانات الماء، وجاءت صورته ضمن الحديث عن أيام الأسبوع، وأمة النسناس التي جاء ذكرها ضمن قسم الحيوانات المركبة من حيوانَيْن مختلفين، وهو القسم الثاني من خاتمة

(٣٧) ورقة رقم ٧١ وجه في نسخة مكتبة بافاريا، ورقة رقم ٧١ ظهر بنسخة الأزهر، ورقة رقم ٦٦ ظهر بنسخة باريس.

الكتاب على الرغم من أنها تنتمي إلى القسم الأول من الخاتمة، والخاص بالأمم غريبة الصورة، وغير ذلك من الأمثلة.

ثالثًا: نوع وشكل الخط والأخطاء النسخية

يتضح من خلال مقارنة نسخة مكتبة بافاريا مع النسختين المعاصرتين لها، وهما نسختا الأزهر وباريس من جهة، ومقارنتها مع غيرها من النسخ الأخرى من كتاب «عجائب المخلوقات» التي كُتب متنها باللغة العربية، ومن أبرزها على سبيل المثال: نسخة «عجائب المخلوقات» المحفوظة بمكتبة الدولة بميونخ، تحت رقم حفظ MS. Arab.464، والتي تؤرخ بـ (٢٤ شوال ٦٧٨هـ/ ٢٧ فبراير ١٢٨٠م)[٣٨]، نظرًا لأنها تعد أقدم النسخ التي وصلتنا من الكتاب، والمحتمل أنها نُفذِّت (كُتبت

(٣٨) على الرغم من الصيغة الواضحة لمكان وتاريخ نسخ هذه النسخة فقد دار حولها خلاف بين الباحثين، حيث ذكر هولتر أنها تؤرَّخ بسنة (٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م)، بينما أرخها روسكا بسنة (٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م)، ونسبها إلى واسط، وقد رجح الرأي الأخير زكي حسن؛ وذلك لأنه يتناسب مع أسلوب تصوير المخطوطة، أرخها أيضًا إتنجهاوزن بالتاريخ الأخير نفسه، ونسبها إلى واسط، وذكر أنها نُسخت قبل وفاة المؤلف بثلاث سنوات، بينما ذكر حسن نور أنها مؤرَّخة بسنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، انظر: «مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي»، زكي محمد حسن، **مجلة سومر**، مج (١١)، العدد (١)، ١٩٥٥م: ٢٧؛ **فن التصوير عند العرب**، ريتشارد إتنجهاوزن، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد ١٩٧٤م: ١٣٨؛ **التصوير الإسلامي الديني والعربي**، ثروت عكاشة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧م: ٤٢٠، ٤٢١، لوحتا ٢٦٦، ٢٦٧؛ **مخطوط عجائب المخلوقات**، حسن محمد نور: ٦؛

Die persisch-islamische Miniaturmalerei, Schulz, ein Beitrage zur Kunstgeschichte Irans. Vol. 1. KW Hiersemann, 1914, pl. 12; Miniaturmalerei im islamischen Orient, Kühnel. Vol. 7. B. Cassirer, 1923, p. 53, pl. 22; The Islamic Book: A Contribution to its Art and History from the VII-XVIII Century, Arnold & Grohmann, Pegasus Press, 1929, p. 19, pl. 35; The Iconography of a Kāshān Luster Plate, Guest & Ettinghausen, Ars Orientalis 1961, pl.13. fig.45, pl. 16. Fig 53 - 55, pl.20. fig. 65; A survey of Persian art from prehistoric times to the present, Pope & Ackerman & Besterman, Arthur Upham Pope, editor; Phillis Ackerman, assistant editor. Vol. 6. Oxford University Press, 1981, pl. 853; Islamic Miniature Painting in Medical Manuscripts, Brandenburg, Editiones Roche, 1982, ps. 112 - 113, pl. 42; The Emergence of Illustration in Arabic Manuscripts: Classical Legacy and Islamic Transformation, Hoffman, Harvard University, PHD. 1982, P.49; The Topkapı Saray Museum: the albums and illustrated manuscripts, Rogers & Others, Little, Brown and Comp, 1986, p. 66; Persian Painting: From the Mongols to the Qajars, Hillenbrand, Studies in Honour of Basil W. Robinson. IB Tauris, 2000, P. 188; Islamic art in Germany, Gierlichs & Hagedorn, Verlag Philipp von Zabern, 2004, fig. 2, pl. 158 – 159;: Taswir: Islamische Bildwelten und Moderne, Bruckstein, Nicolai, 2009, p. 31, 32, 58, 59; pl. XVII; Arab painting: text and image in illustrated Arabic manuscripts, Contadini, Brill, 2010, p. 22, pl. c; A World of Beasts: A Thirteenth-Century Illustrated Arabic Book on Animals (the Kitb Na'‘t Al-hayawn) in the Ibn Bakh tshu‘ Tradition, Contadini, Brill, 2011, pl. 41b.

وصُورت) تحت إشراف مؤلف الكتاب، لأن تاريخها يسبق تاريخ وفاة المؤلف بثلاث سنوات، كما أنها نُفذّت في واسط بالعراق، والتي تولّى فيها مؤلف الكتاب منصب القضاء، ومن ثم فهي تمثل لنا النص الأصلي لهذا الكتاب حتى الآن؛ ونسخة «عجائب المخلوقات» المحفوظة بالمكتبة البريطانية، تحت رقم حفظ MS. Or.14140 (٣٩)، وهي ثاني أقدم النسخ التي وصلتنا من الكتاب بناءً على ما تم الاطلاع عليه من نسخ؛ ونسخة أخرى محفوظة بمكتبة بوردو فيليب بفرنسا Bibliothèque de Bordeaux، تحت رقم حفظ Ms.1130، وتؤرخ بسنة (٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م)(٤٠)، والتي تعد من أضخم النسخ التي تعج بالصور من هذا الكتاب؛ يتضح أن الأخطاء النسخية التي سبقت الإشارة إليها في نسخة بافاريا السالفة الذكر، لم تتكرر بالشكل نفسه في أيٍّ من النسخ الأخرى من الكتاب(٤١)، إلا في نسختي الأزهر وباريس، وذلك لدرجة التطابق، حيث جاءت

---

(٣٩) وهذه النسخة غير مؤرَّخة، حيث تخلو من صفحة حرد المتن، إلا أنها تحتوي على الصفحة الأخيرة التي تشتمل على نهاية النص، ولكن بعض الباحثين يؤرخونها بالفترة ما بين (٧٠٥ - ٧١٥هـ/ ١٣٠٥ - ١٣١٥م)، وينسبونها إلى مدينة الموصل أو العراق. يبلغ عدد أوراقها ٣٥٩ ورقة، ما تبقّى منها هو ١٣٥ ورقة -أي ما يعادل ثلث النسخة- مسطرتها ٢٥ سطرًا، وتبلغ مقاساتها (٣١,٢ × ١٩,٨سم)، كتبت باللغة العربية، وتحتوي هذه النسخة على عدد كبير من التصاوير، وصل عددها في شكلها النهائي إلى حوالي ٥٢٠ صورة، إلا أن عدد الصور المتبقية بها حوالي ٣٦٨ صورة. وقد أظهرت دراسة للصور المتبقية أن تصاوير هذه النسخة ترجع إلى حوالي القرن (٨هـ/ ١٤م)، أي فترة العصر الإيلخاني، كما يظهر من خلال تباين التأثيرات الفنية المختلفة على الصور أن ثلاثة من الفنانين على الأقل قد قاموا بعمل تصاوير هذه النسخة، فالأول يتصل بفترة القرن (٧هـ/ ١٣م) قبل الحكم المغولي لمدينة بغداد، والثاني يتصل بمدينة الموصل في شمال العراق، والأخير يمثل شخصية جنوب شرق الأناضول؛ حيث إن تأثير شرق آسيا قد ظهر في نهاية القرن (١٣م) تحت حكم الإيلخانيين، ومع ذلك فهو الأسلوب السائد في تنفيذ صور المخطوط، اعتمادًا على مقارنة صور المخطوط مع تصوير مخطوطَي: «منافع الحيوان» المحفوظ بمكتبة بيربونت مورجان المؤرَّخ بأواخر القرن ٧هـ/ ١٣م، ومخطوط «آثار البلاد» المحفوظ بمكتبة أدنبرة (١٣٠٧–١٣٠٨م)، انظر: **مخطوط عجائب المخلوقات**، حسن محمد نور: ٦؛

La miniatura islamica. **Fontana, Maria** Vol. 6. Edizioni Lavoro, 1998, p.64, pls. 12, 24; The legacy of Genghis Khan: courtly art and culture in Western Asia, 1256-1353. **Komaroff & Stefano**, Metropolitan Museum of Art, 2002, ps. 211 – 213, 248, pls. 257 – 260.

(٤٠) نسخة محفوظة بمكتبة بوردو فيليب بفرنسا Bibliothèque de Bordeaux، تحت رقم حفظ Ms. ١١٣٠، وتؤرخ بسنة (٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م)، وتتألف من ١٨١ ورقة، مقاس (٣٥٥ × ٢٦٠مم)، مسطرتها ٢٩ سطرًا، تقع في مجلد واحد بنيّ اللون ذي لسان، ويبلغ عدد التصاوير بها ٥٢٧ تصويرة، كتبت باللغة العربية بالمداد الأسود للنص والأحمر للعناوين، وذلك على يد محمد بن أمين الدين بن محمد، وكتبه إلى الأمير محمد ابن المرحوم الأمير داود بن عمر أمير الصعيد الأعلى، وذلك بناءً عما ورد في خاتمته، **تصاوير الكائنات السماوية في التصوير الإسلامي: دراسة آثارية فنية، محمد عبد العظيم موسى**، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة حلوان ٢٠١٦م: ٢٥؛ **عجائب المخلوقات**، ريتشارد إتنجهاوزن: ١٠٤٢.

(٤١) خلصتُ إلى هذه النتيجة بعد الاطلاع على عدد كبير من نسخ كتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني، ولكن لا يتسع المجال لذكرها جميعًا في هذه الورقة البحثية، لذا اكتفيت بذكر أبرز ثلاث نسخ منها لأهميتها الكبيرة في المقارنة للأسباب التي سبق أن ذكرتها، للتأكد من التشابه الواضح بين نسخ بافاريا والأزهر وباريس بالتحديد في تلك الأخطاء النسخية، دون غيرها من النسخ الأخرى من الكتاب نفسه.

بالتفاصيل نفسها التي سبق أن ذكرناها، ومنها على سبيل المثال الجزء الخاص بسكان السماوات (الملائكة)، الذي جاء الحديث عنه في مقالة السفليات، وكيفية تظليل باقي الورقة التي ذكر فيها نصّ ملائكة حملة العرش باللون الأخضر، ورسم حملة العرش في الصورة التالية، على الرغم من أن المساحة المتبقية في الورقة في كلٍّ من نسخة الأزهر وباريس تسمح برسم صورة حملة العرش، إلا أن الفنان في هاتين النسختين التزم بنفس تصرف الفنان في نسخة بافاريا الذي لم يكن لديه مساحة كافية لرسم الصورة، فظلل الربع الأخير من مساحة النص، ورسم الصورة في الصفحة التالية(٤٢). والحديث نفسه ينطبق على باقي الأخطاء النسخية بالتفاصيل نفسها، التي سبق أن ذكرناها ضمن الأخطاء النسخية بنسخة مكتبة بافاريا، وهو ما لم يَرِد في أي نسخ أخرى من نفس الكتاب بهذه الطريقة.

ومن ثم، فإن وجودَ هذه الأخطاء النسخية مجتمِعةً، مع الاتفاق الواضح في طريقة معالجتها؛ لا يحدُث إلا إذا كانت عملية نَسخ هذه النُّسخ قد تمت في ورشة النَّسخ نفسها، وبالاعتماد على النسخة نفسها التي نقل منها الناسخ، كما أن تشابه نوع وشكل الخط يؤكد على أنها جميعًا للناسخ نفسه. ويدعم هذا الرأي ويزيد من تأكيده أن كلًّا من نسخة فيينا والأزهر وباريس حملت اسم الناسخ نفسه بهذه الصيغة «الحاج علي بن عبد الله من عتقاء المرحوم عبد الحي أوضا باشه». ومن ثم، وبناءً على التشابه الواضح بين كلٍّ من نسخة فيينا والأزهر وباريس مع نسخة مكتبة بافاريا، سواء في لغة المخطوط ونوع وشكل الخط والأخطاء النسخية؛ فإننا نستطيع نسبة نسخة مكتبة بافاريا إلى هذا الناسخ، وهو «الحاج علي بن عبد الله».

رابعًا: تاريخ النَّسخ

لم تقتصر أهمية كلٍّ من نسخة فيينا والأزهر وباريس في المقارنة، على ذكر اسم الناسخ، وتطابقها في الأسلوب الفني والأخطاء النَّسخية مع نسخة مكتبة بافاريا؛ بل تأتي أهميتها أيضًا في كونها تحمل تواريخ محددة للنُّسخ، حيث حملت نسخة فيينا تاريخ (يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ١١٧٤هـ/ ٢٣ يناير ١٧٦١م)، وجاءت نسخة الأزهر مؤرَّخة بالعام نفسه (يوم الأربعاء ٨ شوال

(٤٢) مما يجعلني أرجّح أنه ربما اعتمدتْ كُلٌّ من نسخة الأزهر وباريس على نسخة بافاريا، ونقلا منها، وأنها تسبقهما في التاريخ.

١١٧٤هـ/ ١٢ مايو ١٧٦١م)، وفقًا لما جاء بصفحة حرد المتن بالورقة رقم ١٧٣ وجه (لوحة ٦)، في حين جاءت نسخة باريس مؤرَّخة بـ(يوم الجمعة ٢٣ جمادى الأولى سنة ١١٧٦هـ/ ٨ يناير ١٧٦٣م)، وفقًا لصفحة حرد المتن بالورقة رقم ٢٨٠ وجه (لوحة ٧)، كما وجدت نسخة رابعة تحمل اسم الناسخ نفسه، والصيغة السابقة نفسها، وهي نسخة من كتاب صحيح البخاري لحَبْر الإسلام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، والمحفوظة بمكتبة الأزهر الشريف تحت رقم حفظ ٤١٣٩ رقم عام (٤٩٠ حديث)، وتؤرَّخ بسنة (٢٦ ذي القعدة ١١٧٧هـ/ ١٦ مايو ١٧٦٤م)، وفقًا لما جاء في صفحة حرد المتن بالورقة رقم ٦٦٥ ظهر. ويتضح جليًّا في هذه النُّسخ الأربع التقارب الشديد في تواريخ النَّسخ.

أما عن نسخة مكتبة بافاريا -موضوع الدراسة- فقد ظهر بصفحة حرد المتن (لوحة ٥) تاريخ كُتب بشكل مائل على جانب نهاية متن المخطوط، وهو سنة ١١٨٤هـ. ويبدو أن هذا التاريخ ربما يمثل تاريخ نَسخ المخطوط، نظرًا لتقاربه مع تواريخ النُّسخ السابقة، أو أنه ربما يمثل تاريخ امتلاك أحد الأشخاص لهذا المخطوط. وهذا يعني أن هذه النسخة على أقل تقدير قد كُتبت قبل سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م، وإن كنت أرجّح الرأي الأول أنه ربما يمثل تاريخ النَّسخ، نظرًا لتقاربه مع النُّسخ التي حملت اسم الناسخ نفسه وتواريخ محددة للنَّسخ.

هذا التقارب الشديد بين تواريخ نَسخ النُّسخ الخمس يؤكد أن هذا الناسخ كان نشطًا خلال فترة النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وبالتحديد خلال العقد الثامن/ التاسع وفقًا للتواريخ الواردة في خواتيم المخطوطات السالفة الذكر، وربما كان هذا الناسخ صاحب ورشة (مدرسة) فنية لنَسْخ وتوضيح المخطوطات بالصور.

وبعد العرض السابق، والتأكد من أن نسخة بافاريا تنتمي إلى الناسخ «الحاج علي بن عبد الله»، واعتماد التاريخ الموجود بالنسخة كتاريخ للنَّسخ على أقل تقدير، والتأكد من أن كلًّا من نسخة مكتبة بافاريا وفيينا والأزهر وباريس تتطابق في أسلوبها الفني لدرجة تصل إلى حد التطابق، ومن ثم فهي تنتمي إلى نفس المركز الفني، بل ومن المحتمل أنها زُوِّقت ووُضِّحت بالصور على يد فنان واحد أو على الأقل نُفِّذت على يد فنانين عملوا وفق أسلوب فني واحد وفي نفس المرسم الفني؛ على الرغم من هذا كله فإن هذه النُّسخ الأربع افتقرت إلى الإشارة إلى مكان نَسخ أيٍّ منها، وهذه هي

الإشكالية الثالثة التي تقوم عليها فكرة هذه الورقة البحثية، وهي الوصول إلى مركز فني لنسخة مكتبة بافاريا.

فواقع الأمر أن الإشارة إلى نسخة مكتبة ولاية بافاريا من خلال المعرض الذي أقامته المكتبة في عام ٢٠١٠م، لم تكن الإشارة الأولى إلى هذه النسخة، فأُولى الإشارات إلى المركز الفني لهذه النسخة يأتي من بعض الدراسات التي تناولَتْها، بوصفها أحد الأعمال الفنية التي تنتمي إلى مصر خلال العصر العثماني، ولكن دون الإشارة إلى الأسباب التي دفعتهم إلى نسبتها إلى مصر في العصر العثماني(٤٣)، بالرغم أن هذه النسخة لم تحتوِ على أي إشارة إلى المركز الفني الذي أُنتجت فيه. فعلى سبيل المثال، نسبها ريتشارد إتنجهاوزن إلى مصر خلال العصر العثماني، مستدلًّا بدراسته لصورة كوكبة الثور التي وصفها بالـمُحزنة، واعتبرها رمزًا إلى النهاية المحزنة التي انتهى إليها التصوير العربي على حد قوله، أو بمعنى آخر أنها تمثل النزع الأخير للتصوير العربي من وجهة نظره(٤٤).

في حين اعتبر حسن الباشا صور هذه النسخة تمثل امتزاج الطابع التركي بالطابع العربي، مع ميل واضح نحو الفن الشعبي، وأنها تتشابه مع ممسوخات العصر الحديث مثل لوحة «غورنيكا» لبيكاسو، وغيره من المصورين الذين ابتكروا اتجاهات جديدة في الرسم مثل السريالية والتكعيبية وغيرها(٤٥).

بينما ذكر أبو الحمد فرغلي أن مجموعة الصور العلمية الملونة بهذه النسخة، تعد مثالًا نموذجيًّا لاستمرار الأساليب الفنية لمدرسة التصوير التي استمرت في مصر خلال العصر العثماني، وبخاصة في صور المخطوطات العلمية. ويلاحظ في صور هذه المخطوطة بوجه عام امتزاج الأساليب الفنية التركية بالأساليب العربية، وكذلك الميل الواضح نحو الفن الشعبي(٤٦).

---

(٤٣) أقصد بالأسباب هنا الاعتماد في مناقشة الأسلوب الفني لهذه النسخة على نسخ مؤكدة النسبة إلى مصر في هذه الفترة، وليس فقط محاولة مناقشتها من خلال الإشارة إلى أنها استمرار للأساليب الفنية للمدرسة العربية، أو أنها تمثل النزع الأخير للتصوير العربي أو اعتبار أسلوبها نوعًا من أنواع الفن الشعبي، كما سأفسّر ذلك في الأسطر التالية.

(٤٤) **فن التصوير**، ريتشارد إتنجهاوزن: ١٨١، ١٨٣.

(٤٥) **فن التصوير في مصر الإسلامية**، حسن الباشا، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٦م: ١٢٩؛ **فن التصوير**، ريتشارد إتنجهاوزن: ١٨٣.

(٤٦) «الخصائص الفنية لمدرسة التصوير المحلية في مصر في العصر العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م)»، أبو الحمد محمود فرغلي، **المجلة التاريخية المصرية**، ع ٣٨، القاهرة ١٩٩٥م: ١٨٧.

وتضيف أسماء حسين أن هذه النسخة تنسب إلى مصر خلال العصر العثماني، نظرًا لتشابهها مع نسخة المكتبة الأهلية بفيينا N.F.152A، والتي تؤرخ بسنة (١١٧٤هـ/ ١٧٦١م)[٤٧] على الرغم من عدم احتواء هذه النسخة على إشارة واضحة بنسبتها إلى مصر.

وأشارت مكتبة ولاية بافاريا نفسها إلى أن هذه النسخة تنسب إلى فلسطين، مع وضع علامة استفهام لعدم وجود دراسة مؤكدة على ذلك. ومن خلال العرض السابق نجد أن أغلب الدراسات السالفة الذكر نسبت نسخة بافاريا إلى مصر خلال العصر العثماني، ونسبتها مكتبة بافاريا إلى فلسطين خلال العصر العثماني، ولكن دون توضيح أسباب مؤكدة لهذه النسبة نستطيع معها ترجيح رأي على حساب آخر.

إلا أنه وأثناء مقارنة نسخة الدراسة بنسخة باريس وجدتُ قبل نهاية خاتمة نسخة باريس نصًّا مهمًّا مضمونه كالتالي: «ونظر فيها وقرأها وساق عجايبها وأصولها العبد الراجي عفو ربه الكريم الحنان المنان الحاج عثمان جاويش جمليان أبو جرج غفر الله له وللمسلمين أجمعين ولصاحبه يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» (لوحة ٧).

وهذا النص السابق يحتوي على اسم أحد الأشخاص الذي قرأ هذه النسخة وشاهد عجائبها، وهو «الحاج عثمان جاويش جمليان أبو جرج»، كما هو واضح من النص السالف الذكر، وربما يمثل هذا الشخص الراعي الذي أمر بعمل هذه النسخة، وهو ما يتضح من خلال وجود اسمه قبل اسم الناسخ أو على الأقل ربما يكون هذا الشخص قد تملّك هذه النسخة، وهذا النص يمثل اسمه وهو «الحاج عثمان»، ورُتْبته وهي «جاويش»، ووظيفته وهي «جمليان أبو جرج».

وبالرجوع إلى المصادر التاريخية للتعرف على هذا الشخص، نجد أن اسمه قد ورد في تاريخ الجبرتي في حادثة «ذكر موت مصطفى جاويش»، حيث أورد الجبرتي هذه الحادثة في قوله: «ومات قرا مصطفى جاويش، وكان أوده باشه، فلبسه جركس الضُلمة في أيام رجب كتخدا مستحفظان سابقًا، ثم عمل كوجك جاويش، ونزل يجمع عوايد الباب من الوجه القبلي، فوقع في مصر ما وقع من حروب جركس، وقتل رجب كتخدا والأقواسي، فالتجأ إلى سليمان بك المذكور وعد صحبته

---

(٤٧) **مدرسة التصوير في مصر**، أسماء حسين: ١٦٠.

الشرق، فلما وقعت الحروب وقتل سليمان بك اجتمع إليه الطوائف القرابة، ونزل بهم المراكب، وساروا إلى قبلي فتبعه عثمان جاويش ليلًا ونهارًا حتى لحقه وهو راسي تحت أبي جرج، وكانت الأجناد الذين بصحبته طلعوا جهة الشرق قرابة أي مشاة من عدم القومانية أي الركايب، فقبضوا على مصطفى جاويش المذكور ومعه ثلاثة من الغز، ونهب عثمان جاويش ما وجده في المراكب، وحضر إلى مصر فقطعوا رأس مصطفى جاويش المذكور ومن معه»[٤٨].

أما لفظة «جمليان» أو «كمليان» فهي تشير إلى وظيفة عُرفت في الولايات في العصر العثماني، فالجمليان هو جَمْعٌ فارسي للكلمة التركية «كوكللو» أو «كونللو»، أي المتطوع، من كلمة «كوكل» أي القلب، وصيغة الجمع الفارسية هي «كوكليان»، وحرِّفت في اللغة العربية بقلب النون الخيشومية ميمًا[٤٩].

واستُعملت هذه اللفظة للإشارة إلى طائفة تكوّنت من الفرسان الذين يستخدمون الخيل في تنقلاتهم، وكان من أهم شروط انتمائهم للأوجاوق معرفتهم الجيدة برمي السهام وركوب الخيل، وكانت مهمتهم مساعَدة الكشاف بالأقاليم لتحصيل المال الميري للدولة، ونعتتهم الوثائق باسم «جمليان»، وأحيانًا أخرى «كمليان»، وكان أفرادها يتقاضون علوفات تراوحت ما بين ١١ عثمانيًّا[٥٠] إلى ٣٨ عثمانيًّا، ولم يكتفِ أفراد هذا الأوجاق بعلوفتهم، بل دخلوا ميدان الالتزام في بداية القرن السابع عشر، كما التزم الأمير سليمان بن عبد الله لأراضي سفط قليشان وإبريم بالبحيرة لسنة (١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)، كما التزم الأمير عبد الكريم الدمرداش لأراضي ناحية نفيا بالغربية[٥١].

---

(٤٨) **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، عبد الرحمن حسن الجبرتي، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تقديم د. عبد العظيم رمضان، ج١، مطبعة دار الكتب المصرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م: ٢٤١.

(٤٩) **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، أحمد السعيد سليمان، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م: ٦٩.

(٥٠) عثماني: اسم لعملة فضية أصدرها السلطان عثمان الثاني سنة (١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م)، وكتب على أحد وجهيها «سلطان البرين»، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وتاريخ الضرب ومكانه، وعرفت سكة «عثماني» بـ«أونلق عثماني» أو العشرية العثمانية، وكان وزنها في بداية ضربها درهمًا واحدًا، وبعضها ١٥ قيراطًا، أي بزيادة قيراط ونصف عما كانت عليه، وفي عهد السلطان إبراهيم، انخفض وزن الـ«أونلق عثماني» بمقدار النصف، أي بمقدار ٥ آقچه أي ٨ قراريط من وزن المعدن، ونقش على أحد وجهيها طغراء السلطان، وعلى الوجه الآخر مكان وتاريخ الضرب، **النقود المتداولة في بلاد الشام في العصر العثماني**، أحمد محمد يوسف، ط١، جدة، ٢٠١٦م، ١٤٣٨هـ: ٨١-٨٣.

(٥١) «العثمانيون ونظاما الالتزام والأمانات في مصر في القرن السادس عشر: دراسة في البدايات والتطبيق»، أيمن أحمد محمد، **حوليات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية**، العدد ٣٨ (٢٠٠٤): ٣٣.

أما «أبو جرج» فهي تمثل إحدى القرى التابعة لمركز بني مزار بمحافظة المنيا، وهي إحدى القرى القديمة التي ذكرها أميلينو في جغرافيته، فقال إن اسمها القبطي «Pegergi»، ومنه جاء اسمها العربي «بو جرجا»، ووردت في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد «بو جرجا» من أعمال البهنساوية، وفي التحفة «أبو جرجا» بالأعمال البهنساوية، وفي تاريخ سنة ١٢٣٠هـ برسمها الحالي(٥٢).

ومن خلال ما سبق يتضح أن نسخة باريس قد عُملت لأحد أفراد الحامية العسكرية في مصر في العصر العثماني، وهو عثمان جاويش، الذي تولّى وظيفة جمليان قرية أبو جرج، وهو الأمر الذي يؤكد أن هذه النسخة نُسخت وزُوِّقت بمصر خلال العصر العثماني. ونظرًا للتشابه الواضح بين نسخة باريس ونسخة بافاريا في طريقة النَّسخ من حيث نوع الخط والأخطاء التي وقع فيها الناسخ، علاوةً على تشابه النسختين من حيث طريقة التعبير عن موضوعات الكتاب بتصميمات فنية تكاد تصل إلى حد التطابق، وتشابه الخطة اللونية المستخدمة في تلوين كلتا النسختين؛ فإن هذا يرجِّح أن نسخة بافاريا قد نُسخت في مصر، بل وفي المرسم الفني نفسه، ومن ثم تُنسب كلٌّ من نسختي فيينا والأزهر إلى مصر، نظرًا للتشابه الكبير بينهما وبين نسختي باريس وبافاريا.

(ثانيًا)
مقارنة نسخة بافاريا بمخطوطات الكتب الأخرى

ويدعم الرأي السابق مقارنة نسخة مكتبة بافاريا بالمخطوطات الأخرى التي تتشابه معها في الأسلوب الفني، وتتقارب معها في الفترة الزمنية، وتحمل إشارات واضحة إلى مكان النَّسخ، ومنها نسخة من مخطوط «تاريخ برلام ويواصف»، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم حفظ (arabe 274)، ومؤرَّخة بسنة ١٤٩٤هـ/ ١٧٧٨م، حيث تشابهت هذه النسخة إلى حدٍّ كبير مع كلٍّ من نسخة مكتبة بافاريا والأزهر وباريس من حيث: الأسلوب الفني، والخطة اللونية

(٥٢) **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥**، محمد رمزي، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م: ٢٠٩.

المستخدَمة، والأزياء، وملامح الوجوه، ورسوم الحيوان والنبات وغيرها، وقد سبق ذكر سمات كل نسخة بالتفصيل.

فالبنسبة لملامح الوجوه لا نستطيع أن نفرّقها عن نُسخ كتاب «عجائب المخلوقات» المعاصرة، سواء للسيدات أو الرجال (لوحات ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٣٦)، والتي جاءت هادئة ناعمة، يُضفى عليها أحيانًا طابع الجمود، ويظهر هذا التشابه الواضح بين طريقة رسم ملامح «يواصف» في صورة معمودية الملك والأسقف يعمّده (لوحة ٢٦)، وصورة كوكبة ذات الكرسي (لوحة ٢٥)، بالإضافة إلى حركات الأيدي الموضوعة على الصدر بطريقة تنمُّ على التضرع والاستسلام (لوحات ٩، ١٠، ١١، ٣٥)، وكذلك إشارات الأيدي أثناء الحديث وإيماءات الرءوس (لوحتا ٢٧، ٢٨)، هذا فضلًا عن الأزياء التي تطابقت مع نسخ «عجائب المخلوقات» المعاصرة، سواء في التكوين البسيط للملابس أو خلوّها من الزخارف والاعتماد على إبراز طيات الثياب (لوحتا ٢٨، ٣٦)، وإن وُجدت فأغلبها عبارة عن أفرع نباتية ملتفّة (لوحتا ٢٤، ٣٣)، أو شكل الطرحة التي غالبًا ما تغطي رأس النساء، وطريقة رسم التاج المفصص، والتاج الثلاثي الذي ظهر يغطي كلٍّ من رءوس النساء والرجال في هذه النسخ (لوحات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧). كما لم تختلف طريقة رسم أنواع الحيوانات التي اتخذت الشكل نفسه، والتي ظهرت في صورة تمثل «يواصف» مُدلّى في البئر، أسفله التنين والأربع حيات والفأرين، ويهاجمه ذو القرن (لوحة ٢٩)، والتي تطابق فيها رسم هذه الحيوانات مع أشكالها في نُسخ «عجائب المخلوقات» المعاصرة، حيث تشابه رسم التنين الذي يأخذ شكل الثعبان ذي البدن المنعقد على هيئة دائرة، مع صورة تنين جزيرة التنين، وسمكة التنين في نسخة مكتبة بافاريا (لوحة ٣٠)، كما تطابق فيها رسم حيوان ذي القرن مع حيوان الحرنس بنُسخ كتاب «عجائب المخلوقات» المعاصرة (لوحة ٣١)، كذلك لم تختلف صورة الفأرين في هذه الصورة عن شكليهما في النسخ المعاصرة (لوحة ٣٢). كما لم تختلف طريقة رسم أنواع النباتات والأشجار في هذه النسخة، والتي يشاهد أمثلتها في طريقة رسم شجرة النخيل في صورة تمثل الصياد والفخ والعصفور بطريقة تتطابق تمامًا مع صورتها في نسخة مكتبة بافاريا (لوحتا ٣٣، ٣٤)، كما لم تخرج الخطة اللونية في نسخة «تاريخ برلام ويواصف» عن الخطة اللونية المتَّبعة في نسخ كتاب «عجائب المخلوقات» المعاصرة. كذلك اتفقت طريقة رسم العناصر

المعمارية ما بين نسخة «تاريخ برلام ويواصف» ونسخ كتاب «عجائب المخلوقات» المعاصرة، حيث البساطة في التكوين، واستخدام العقد الدائري الذي تتدلّى منه أحيانًا المشكاة، بالإضافة إلى استخدام الأسقف الجمالونية والقباب ذات القطاع نصف الدائري في تغطية السقف (لوحات ١٥، ١٦، ١٧، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٣٦).

وما يميز نسخة «تاريخ برلام ويواصف» بالتحديد في المقارنة، وجود إشارة واضحة إلى مكان نسخها في خاتمة المخطوط، تفيد بأنها نُفِّذت على يد «القس جرجس خادم أبو السيفين بمصر القديمة[٥٣]»، وذلك «في يوم الخميس الحادي والعشرون من شهر امشير في سنة الف واربعماية اربعة وتسعين للشهداء القديسين[٥٤]»، وهذا يعني أن هذه النسخة تم تصويرها في مصر في الفترة الزمنية نفسها التي نُفِّذت فيها كلٌّ من نسخ بافاريا وفيينا والأزهر وباريس. وبما أن النسخ الخمس قد حملت السمات الفنية نفسها المتمثلة في الملامح والملابس والألوان وطريقة التعبير عن الرسوم المعمارية (لوحات ١٥، ١٦، ١٧، ٣٦)، فإننا نستطيع التأكيد على نسبة المخطوط إلى مصر في العصر العثماني.

(٥٣) تقع هذه الكنيسة شمال حصن بابليون، وتحمل اسم الشهيد القديس مورقوريوس المعروف بأبي السيفين، والذي كان ضابطًا بالجيش الروماني واعتنق المسيحية، واستشهد بسبب ذلك في عام ٣٦٥م. بدأت هذه الكنيسة صغيرة على شاطئ النيل في منطقة مصر القديمة، إلا أنها هُدمت واستخدمت مساحتها لتشوين القصب، ثم أعيد تجديدها في العصر الفاطمي في خلافة العزيز بالله، **دراسات في العمارة والفنون القبطية**، مصطفى شيحة، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٨: ٩٩.

(٥٤) يوافق تاريخ ٢١ أمشير ١٤٩٤ في القبطية، تاريخ ٣٠ محرم ١١٩٢ هجرية، وتاريخ ٢٨ فبراير ١٧٧٨ ميلادية.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة نسخة «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني، المحفوظة في مكتبة ولاية بافاريا بميونخ، تحت رقم cod.arab.463؛ وذلك بهدف تأريخها ونسبتها إلى مركز فني محدد، من خلال مقارنتها بمثيلاتها الأخرى المؤرَّخة والمنسوبة إلى مصر، والتي تحمل الأسلوب الفني نفسه لنسخة بافاريا، علاوة على مقارنتها ببعض المخطوطات الأخرى المؤكَّدة النسبة إلى مصر، مثل مخطوطة «تاريخ برلام ويواصف»، التي تتشابه معها من حيث الأسلوب الفني. وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

تمكنت الدراسة من نسبة نسخة «عجائب المخلوقات» المحفوظة بمكتبة ولاية بافاريا إلى مصر خلال العصر العثماني، وذلك من خلال مقارنتها مع نسخ تتشابه معها في الأسلوب الفني، وتنتمي إلى الفترة الزمنية نفسها. وهذه النسخ تحمل إشارات واضحة إلى أن مكان وتاريخ نسخها هو مصر خلال العصر العثماني، مما يرجِّح نسبة هذه المخطوطة موضوع الدراسة إلى مصر خلال العصر العثماني.

تمكنت الدراسة من تأريخ هذه النسخة من خلال ترجيح التاريخ الموجود بهامش خاتمة المخطوط، وهو ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠هـ كتاريخ لنَسْخ هذا المخطوط، نظرًا لتقاربه مع تواريخ نُسَخ كتاب «عجائب المخلوقات» الأخرى المؤرَّخة، والمتشابهة في الأسلوب الفني، مع نسخة مكتبة بافاريا موضوع الدراسة.

توصلت الدراسة إلى نسبة نسخة بافاريا إلى الناسخ «الحاج علي بن عبد الله»، نظرًا لتشابه هذه النسخة مع النُّسخ التي تحمل اسم هذا الناسخ، وذلك من حيث نوع الخط وشكله، بالإضافة إلى وجود نفس الأخطاء النسخية الواردة بها، وبنسخ كتاب «عجائب المخلوقات» المعاصرة لها.

ترجِّح الدراسة أن الناسخ «الحاج علي بن عبد الله» ربما يكون صاحب ورشة (مدرسة) فنية لنسخ وتوضيح المخطوطات بالصور؛ نظرًا لظهور اسمه على عدد من المخطوطات المؤرَّخة في الفترة من سنة ١١٧٤ه/ ١٧٦١م حتى سنة ١١٨٤ه/ ١٧٧٠م، والذي بلغ عددها في هذه الدراسة خمس مخطوطات، أربع منها من كتاب «عجائب الخلوقات»، والخامسة من كتاب «صحيح البخاري».

أثبتت الدراسة أن هناك إنتاجًا للمخطوطات الإسلامية في مصر خلال القرن ١٢هـ/ ١٨م، يمكن الاعتماد عليه في إبراز خصائص التصوير الإسلامي في مصر في تلك الفترة، على عكس ما رجّحته بعض الدراسات السابقة؛ أن الأسلوب الفني في مصر في فترة القرن ١٢هـ/ ١٨م اعتمد بشكل أساسي على إنتاج المخطوطات المسيحية(٥٥).

(٥٥) **مدرسة التصوير في مصر**، أسماء حسين: ٤٨٨.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المخطوطة

- القزويني، محمد بن زكريا، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة ميونخ، تحت رقم حفظ Cod.ar.464، العراق، واسط (٦٧٩هـ/١٢٨٠م).
- القزويني، محمد بن زكريا، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، نسخة مخطوطة محفوظة بالمكتبة البريطانية، تحت رقم حفظ Or.14140، نحو ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م.
- القزويني، محمد بن زكريا، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة بوردو بفرنسا، تحت رقم حفظ MS.1130، مصر، ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.
- القزويني، محمد بن زكريا، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة الأزهر الشريف، تحت رقم عام (١٣٢٨٠٢)، ورقم خاص (٩٢٣٧) معارف عامة، مجلدان، مصر، ١١٧٤هـ/ ١٦٧٠م.
- القزويني، محمد بن زكريا، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، نسخة مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم حفظ Arabe 2178، مصر ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢–١٧٦٣م.
- القزويني، محمد بن زكريا، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة ولاية بافاريا، تحت رقم حفظ Cod.Arab.463، مصر، ١١٦٣-١١٨٤هـ/ ١٧٥٠-١٧٧٠م.

ثانيًا: المصادر العربية

- الجبرتي، عبد الرحمن حسن، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تقديم د. عبد العظيم رمضان، ج١، مطبعة دار الكتب المصرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م.

ثالثًا: المراجع العربية والمعربة

- إتنجهاوزن، ريتشارد، **فن التصوير عند العرب**، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد ١٩٧٤م.
- الباشا، حسن، **فن التصوير في مصر الإسلامية**، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٦م.
- بريل، أ. جي، دائرة المعارف الإسلامية، تحرير م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، الجزء ٢٧، ط١، **مركز الشارقة للإبداع الفكري**، الشارقة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- حسن، زكي محمد، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، **مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة**، القاهرة ٢٠١٣م.
- خليفة، حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزآن، **دار إحياء التراث العربي**، بيروت.
- رمزي، محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤م.
- سليمان، أحمد السعيد، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
- شيحة، مصطفى، دراسات في العمارة والفنون القبطية، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٨م.
- عكاشة، ثروت، التصوير الإسلامي الديني والعربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، **عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات**، تحرير فرديناند وستينفيلد، غوتنغن ١٨٤٨م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي، **عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠م.
- منتصر، عبد الحليم، **عجائب المخلوقات للقزويني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

- يوسف، أحمد محمد، **النقود المتداولة في بلاد الشام في العصر العثماني**، ط١، جدة، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.

رابعًا: الدوريات العلمية

- البنا، سامح فكري، «نماذج منتقاة من فنون الكتاب في ضوء نسخة فريدة لمخطوط ليلى والمجنون المحفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة: دراسة ونشر لأول مرة»، **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب**، العدد ٢١، ٢٠٢٠م.
- بنين، أحمد شوقي، «نظام التعقيبة (فن فهرسة المخطوطات)»، **ندوة قضايا المخطوطات**، تنسيق وتحرير فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٩٩م.
- حسن، زكي محمد، «مدرسة بغداد في التصوير الإسلامي»، **مجلة سومر**، مج (١١)، العدد (١)، ١٩٥٥م.
- حسين، أسماء، «حادثة أتريب في التصوير العثماني من خلال مخطوط محفوظ بالدار البطريركية بالقاهرة»، **دراسات في آثار الوطن العربي** ١١.
- حسين، أسماء، «أضواء على عقد إجارة جزء مصور من مخطوط ألف ليلة وليلة (مع نسبة صور المخطوط لمدرستها الفنية)»، **مجلة مركز المسكوكات الإسلامية**، مصر، المجلد ١، العدد ١، ديسمبر ٢٠١٨، لوحة ٣٠.
- خالدوف، أنس، «علم النبات في كتاب عجائب المخلوقات لزكريا القزويني»، **مجلة التراث العربي**، المجلد ١٠، العددان ٣٧ – ٣٨، جمادى الآخرة – يناير ١٩٩٠م.
- الدفاع، علي عبد الله، «علوم الكون في الإسلام: القزويني»، **مجلة الدارة**، المجلد ٧، العدد ٣، فبراير ١٩٨٢م.
- العزّي، عزيز العلي، «عجائب المخلوقات للقزويني دراسة في تراثنا العلمي»، **مجلة المورد** ٦ (٤)، بغداد ١٩٧٧م.

- فرغلي، أبو الحمد محمود، «الخصائص الفنية لمدرسة التصوير المحلية في مصر في العصر العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م)»، **المجلة التاريخية المصرية**، ع ٣٨، القاهرة ١٩٩٥م.
- محمد، أيمن أحمد، «العثمانيون ونظاما الالتزام والأمانات في مصر في القرن السادس عشر: دراسة في البدايات والتطبيق»، **حوليات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية**، العدد ٣٨ (٢٠٠٤).
- مختار، تامر، «دارسة لفنون الكتاب في ضوء نسخة من الجزء الثاني من مخطوط روضة الصفا المحفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة»، **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب**، المجلد ٢٢، العدد ١، ٢٠٢١م.
- نور، حسن محمد، «مخطوط عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني وأثره في التصوير الإسلامي»، **مجلة كلية الآداب بسوهاج**، العدد ١٩، ملحق الجزء الأول، يناير ١٩٩٦م.

خامسًا: الرسائل العلمية

- حسين، أسماء، **مدرسة التصوير في مصر في العهد العثماني من خلال تصاوير المخطوطات** (٩٢٣-١٢٢٠ه/ ١٥١٧-١٨٠٥م)، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م.
- عبد الرحيم، خلف، **الصيدلة وأدواتها ومكاييلها والنباتات الطبية وصورها وفوائدها في العصر الإسلامي في ضوء «مخطوط مفردات النباتات الطبية» لأحمد بن محمد بن خليد الغافقي (ت ٥٦٠ه/ ١١٦٥م): دراسة فنية حضارية**، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م.
- موسى، محمد عبد العظيم أحمد، **تصاوير الكائنات السماوية في التصوير الإسلامي: دراسة آثارية فنية**، رسالة ماجستير، كلية الآداب-جامعة حلوان، ٢٠١٦م.
- يسري، ريهام محمد، **دراسة أثرية فنية لنسخة مخطوط عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني المحفوظة بمكتبة الأزهر**، تحت رقم عام (١٣٢٨٠٢)، ورقم خاص (٩٢٣٧) معارف عامة، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٢٠م.

سادسًا: المراجع الأجنبية والمواقع الإلكترونية

- Arnold & Grohmann, *The Islamic Book: A Contribution to its Art and History from the VII-XVIII Century*, Pegasus Press, 1929.
- Brandenburg, *Islamic Miniature Painting in Medical Manuscripts*, Editiones Roche 1982.
- Taswir; Bruckstein, *Islamische Bildwelten und Moderne*. Nicolai 2009.
- Contadini. *A World of Beasts: A Thirteenth-Century Illustrated Arabic Book on Animals* (the Kitb Na,'t Al-hayawn) in the Ibn Bakh tshu' Traditio, Brill, 2011.
- Quatre signes d'un zodiaque caché, **Caiozzo, Anna**, Les porteurs du Trône divin dans les cosmographies en arabe et persan d'époque médiévale, annales Islamologiques 33 – 1999.
- Contadini. *Arab Painting, Text and Image in Illustrated Arabic Manuscripts*, Brill' 2010.
- Fontana. Maria, La Miniatura Islamica, Vol. 6. Edizioni Lavoro, 1998.
- Guest & Ettinghausen "The Iconography of a Kāshān Luster Plate", Ars Orientalis 1961.
- *Islamic Art in Germany*, Gierlichs & Hagedorn, Verlag Philipp von Zabern, 2004.
- Persian Painting: From the Mongols to the Qajars, **Hillenbrand**, Studies in Honour of Basil W. Robinson. IB Tauris, 2000.
- Hoffman, "*The Emergence of Illustration in Arabic Manuscripts", Classical Legacy and Islamic Transformation*, Harvard University, PHD. 1982.
- Kühnel, *Miniaturmalerei im islamischen Orient*, Vol. 7. B. Cassirer, 1923.
- Komaroff & Stefano, *The Legacy of Genghis Khan: Courtly Art and Culture in Western Asi*a, 1256-1353, Metropolitan Museum of Art, 2002.

- Pope & Ackerman & Besterman, A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present, Arthur Upham Pope, editor; Phillis Ackerman, assistant editor. Vol. 6. Oxford University Press, 1981.
- Rogers & Others, The Topkapı Saray Museum: The Albums and Illustrated manuscripts, Little, Brown and Comp 1986.
- Rebhan, Helga and Bayerische Staatsbibliothek (München). Die Wunder der SchÖpfung, Handschriften der Bayerischen Staatsbibliothek aus dem islamischen kulturkreis, “The Wonders of Creation: Manuscripts of the Bavarian State Library from the Islamic World”, Ausstellungskataloge. Nr. 83, Ausstellung 16. September bis 5. Dezember 2010.
- Schoeler, G, *Verzeichnis der Orientalischen Handschriften in Deutschland: Arabische Handschriften*, XVII, Franz Steiner Verlag Stuttgart, 1990.
- Schulz, *Die Persisch-islamische Miniaturmalerei: ein Beitrage zur Kunstgeschichte Irans*, Vol. 1. KW Hiersemann, 1914.
- https://www.wdl.org/ar/item/8961/view/1/603/ 7/7/2019
- http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8406160j/f1.planchecontact 9/4/2021.
- https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b8419219x/f388.planchecontact.r=arabe%2027# 24/4/2021.

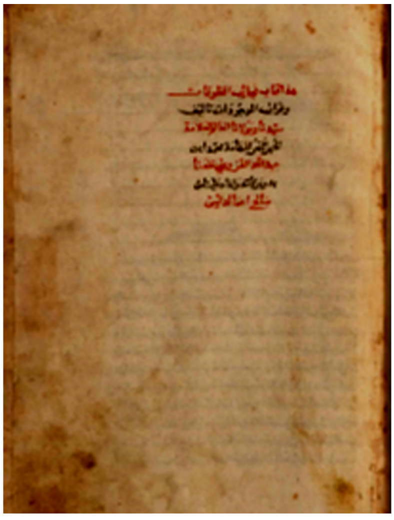
كتالوج اللوحات



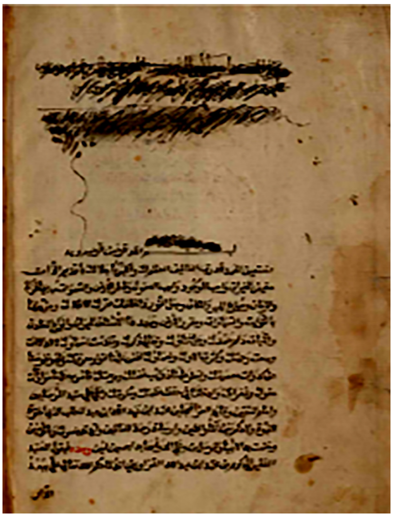
لوحة (١) جلدة مخطوط عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني، المحفوظة بمكتبة ولاية بافاريا، تحت رقم حفظ cod.arab.463



لوحة (٢) لسان جلدة مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظ بمكتبة ولاية بافاريا.



لوحة (٣) صفحة عنوان مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظ بمكتبة ولاية بافاريا.



لوحة (٤) فاتحة مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظ بمكتبة ولاية بافاريا.



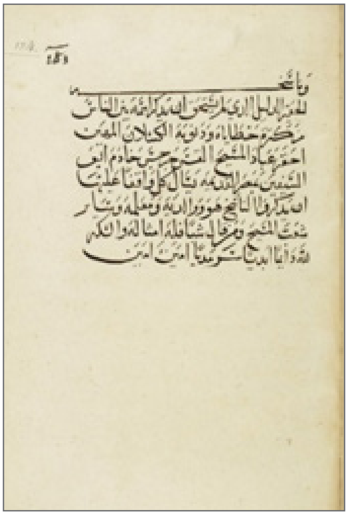
لوحة (٥) خاتمة نسخة مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظة بمكتبة ولاية بافاريا.



لوحة (٦) خاتمة نسخة مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظة بمكتبة الأزهر، تحت رقم عام (١٣٢٨٠٢)، ورقم خاص (٩٢٣٧)، والمؤرَّخة بسنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م.



لوحة (٧) خاتمة مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم arabe 2178، والمؤرَّخة بسنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م.



لوحة (٨) خاتمة مخطوط تاريخ برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم حفظ arabe 274، والمؤرَّخة بسنة ١١٩٢ه/ ١٧٧٨م.



لوحة (٩) كوكبة الزهرة، مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ١٤ ظهر.



لوحة (١٠) كوكبة الزهرة، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة الأزهر، ورقة رقم ١٤ ظهر.



لوحة (١١) كوكبة الزهرة، مخطوط عجائب المخلوقات، نسخة المكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١٤ وجه.



لوحة (١٢) كوكبة المشترى، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ١٨ وجه.



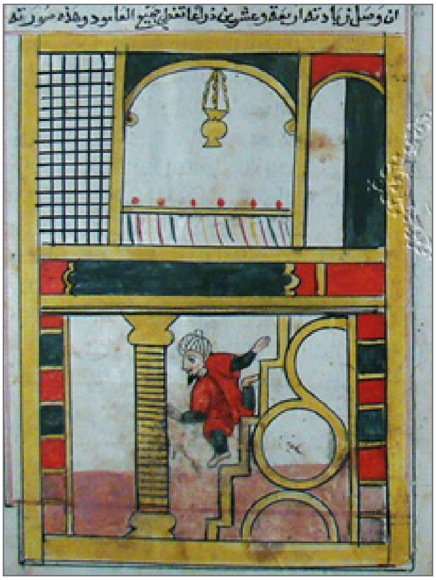
للوحة (١٣) كوكبة المشترى، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة الأزهر، ورقة رقم ١٨ وجه



لوحة (١٤) كوكبة المشترى، مخطوط عجائب المخلوقات، المكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١٧ ظهر.



لوحة (١٥) مقياس النيل، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ١٢٧ ظهر.



لوحة (١٦) مقياس النيل، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة الأزهر، ورقة رقم ١٢٩ وجه.



لوحة (١٧) مقياس النيل، مخطوط عجائب المخلوقات، المكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١١٩ وجه.



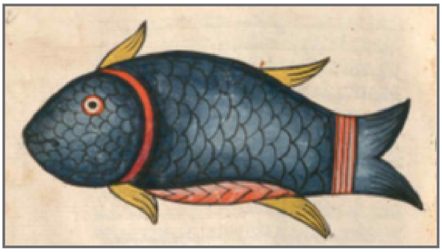
لوحة (١٨) صورة الجمل، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٢٣٨ ظهر.



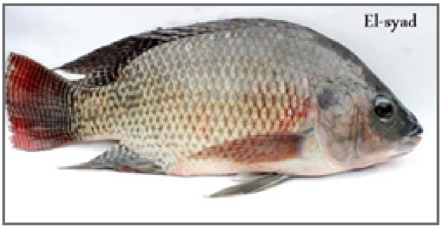
لوحة (١٩) ابن آوى، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٢٤٥ وجه.



لوحة (٢٠) الذئب، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٢٥٢ وجه.



لوحة (٢١) سمكة البال، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٨٢ وجه.



لوحة (٢٢) سمك البلطي النيلي.



لوحة (٢٣) كوكبة قيقاوس، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٢٢ وجه.



لوحة (٢٤) يواصف ابن الملك يتحدث مع ناخور سرًّا، مخطوط تاريخ برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١٢٦ ظهر.



لوحة (٢٥) كوكبة ذات الكرسي، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٢٣ ظهر.



لوحة (٢٦) معمودية الملك والأسقف يعمده، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظة بالمكتبة الهلية بباريس، ورقة رقم ١٦٠ ظهر.



لوحة (٢٧) كوكبة الكلب الأكبر، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ٣٣ وجه.



لوحة (٢٨) تمثل صورة الصبي ومعلمه، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١٧ وجه.



لوحة (٢٩) يواصف مدلّى في البئر، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ٥٥ ظهر.



لوحة (٣٠) في الأعلى تنين جزيرة التنين، وفي الأسفل سمكة التنين، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقم رقم ٧٣ ظهر، ٧٧ وجه.



لوحة (٣١) الحرنس، مخطوط عجائب المخلوقات، المحفوظ بمكتبة الأزهر، ورقة رقم ١٢٢ وجه.



لوحة (٣٢) الفأر، مخطوط عجائب المخلوقات، المحفوظ بمكتبة الأزهر، ورقة رقم ١٦٣ ظهر.



لوحة (٣٣) الصياد والفخ والعصفور، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ٤٣ وجه.



لوحة (٣٤) شجرة النخيل، مخطوط عجائب المخلوقات، مكتبة ولاية بافاريا، ورقة رقم ١٧٧ ظهر.



لوحة (٣٥) برلام يعمِّد يواصف في بركة الماء في بستانه، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ٨٥ ظهر.



لوحة (٣٦) يواصف والمعلمون والخدام في البلاط وهو يتعلم، مخطوط برلام ويواصف، المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، ورقة رقم ١١ ظهر.



للوحة (٣٧) الملك يتحدث مع شيماس، مخطوط قصة شيماس الحكيم، المحفوظ بمكتبة الدولة ببرلين، والمؤرَّخ بالقرن ١١-١٢هـ/ ١٦- ١٧، ورقة رقم ٣٠ وجه.

جماليات الخط في التراث العربي عند المشارقة حتى منتصف القرن الخامس الهجري

دراسة تحليلية

د. محمد البندوري(*)
أ. سامح السعيد(**)

ملخص البحث

تعد الكتابة العربية من أشرف الكتابات؛ لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها. ولذلك، فإن صناعة الكتابة من أنبل الصناعات قدرًا، وأعظمها أثرًا. وقد شكَّل الخطُّ العربي وسيلةً مهمة لتحقيق التواصل ونقل المعارف. وقد اتخذ مسارًا جماليًّا من خلال أسلوبه الفني الذي يقوم على المزج بين الخط والرمز واللون.

وقد استشعر العلماء جمال الخط في النصوص الكتابية، وأدركوا خصائص اللغة الخطية، وذلك نتيجة تفاعلهم مع فن الخط ورصد جمالياته. فجماليات الخط لها جهازها الاصطلاحي الخاص، والذي منه تتشكل الرؤية النقدية. وظل تأثير القرآن الكريم في بلاغة الخط جَلِيًّا؛ حيث يَظهر أن الأساليب الخطية وما صاحبها من تشكيلات جمالية، قد نشأت بالتوازي مع تطور كتابة المصاحف، ومنها استمد المبدعون القواعد الجمالية للخط.

(*) فنان تشكيلي مغربي، ورئيس الرابطة العصامية للخط العربي والفن التشكيلي، وعضو ممارس بدار الفنانين التشكيليين بفرنسا.

(**) باحث ماجستير في علوم اللغة العربية والتراث المخطوط - مصر.

اجتهد العلماء في وضع تصور لبلاغة خطية من خلال اجتهادات علماء الخط وأعمال الخطاطين والنساخين، ووضْعِ معالم التقعيد والتحديد والترميز والتدليل في نطاق خطي موزون، وقد جعل كلُّ هذا علماءَ العرب المسلمين يدركون القيم الجمالية للخط.

تروم الدراسة إلى بيان أصالة الرؤية النقدية لجماليات الخط العربي عند علماء العرب المسلمين، وذلك من خلال رصد وتتبع وتحليل الإسهام العلمي لعلماء المشرق في إدراكهم لجماليات الخط، بعيدًا عن تأثيرات فلاسفة الجمال الغربيين ونظرياتهم الحديثة في النُّقاد العرب المعاصرين.

وقد اقتصرت الدراسة على تتبع ذلك في كتابات: الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وابن مقلة (ت ٣٢٨هـ)، وأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، وأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)، وانتهاءً بعليّ بن خلف الكاتب (بعد ٤٣٧هـ).

الكلمات المفتاحية: جماليات الخط العربي - التراث العربي - الجاحظ - ابن مقلة - أبو بكر الصولي - ابن وهب الكاتب - أبو حيان التوحيدي - ابن خلف الكاتب.

The Aesthetics of Calligraphy in Arabic Heritage in the Writings of Eastern Scholars until the Middle of the Fifth Century AH:

An Analytical Study

Dr. Mohamed al-Bandouri(*)
Sameh El-Said(**)

Abstract

Arabic is one of the most revered languages, since the divine revelations of the Quran were conveyed in it. Therefore, Arabic calligraphy is one of the most esteemed industries and a quintessential art form in the Arab world. Arabic calligraphy has been an important means of communication and knowledge transmission, and it has taken an aesthetic path through its artistic evolvement, which is founded on mixing handwriting styles, diacritical points and rubrications.

Scholars have recognized the beauty of calligraphy in written texts, and identified the characteristics of its scripts, as a result of their interaction with the art and their observation of its aesthetics. Such aesthetics have their own syntax, from which the critical vision of this art was formed. The influence of the Holy

---

(*) Moroccan plastic artist and President of the Society of Freelancers Arabic Calligraphy & Plastic Art, and member of Plastic Artists Society, France.

(**) MA candidate in Arabic language and heritage, Egypt

Quran on the expressiveness of calligraphy remained evident, as it appears that writing techniques and accompanying aesthetic formations have developed in parallel with the development of Quran copying, from which the creators derived the aesthetics of calligraphy.

Arab Muslim scholars have endeavored to furnish a calligraphic rhetoric by studying the works of paleographers, calligraphers and scribes, to lay down scientific rules of composition of Arabic calligraphy, and to set parameters of its semantics and symbolism. Hence, they deduced its aesthetics.

The study aims to demonstrate the originality of the critical vision of the aesthetics of Arabic calligraphy among Arab Muslim scholars, by monitoring, tracking and analyzing Eastern scholarly works away from the influences of Western philosophers and their modern theories on contemporary Arab critics.

The study was limited to the examination the works of al-Jāhiz (d. 255 AH), Ibn Muqlā (328 AH), Abu-Bakr al-Sūlī (d. 335 AH), Abu-Hayyan al-Tawhīdī (d. 414 AH), and finally ʻAlī b. Khalaf al-Kātib (after 437 AH).

Keywords: Aesthetics of Arabic calligraphy, Arabic heritage, al-Jāhiz, Ibn Muqlā, Abu-Bakr al-Sūlī, Abu-Hayyan al-Tawhīdī, Ibn Khalaf al-Kātib.



هذا الجزء السادس عشر
من جملة اجزاء الثلاثين
عليه اجرا قال هذا فراق بيني وبينك سانبئك بتاويل
ما لم تستطع عليه صبرا اما السفينة فكانت لمساكين
يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان
وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصبا واما الغلام
فكان ابواه مومنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا
تنزيل من رب العالمين

مقدمة

لا شك أن الكتابة العربية من أشرف الكتابات؛ لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها. ولذلك، فإن صناعة الكتابة من أ نبل الصناعات قدرًا، وأعظمها خطرًا، وأحسنها على أهلها أثرًا. وقد شكَّل الخَطُّ العربي وسيلةً مهمة لتحقيق التواصل ونقل المعارف. وقد اتخذ مسارًا جماليًّا من خلال أسلوبه الفني الذي يقوم على المزج بين الخط والرمز واللون.

والتراث العربي الإسلامي يزخر بالقيم الخطية التي تتحقق في الدلالة على المستوى الجمالي والمعرفي والبلاغي، عن طريق العناصر الخطية والمفردات الفنية، التي تؤدي إلى جانب وظيفتها في البناء الخطي أدوارًا أخرى ذات أهمية قصوى.

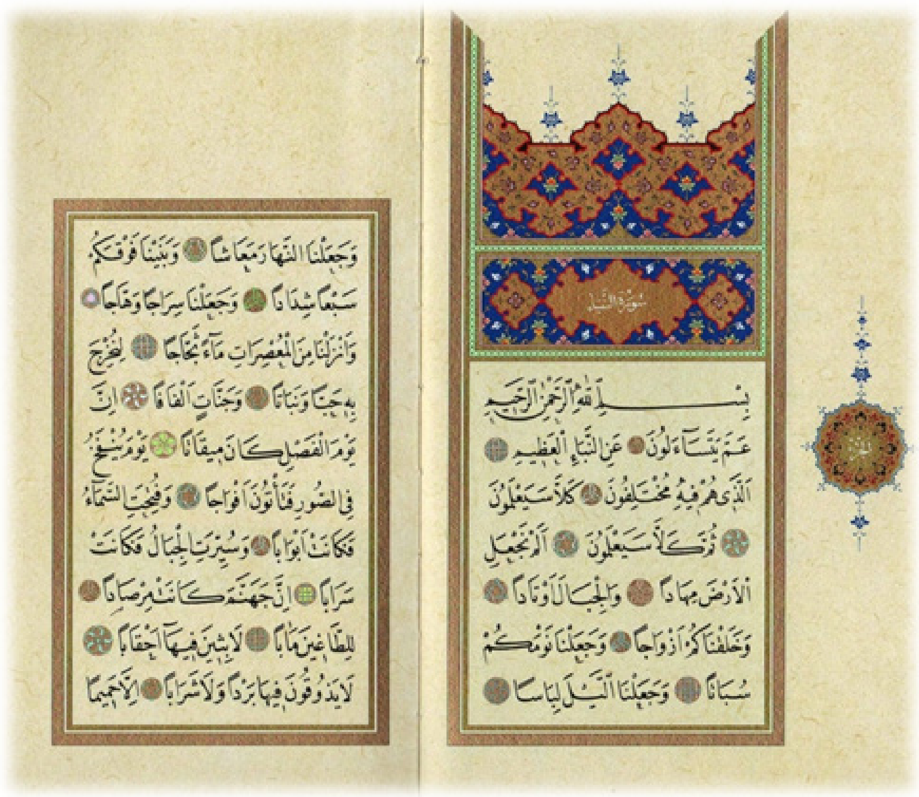
وقد أسهمت الرؤية العلمية لعلماء العرب حول الخط العربي، في إدراك العمليات التي قامت بتوجيه جمالية الخط العربي، نحو التطور والتواصل لارتياد عوالم من الإبداع المتجدد والمتنوع.

والمتتبِّع لجهود العلماء يجدها قد تركت لنا أثرًا كبيرًا في إعطاء الخط العربي منحًى جماليًّا وبلاغيًّا. وشكَّلت تلك الجهود نقطة مضيئة في مسيرة الخط وارتياد عوالم جديدة، أصبح لها أثر بالغ على النصوص الشعرية والنثرية، وعلى كل الفنون العربية الإسلامية الأخرى.

هذا، وقد استشعر العلماء جمال الخط في النصوص الكتابية، وأدركوا خصائص اللغة الخطية، وذلك نتيجة تفاعلهم مع فن الخط ورصد جمالياته. فجماليات الخط لها جهازها الاصطلاحي الخاص، الذي منه تتشكل الرؤية النقدية.

ولا شك أن التحول الحضاري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للأمة الإسلامية، قد أسهم في العملية الإبداعية، وما رافقها من طموح لتغيير مسار الخط العربي والتفنن فيه وتنويعه. كما أن اضطلاع العرب بالعلوم الرياضية والهندسية أسهم في صنع أنواع جديدة بآليات جديدة وتقنيات جديدة؛ حيث تعددت الأقلام، وتنوعت الخطوط والكيفيات والتصورات والأفكار، ومُهِّد الطريق للإبداع والابتكار بالصورة التي توصل إلى الهدف من العمل الخطي، بما يشتمل عليه من عناصر تؤسس لكل مناحي الجمال وإنتاج الدلالات. فكان من الضروري إنشاء أنماط

إبداعية من الخط الجميل، لتحديد القيم الجمالية في التشكيل؛ وذلك من أجل توصيل كلام الله -عز وجل- في أبهى صورة مكتوبة، وأجمل حُلَّة يكون فيها كتاب الله المقدس؛ ولوشم المعالم الحضارية بالطابع العربي الإسلامي، خصوصًا مع التقدم الفني والحضاري.



لوحة من مصحف عثماني متأخر، تمثِّل لنا الصورة التي استقر عليها خط النسخ المُجوَّد، من فاتحة سورة النبأ وحتى الآية ٢٤.

وظل تأثير القرآن الكريم في بلاغة الخط جليًّا، حيث يظهر أن الأساليب الخطية وما صاحبها من تشكيلات جمالية قد نشأت في رعاية الآيات القرآنية الكريمة، ومنها استمد المبدعون الأبعاد الجمالية للخط.

فإذا كان تأثير القرآن الكريم بما اشتمل عليه من نسق فني جميل قد ملك سمع الناس وقلوبهم، اعتبارًا للإحساس بالأثر النفسي للقرآن الكريم، فإن علماء الخط قد جعلوا من كتابة الآيات القرآنية -عن وعي أو عن غير وعي- سحرًا بصريًّا يليق بالسحر البياني في نطاق إدراك العلاقة بين السحر البياني والسحر الخطي، وما يخْلُفه من أثر نفسي.

ولذلك، فقد اجتهد العلماء في بلورة بلاغة خطية من خلال تصورات علماء الخط والخطاطين والنَّسّاخين، ووضْعِ معالم التقعيد والتحديد والتركيب والترميز والتدليل في نطاق نسق خطي موزون، وقد أسهم هذا كله في جعل علماء العرب المسلمين يدركون القيم الجمالية للخط.

بل إن الخط العربي هو إحدى الصور البلاغية في النصوص الجمالية، في اتصاله بكل الأساليب والوسائل التي تسهم في نشوء ظاهرة بلاغة الخط، على نحو تَتِمُّ به عملية الإدراك والتبيُّن، ومن ثم: الفهم والقراءة.

فكما ظهر الإبداع الذي ارتبط بالتحول الحضاري والتحول في عقلية الإنسان العربي المسلم، حيث ظهرت الخصائص الفنية في التعبير (البديع)؛ ظهر كذلك البديع في رسم الخط، وظهر ما اصطُلح عليه آنفًا بـ«التشكيلات الإبداعية»، التي دلّت على التجديد في التعبير بطرق مختلفة من التزيين، في نطاق التوافق بين جماليات الخط وبواطن النصوص[١].

والغرض من هذه الدراسة: بيان أصالة الرؤية النقدية لجماليات الخط العربي عند علماء العرب المسلمين، وذلك من خلال رصد وتتبع وتحليل الإسهام العلمي لعلماء المشرق في إدراكهم لجماليات الخط، بعيدًا عن تأثيرات فلاسفة الجمال الغربيين ونظرياتهم الحديثة على النُّقاد العرب المعاصرين.

واتتني فكرة هذه الدراسة عند مطالعتي لكتاب «جماليات الخط المغربي في التراث المغربي» للدكتور محمد البندوري، الذي كان تركيزه مُنصبًّا حول إبراز جهود المغاربة فيما يختص بجماليات الخط المغربي. وذكر -مُمَهِّدًا وفي إيجاز- ما جاء في تآليف بعض المشارقة حول الموضوع، وتناول -عَرَضًا- بعض العلماء المذكورين في هذه الدراسة من غير التزامٍ بالترتيب الزمني. فما كان مني

(١) انظر: **جماليات الخط المغربي في التراث المغربي: دراسة سيميائية**، د. محمد البندوري: ٥٢-٥٤ بتصرف.

إلا أن عرضتُ عليه إكمال هذه الدراسة بمزيد بيانٍ وتفصيل مُرَكِّزًا على جهود العلماء المشارقة، واقترحت ترتيب الشخصيات تاريخيًّا، وزدت بعض العلماء الذين لم يَرِد ذكرهم، وفصَّلت القول عن تلك الجهود على النحو المذكور في الدراسة؛ فاستحسن مني ذلك وأقرَّه.

وقد انتظمت الدراسة في مقدمةٍ وسبعة مباحث وخاتمة:

الأول: جماليات الخط العربي.

الثاني: الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

الثالث: ابن مقلة (ت ٣٢٨هـ).

الرابع: أبو بكر الصولي (ت٣٣٥هـ).

الخامس: ابن وهب الكاتب (من القرن الرابع).

السادس: أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ).

السابع: علي بن خلف الكاتب (بعد ٤٣٧هـ).

ثم الخاتمة، يليها نتائج الدراسة، وأخيرًا المصادر والمراجع.

المبحث الأول
جماليات الخط العربي

يمكن القول إن الخط العربي على الرغم من تداوله خارج حدود نِساخة المصاحف، بقي مرتبطًا بالمضمون القرآني غالبًا، وهو ما يجعل هذا الخط فنًّا مُقدَّسًا إسلاميًّا؛ أي إن الخط العربي الذي بقي مجاوِرا ومنحازًا للبيان القرآني، حمل الطابع الديني. ولأن الكتاب عربيُّ البناء والمضمون والتاريخ؛ لارتباطه عضويًّا بالعربية، صار الخط أيضًا فنًّا قوميًّا متميزًا عن غيره من الخطوط التي اعتمدت بناءً هندسيًّا مجردًا، ولم تُبنَ على أساس الفكر الجمالي(٢).

ومن أهم الأساسيات التي تدخل في صميم جمالية الخط العربي، وتوضِّح لنا جوانبه الثرية والمتعددة؛ تلك التي تكمن في: طبيعة الخط العربي نفسه، أو الناتجة عن إبداع الخطاط المسلم، أو النابعة من وجدانه، واستلهامه روح البيئة التي عاشها.

وقد ساعد على ذلك:

- تعدد أشكال الحرف الواحد، وتعددها بدايةً ووسطًا ومنتهًى.
- مرونة الحروف العربية وطواعيتها للتشكل.
- القياسات والنِّسب الموزونة.
- قابلية الخطوط العربية للتشكيل والتداخل.
- الامتزاج الفني والروحي في خط كل خطاط على حِدَة (البصمة الأسلوبية والشخصية الخاصة).
- إثراء الحروف بالإيقاعات الجمالية في حركية الخط. كما أن هناك جمالًا معنويًّا مضافًا يدركه المرء ببصيرته قبل بصره، وهذا الجمال المعنوي فوق القواعد الخطية، وهو أيضًا غير تناسُب الحروف والكلمات، تلك هي روح الجمال أو بعبارة أخرى عبقرية الجمال،

---

(٢) انظر: جمالية **الخط العربي بوصفه فنًّا إبداعيًّا**، د. عفيف بهنسي، ضمن: الخط العربي (فعاليات أيام الخط العربي ١٩٩٧م): ١١٤-١١٥.



نموذج توضيحي لتشكيلات الحروف العربية وما يتولّد منها.

ولا يدرك هذا الجمال المعنوي ولا يفهم جاذبيته إلا من علا حسُّه المعنوي وذوقه الفني.

لقد أدرك الفنان المسلم ما للجمال من وَقْع في النفوس، فسخَّر أقلامه لتزيين الآيات الكريمة، فأطرب العيون بروعة إبداعاته التي استلَّها من قدسية كلام الله تعالى، وجمال روحه، ورقة عاطفته[٣].

فالجمال صفة من صفات الوجودَيْن: المادي والروحي. والحس السليم يشعر بالجمال لأول وهلة، ويظهر ويتجلى في كل شيء، ولذلك يعد من كمال هذا الكون. وهو نوع من النظام والتناسق والتوازن والترابط، ومظاهر أخرى يشعر بها الوجدان الإنساني، وتحسها النفس البشرية. والجمال سمة تتصف بها الأشياء، ويلتقي معظمنا في الأحكام الجمالية تجاه الجمال. ومن جهة أخرى، تتفاوت الأحكام الجمالية بين الأجيال، لارتباطها بالجانب الوجداني والميول والاتجاهات والأهواء.

(٣) انظر: **جماليات الخط العربي في الفنون التشكيلية**، د. أيمن فاروق عبد العظيم: ٤٠ـ٤١.

والجمال في اللغة هو: الحُسن. والجمال هو الكمال في المحسوس في الشكل الظاهر والمضمون الباطن. ويتفق معظم الفلاسفة والنُّقاد على أن الشعور بالجمال قابل للتنمية والتربية والتطوير، مثلما أنه من حيث التجلي قابل للتعميم ليشمل الكون بأسره. فالجمال صفة في الأشياء تبعث في النفس السرور والرضا. وكذلك فإن القيمة الجمالية لعملٍ ما تكون متميزة من مجرد ميلنا إلى ذلك العمل(٤).

من الملاحَظ أن الأبحاث الجمالية التي تتحدث عن عناصر الفن لم تتناول الخط في الغرب؛ لأنه لم يَرْقَ إلى مستوى الإبداع، بل بقي شكلًا مزوَّقًا مخدومًا للوظيفة الدلالية فقط، وليس هناك من فيلسوف تناول الخط الغربي من حيث كونه نصًّا إبداعيًّا.

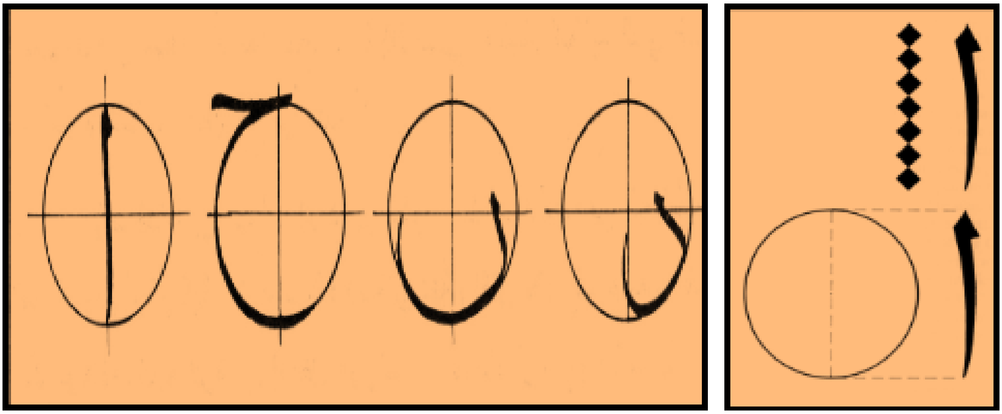
أما العرب والمسلمون فقد اعتبروا النص الخطيَّ صيغةً جمالية عربية بالأساس، وتبعهم في ذلك بعض المستعربين، فجعلوا الخط العربي منطلقًا للحديث عن العبقرية التشكيلية عند العرب المسلمين.

ومع ذلك، فإذا نظرنا إلى عناصر الفن التي تناولها الجماليون منذ كانط وهيجل وحتى بومجارتن وبابيه وأدرنو، فإننا سنراها مطابقة لعناصر الخط العربي، وهي: الخط، واللون، والكتلة، والحركة، والانسجام.

لقد دُرس الخط المجرد في جميع أشكاله؛ المستقيم والمنكسر والمنحني، من خلال رياضيات إقليدس وفيثاغورث في الغرب، وكانت أبعاده عقلانية تعتمد على العلم، لاسيما علمي: البصريات والمنظور.

أما في الفكر العربي فإن الخط ينشأ عن نقطة أزلية، وتتواصل النقاط لكي تشكِّل مسار الوجود ضمن نطاق منكفئ ليعود إلى النقطة الأزلية، راسمًا دوائر لا حصر لها تشكِّل كرة الكون، التي صدرَتْ عن نقطة بداية الوجود. ومن مرتسَم الكون كانت الدائرة التي استوعبت جميع الأشكال الهندسية الأولى: المثلث والمربع والمخمّس، والتي استوعبت بدورها أنماط الخطوط العربية. فبدا

(٤) انظر: **مفاهيم الجمال في الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بالفلسفات الغربية**، د. سامي محمود إبراهيم، ضمن: الفن في الفكر الإسلامي رؤية معرفية ومنهجية: ٩٤ـ٩٥.



نموذج توضيحي لأساس هندسة الخط العربي، وهو الدائرة التي قُطْرُها الألِف.

المثلث إطارًا لخطي الثلث والنسخ، والمربع إطارًا لخط الرقعة، والدائرة سمة للديواني، والشكل البيضاوي سمة لخط التعليق.

إن دراسة ميزان الخط التي قدمها ابن مقلة، توضح بجلاء علاقة كل حرف من الهجائية العربية بأحد الأشكال الكونية الأولى، فالدائرة أساس تكوين حروف: الحاء والقاف والياء والنون والعين، ونصف الدائرة يتجلى في تكوين حرفي: السين والصاد، وربع الدائرة في حرفي: الراء والواو، والمثلث في أحرف: الدال والفاء واللام، والمربع في حرفي: الميم واللام، وما زال الخط المستقيم المجرد في حرف الألف معبِّرًا عن الواحد، وهو أول حرف من اسم الجلالة.

وفي نطاق اللون، بدت النظريات الغربية التي تتحدث في البصريات وفي ألوان الطيف كافيةً لجعل اللون مسألة علمية محضة، دُرِسَت فيها مشاكل التضاد اللوني والتدرج وغيرها. ومع أن الحسن بن الهيثم (ت ٤٩٠هـ) من أبرز العلماء الذين تحدثوا في مسائل البصريات، فإن ألوان الطيف لم تدخل عالم الجمالية الإسلامية والخط والتذهيب، بل هي ألوان الشمس: الذهبي والأصفر، وألوان السماء: الأزرق والزبرجدي، وهي ألوان كليَّة وليست ألوانًا جزئية تحليلية. ومع ذلك فإن المنمنمات قد استوعبت أكثر الألوان انسجامًا وتعبيرًا، بعيدًا عن علم الضوء وقواعده.

ولكن ما قدَّمه ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨هـ) من تناغم بين الزخرفة والتشكيل، ومن تناغم لونيٍّ بين الأحمر والأخضر أو بين الأصفر والبنفسجي، يُذكِّر بدائرة نيوتن وبالتضاد اللوني.

ويختلف مفهوم الكتلة في الصورة عنه في التمثال كليًّا؛ فالصورة لا تُرى إلا من زاوية واحدة، أما التمثال فإنه يُرى من جميع الجهات. وتتجلى الكتلة أصلًا في العمارة، ولكنها خاضعة لشروط الهندسة والبناء، وتتكون الكتلة في الخط وفق معايير نسبية لا حدَّ لتنوعها، مما يعزز الصفة الإبداعية في الخط العربي، ويجعله مميزًا عن غيره من الخطوط. فالخط الغربي يفتقر إلى قابلية التعبير الإبداعي، ولم يدخل في نطاق الفن الغربي، إلا ضمن محاولات بعض مصوري الحداثة.

على أن الكتلة في الخط العربي لم تكن جامدة، ومع طبيعتها الساكنة فهي متحركة كما يقول أبو بكر محمد بن يحيى الصولي في «أدب الكُتّاب»، ولكن حركتها بصرية وليست ميكانيكية. فهي حركة متجذِّرة عضويًّا في بناء النص الخطي، لا سيما عند تضافره لتأليف التكوين الخطي. عندها تتجلى حركية الكتلة الخطية من خلال التناغم بين النص والفراغ، ومن خلال الحوار بين الأشكال، وبصورة عامة من خلال منظور موسيقي ترسمه الحروف في فضاءات الورق، بل إن علامات التزيين التي تضاف إلى الكتابة الخطية تعد علامات موسيقية، يُصغى إليها من خلال التكوينات الخطية وانسيابية الحروف، والترجيع الصوتي في ترتيب وتنسيق الحروف المتشابهة، وبالتوافق (الهرموني) في إحكام العلاقة بين الحروف والنقاط والعلامات مما نراه في الخط الديواني عند هاشم البغدادي، وفي الخط الرقعي الديواني عند محمد عزت، وفي الخط السنبلي الذي ابتكره عارف حكمت، وفي الكوفي الأندلسي نسمع إيقاع الموشحات.

والإيقاع في لعبة الفراغ يبقى من أهم ميزات فن الخط العربي. ولأن العلاقة بين النص الخطي والنص الخطابي علاقة عضوية، فإن موسيقى العربية وجرسها تتجلى في صيغ الخط، مما يجعلنا نسمع هذه الموسيقى من خلال جمالية الشكل الخطي، ولا يمكن أن ننسى دور علم التجويد في بناء موسيقى النص الخطابي القرآني. هذا التجويد الموسيقي الذي يساير التجويد الخطي.



نموذج يوضح براعة الخطاط في استغلال التشكيل المتوائم مع مضمون النص (صورة الطواف بالكعبة).

وأخيرًا، يرى أكثر الجماليين أن عنصر الانسجام يكفي وحده تعريفًا للجميل، وما زلنا حتى اليوم نسمع تعريفات للجمال لا تخرج عن مفهوم التوازن والتناسب والتكامل والانسجام، سواء في التشكيل أو في الموسيقى أو العمارة. وفي الخط يؤكد علماء المسلمين من أمثال الجاحظ والتوحيدي وابن خلدون على الانسجام تعريفًا للجميل والحسن. وكان الخطاط «قطبة المحرر» في العصر الأموي أول مَن جعل الانسجام قاعدة لجمالية الخط العربي(٥).

(٥) انظر: **مفاهيم الجمال في الفلسفة الإسلامية**، مرجع سابق: ٩٤-٩٥.

تنبيه:

١- المقصود بالمشارقة في هذه الدراسة: علماء المشرق الإسلامي في الحجاز والعراق ومصر والشام الذين لهم كتابات في المسألة؛ نظرًا لأن دراسة د. البندوري في الدكتوراه كانت عن «جماليات الخط المغربي في التراث المغربي».

٢- لم نتعرض لذكر كتاب «الكتّاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها» لأبي القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي (توفي بعد ٢٥٦هـ)؛ فليس فيه شيء عن جماليات الخط؛ فقد بدأ المؤلف كتابه بذكر ما يحتاج إليه الكاتب من آلة الكتابة (الدواة والقلم والقرطاس) كأنه معجم لغوي لمعاني أدوات الكتابة، ثم باب الكتاب، والسحاة، والخاتم، والعنوان، والتاريخ، والديوان، وباب في ذكر أسماء كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأسماء الكتّاب الأشراف الذين صاروا بعد الكتابة خلفاء وأئمة وعلماء، وأسماء الكتّاب الذين ارتفع شأنهم بالكتابة بعد أن لم يكن لهم شرف أو نباهة، وأسماء الكتّاب الذين تقدّموا بالبلاغة والعلم بالكتابة، ثم فصل البلاغة وفيه: ذكر ما انتهى إليه من بلاغة الكتّاب المتقدمين فيها، وأسماء الكواتب من النساء، وما يجب أن يكون في الكاتب من الآلة، وباب في طرائف من أخبار الكُتّاب، ومُلَحٌ من كلام المُحدَّثِين، وأخيرًا ذكر ما ذُمَّ من أخلاق الكُتّاب المُحدَّثِين.

١- وكذا استبعدنا رسالة الخط والقلم المنسوبة خطأً لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، فقد ناقش أمر تلك النسبة ونفاها أستاذنا العلّامة المرحوم -بإذن الله تعالى- د.حاتم صالح الضامن في تحقيقه تلك الرسالة لأول مرة، كما أن هذه الرسالة -في حقيقة الأمر- تُعَدُّ معجمًا لُغَويًّا متخصصًا في آلات الخط والكتابة ومصطلحاتهما، وتصاريف تلك المصطلحات واشتقاقاتها لا غير(٦).

(٦) انظر مقدمة تحقيقه: مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (٣٩)، الجزء (٤)، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

المبحث الثاني
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٦٣٧م)

إن مفهوم الخط لدى الجاحظ يتخذ النظرة الشمولية، التي تضع كل أشكال الخطوط والرسوم التي تصنَّف في الخانة البصرية المدركَة بالعين، ضمن فضاء المكان لتحقيق التواصل. وفي هذا السياق، وفي نطاق أنماط الكتابة التي تشكِّل هذا الأساس التواصلي؛ استعرض الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ضروبًا من الخطوط، منها ما تدل على قَدْر منفعة الخط، مُورِدًا آيات من القرآن الكريم مثل قول الله تعالى: ﴿كرامًا كاتبين﴾ [الانفطار: ١١]، وقوله عز وجل: ﴿في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة﴾ [عبس: ١٣ – ١٥].

وكذلك بعض الأقوال المأثورة، منها: "خطوط تكون مستراحًا للأسير والمهموم والمفكِّر"[٧]. ومنها ما انتقاه من أقوال الشعراء في جودة الخط العربي فقال: «ومما قالوا في الخط ما أنشدنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال: قال المقنع الكندي في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد:

كَالخَطِّ في كُتُبِ الغُلامِ أجَـادَهُ بِمِدَادِهِ، وَأَسَدَّ مِنْ أَقْلامِـهِ
قَلَمٌ كَخُرْطومِ الحَمَامَةِ مَائِلٌ مُسْتَحْفِظٌ لِلْعِلْمِ مِن عَلّامِهِ
يَسِمُ الحُروفَ إذا يَشاءُ بِناءَها لِبَيانِها بِالنَّقْطِ مِنْ أَرْسامِه

إلى أن قال:

ما خَطَّ مِنْ شَيْءٍ بِهِ كُتّابُه ما إنْ يَبوحُ بِهِ عَلى اسْتِكْتَامِهِ
وَهِجاؤُهُ قافٌ ولامٌ بَعْدَها مِيمٌ مُعَلَّقَةٌ بِأَسْفَلِ لامِهِ[٨]

(٧) الحيوان: ١/ ٦٣.
(٨) الحيوان: ١/ ٦٥-٦٦.

وأورد أبياتًا شعرية في الخط للحسن بن جماعة الجُذاميّ:

إلَيْكَ بِسِرِّي باتَ يُرْقِلُ عالِمٌ أصَمُّ الصَّدى مُحْرَوْرِفُ السِّنِّ طائِعُ
بَصيرٌ بما يُوحَى إلَيْه وَمَا لَهُ لِسانٌ ولا أُذْنٌ بها هُوَ سَامِعُ

كَأَنَّ ضَميرَ القَلْبِ باحَ بِسِرِّهِ لَدَيْهِ إذا ما حَثْحَثَتْهُ الأصابِعُ
لَهُ رِيقَةٌ مِنْ غَيْرِ فَرْثٍ تَمُدُّهُ ولا مِنْ ضُلُوعٍ صَفَّقَتْها الأضالِعُ

ومما أورده من الشعر أيضًا ما قاله الطائي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات في قصيدة مطلعها:

وَما بَرِحَتْ صُوَرًا إليكَ نَوازِعًا أعنَّتُها مُذْ راسلَتْكَ الرَّسائِلُ
لَكَ القَلَمُ الأعلَى الذي بِشَباتِهِ يُصابُ مِنَ الأمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ(٩)

وقال الجاحظ: «وقد ذكر البحتري في كلمة له، بعض كهول العسكر، ومن أنبل أبناء كتَّابهم الجِلَّة فقال:

وَإذا دَجَتْ أقْلامُهُ ثُمَّ انتَحَتْ بَرَقَتْ مَصابيحُ الدُّجى في كُتْبِهِ(١٠)

ومن خلال ما سبق ذكره، يتبين لنا أن مفهوم الخط لدى الجاحظ يقصد به كل أشكال الخطوط والأنماط المختلفة التي لها أبعاد سامية، تتمثل في حفظ العلم واللغة ونقل المعارف والأخبار وتدوينها. لكن إذا تعمقنا في بيان الخط لدى الجاحظ ستنجلي لنا رؤيته حول القيم الخطية.

فاعتناء الجاحظ بالخط يدخل ضمن التعدد النقدي الذي كوّنته ثقافته. وسيتطور هذا الاهتمام بحكم التحولات التي يعرفها مجال الخط، وأيضًا من خلال التفاعل المستمر بين المواد الخطية وآراء الجاحظ النقدية. الشيء الذي سيُنتج مقاصد جمالية مما تزخر به نظرياته التي كانت رهينة أول الأمر بالطابع الذوقي والانطباع الشخصي. لكن مع اكتمال الصيغ الجمالية وتيسُّر السبل الإقناعية الظاهرة، ظهر الوعي الجمالي لدى الجاحظ، واتخذت نظرته صبغة نقدية مبنية

(٩) الحيوان: ١/ ٦٧.
(١٠) الحيوان: ١/ ٦٨.

على أسس جمالية، خصوصًا أن النصوص الشعرية قد كُتبت بالخط العربي، وبخطوط متفاوتة الجمال، ومختلفة الشكل والنوع. وكان لهذا التحول تأثير في مجال الخط والنقد، وفي آراء الجاحظ تحديدًا. فمفهوم الخط عند الجاحظ أعمق من حصره في مجال الكتابة والقلم.

لقد كان ظاهرًا في التراث العربي الإسلامي أن عملية الخط تحقق مجالًا جماليًا. ومما يدل على الوعي بذلك اهتمام الجاحظ بالبعد الجمالي للخط، وهو لم يُخْفِ إعجابه بالخط الجميل حين قال: "وقيل لابن داحة وأخرج كتاب أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين، بخط عجيب"(١١).

حتى إن الجاحظ انتبه لما يؤديه الفضاء والمزاوجة بين الأبيض والأسود فقال: «يحرص الزنادقة على المغالاة بالورق الأبيض وعلى تخير الحبر الأسود المشرِق البرَّاق، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط»(١٢).

ومن استحسانه وعنايته بجودة الخط وجماليته، يقول فيهم: «فإني لم أرَ كورق كتبهم ورقًا، ولا كالخطوط التي فيها خطًّا»(١٣).

وقال أيضًا: «وكتب أحمد بن يوسف يومًا بين يدي المأمون خطًّا فأعجبه فقال: وددت والله أني كتبت مثله وأني مُغرَّم أَلْفَ أَلْف»(١٤).

والجاحظ بأقواله تلك، يميِّز بين الخطوط من حيث الجودة والجمال المرئي، ويَعرِف قيمة الفضاء الأبيض للورق. وهذا يحيلنا بالطبع إلى مجال الرؤية البصرية للخط لدى الجاحظ، وما تثيره من تفاعل مباشر، الشيء الذي جعله يثبت الخط في أداء وظيفة البيان، مع وعي كامل بطبيعة العلامة الخطية، فهو يدرك أن عملية الكتابة تتم بما يصنعه القلم في المداد ليحوِّلها إلى أشكال حروفية في مساحة تتمثل في الورق الأبيض أو القرطاس، حيث يتم التركيب الخطي، ويتم التأليف بين الأشكال التي تُنتِج في النهاية كلمات متنوعة.

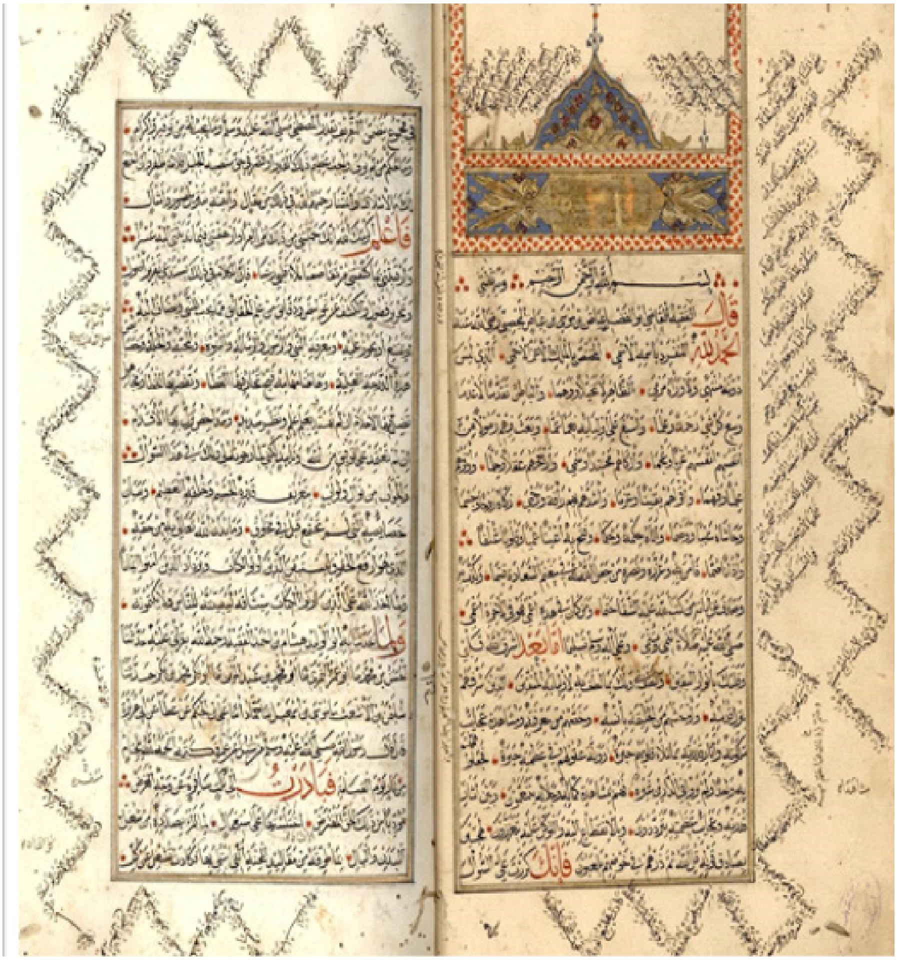
---

(١١) الحيوان: ١/٦١.

(١٢) الحيوان: ١/ ٥٥.

(١٣) الحيوان: ١/ ٥٥.

(١٤) ذم أخلاق الكُتَّاب، ضمن: رسائل الجاحظ: ١/ ٦٠٨.



نسخة نفيسة من كتاب «الشِّفا» للقاضي عياض، مكتوبة بخط النسخ المُجوَّد،
ويُلاحَظ كتابة الفواصل الحمراء بخط الثُّلث.

واهتمام النقاد العرب بالخط، بالإضافة إلى بُعده الجمالي كان -أحيانًا- دافعُه تخليدَ العلم وحمايتَه من الضياع، يقول الجاحظ: «ولولا الكتب المدوَّنة، والأخبار المخلَّدة، والحِكم المخطوطة التي تحصِّن الحساب وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم ولغَلَب سلطانُ النسيان سلطـانَ الذِّكر».[١٥]

(١٥) **الحيوان**: ١/ ٤٧.

وقال أيضًا: «لولا الخطوط لبَطَلت العهود والشروط والسجلات والصكاك، وكل إقطاع، وكل إنفاق، وكل عهد وعقد، وكل جوار وحلف..»(١٦).

وبذلك، «يصير كلُّ شيء فضَل عن انتهاء مدى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب، فأي نفع أعظم وأي مرفق أعون من الخط»(١٧).

وبذلك، يتبين أن الجاحظ كان على وعي بجمالية الخط، كما كان على دراية بأهميته في التواصل وحفظ العلم، من خلال تطرُّقه لبيان الخط، مُعْتَبِرَهُ ذا أهمية بالغة من حيث البيان والتواصل قياسًا بالدور الذي يحققه، والوظيفة التي ينجزها على خلاف الأنواع الأخرى للبيان، التي لا يمكن أن تقوم بما يقوم به الخط.

فالجاحظ يستثمر هذا المعطى الجمالي في مجال التواصل: «فلذلك وضع الله -عز وجل- القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [القلم: ١]، فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخَطُّ بالقلم. ولذلك، كان الاهتمام بجمالية الخط ضرورة يقتضيها مجاله الديني والبياني، فعمل النقاد منذ الوهلة الأولى على التركيز على البُعد الجمالي والبياني والتواصلي للخط على كل المستويات.

وإن الجاحظ في نطاق تنبُّهه إلى دلالة الخط الرمزية قد أشار إلى نظامه، وهو يُشْرِك الخط في أداء وظيفة البيان، من خلال مفهومه العام للخط الذي يشمل كل أشكال الخطوط والرسوم المدرَكة عن طريق الرؤية البصرية، والتي تحقق التواصل بين مختلف العناصر. فالخط لدى الجاحظ كلُّ ما خُطَّ من رسوم ورقوم ووسوم وخطوط، قال: «وليس بين الرقوم والخطوط فرق... وليس بين الرسوم التي تكون على الحافر كله والخف والظلف كله وبين الرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرسوم كلها فرق، وكلها خطوط، وكلها كتاب أو في معنى الخط والكتاب»(١٨).

فالمفهوم العام للخط عند الجاحظ لا يمكن أن يقتصر على معاني الكتاب أو رسم حروف اللغة المنطوقة وتصويرها على الورق أو الجلد أو ما شاكلهما، بل يمتد إلى فعالية الخط وقدرته على

(١٦) الحيوان: ١/ ٦٩.
(١٧) الحيوان: ١/ ٤٨.
(١٨) الحيوان: ١/ ٧٠.

الامتداد في الزمان والمكان. ومن ثم، فإن مفهوم الخط عند الجاحظ يتسع لتنظيراته فيما سماه بيان الخط. وتنظيراته لمقومات الخط وما يستتبع ذلك من جماليات ستتطور وستؤدي أداءات متنوعة ذات دلالات ومعانٍ.

إن الجاحظ قد اهتم كثيرًا بعملتي التواصل الشفهية والكتابية في وظيفة البيان، ومعظم نصوص الجاحظ التي تناول فيها الخط تُبيِّن الإقرار بوحدة الخط واللفظ في أداء التواصل، وهو قريب من الذين يوازنون بين الخط واللفظ، يقول ابن الصائغ: «الأصل في ذلك أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها من حيث أن الخط دال على الألفاظ، والألفاظ دالة على الإفهام، ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الفضيلة وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما لأنهما يعبِّران عن المعاني»(١٩).

وهذا يتناسب مع ما ذهب إليه الجاحظ بخصوص معاني الخط، ومن ذلك قوله: «قد قلنا في الدلالة بالإشارة، فأما الخط فمما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب؛ قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. وقالوا: القلم أبقى أثرًا، واللسان أكثر هذرًا. وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحضَّ الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الكائن، مثله للقائم الراهن»(٢٠).

لكن، وعلى خلاف الذين أقروا بهيمنة بيان اللفظ على أنواع البيان الأخرى، فإن الجاحظ فيما يخص مفهوم الخط قد اتجه في نصوص أخرى إلى التخلي عن معاني الكتاب والقلم ورسم الحروف وتصويرها في القرطاس، وتقريبها من مفهوم آخر يتعلق بالأثر وهو أكثر شمولية، لأنه يكشف عن المعنى بطريقة بصرية تواصلية دالة متواصلة في الزمان والمكان.

وقد أثبتت الأدلة أن العمليات التواصلية مرت عبر الخط الأثر، والتي تمثلت في عمليات النقش والحفر والكتابة. يقول الجاحظ: «وكانوا يجعلون الكتاب حفرًا في الصخور، ونقشًا في

(١٩) تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب: ٢٧ـ ٢٨.

(٢٠) البيان والتبينُ: ١/ ٧٩ـ٨٠.

الحجارة، وخلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر، إذا كان تاريخًا لأمر جسيم، أو عهدًا لأمر عظيم، أو موعظة يُرتجى نفعها، أو إحياء شرف ويريدون تخليد ذكره.. كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر.. فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدُّثور، وأمتعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مر بها، ولا تُنسى على وجه الدهر»(٢١).

أدرك الجاحظ أن للخط الذي هو الأثر دورَه الفعّال في تدوين الأمور العظام والتاريخ والعلوم والمواعظ، حيث تتواصل في الزمان والمكان، يقول: «الكتاب يُقرأ بكل مكان وفي كل زمان.. وقد يذهب العالم وتبقى كُتُبه، ويفنى ويبقى أثره. ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلفت من عجيب حكمها، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا ما غاب عنا، وفتحنا بها المستغلِق علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة، وانقطع سبيلنا إلى المعرفة. ولو ألجئنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا، بما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، لقد قلّت المعرفة، وقصرت الهمة، وضعفت المنة، فاعتقم الرأي ومات الخاطر، وتبلد العقل، واستبد بنا سوء العادة»(٢٢).

والجاحظ قد أدرك جَلِيًّا أن اللغة المرئية المكتوبة بالخطوط هي الشكل الجمالي البصري الذي يؤدي معاني وينتج دلالات، وهي أيضًا الوسيلة التواصلية لتقييد الأفكار وحفظ العلوم وتخليدها، وحفظ الأخبار والحِكم من الضياع، وبها يحفظ الناس منافعهم، فيظل الخط أعم وأعظم وأقوى نفعًا وأبقى أثرًا. يستمر معه التواصل ونقل الخطاب عبر الزمان والمكان مـن جيل إلى آخر وبين الأمم. ومن خلال ما أورده الجاحظ فيما يدل على قدر ومنفعة الخط أن الله سبحانه وتعالى أكرم ملائكته بخطوط يدوّنون بها أعمال البشر:» ﴿كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ وقال الله عز وجل: ﴿ في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة﴾ وقال: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾.. ولو لم تُكتب أعمالُهم لكانت محفوظة لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى وعز علم أن كتاب المحفوظ، ونسخه أوكد في الإنذار والتحذير، وأهيب في الصدور»(٢٣).

---

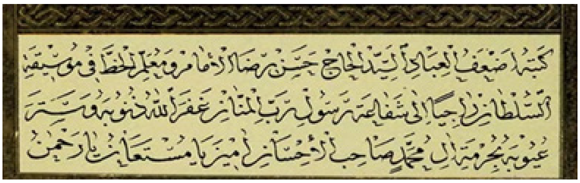
(٢١) **الحيوان**: ١/ ٦٩.

(٢٢) **رسائل الجاحظ**: ١/ ١٩٢ـ١٩٣.

(٢٣) **الحيوان**: ١/ ٦٢.



بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسمعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري
رحمه الله تعالى آمين باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقول الله جل ذكره إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده
حدثنا الحميدي قال حدثنا سفيان قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال
أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول سمعت عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها
أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا
مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث
ابن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف
يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس
وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا



كتبه أضعف العباد السيد الحاج حسن رضا الإمام ومعلم الخط في موسيقة
السلطان راجيا إلى شفاعة رسول رب المنان غفر الله ذنوبه وستر
عيوبه بحرمة آل محمد صاحب الإحسان آمين يا مستعان يا رحمن

فاتحة صحيح البخاري بخط النسخ المُجَوَّد، وقيد الفراغ من النسخ.

فالله تبارك وتعالى بقدرته العظيمة وعلمه الغيب، قادرٌ على حفظ كل شيء من النسيان دون أن يُكتب، ولكنه تبارك وتعالى أراد أن تُكتب قصدًا؛ لأن ما يُكتب بالخط أبلغ في تحقيق التواصل وربط الماضي بالحاضر.

وقال الجاحظ في باب فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمخالفات: «وكان العرب في الجاهلية يكتبون المواثيق والعهود والأحلاف»، ووصفهم الجاحظ بأنهم: «كانوا يدعون في الجاهلية مَن يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيمًا للأمر، وتبعيدًا من النسيان»(٢٤).

وقد مثَّل الجاحظ لذلك بشعر الحارث بن حلِّزة اليشكري في معلقته:

وَاذْكُروا حِـلْفَ ذي المَجازِ وما قُدْ ... دِمَ فِيهِ العُهـودُ وَالكُفَـــلاءُ

حَذَرَ الجَـوْرِ وَالتَّعَـدِّي وَهَـلْ يَنْـ ... قُضُ ما في الـمَهارِقِ الأَهْواءُ

إن اعتماد الجاحظ للخط «الأثر» الذي يستند إلى عملية الكتابة بأبعاد متنوعة، قد خصه في نصوص في كتاب الحيوان والبيان والتبيين والرسائل. فمن خلال صورة الخط وتجليه في الموروثات الحضارية يبدو أن هناك سياقًا خاصًّا سلكه الجاحظ وهو يُعنى بكل ما يمكن أن تثيره كلمة "أثر"؛ وهي إحدى الركائز الأساسية في تجلي الخط؛ لأن أثر الخط في كل الخامات بدءًا من الكتابات الجدرانية والمنقوشة في الصخور وفي الحجارة والمخطوطة في الصحف، له دلالة على العمارة بما يفيد التواصل بين الأجيال وبين الحضارات، ودالٌّ على أهمية الخط وعمليات الكتابة في عموميتها، فكلها أثر يعني تثبيت خطوط وأشكال وحروف سواء كانت على رق أو قرطاس أو جدران.

فالأثر يتجلى في كل النصوص ويتطور في تصورات الجاحظ، وينمو في فكره إلى درجة يزول فيها الفرق عنده بين دلالة الخط والكتاب ودلالة البنيان. كما لا تختلف عنده كذلك دلالة الخط والكتاب عن دلالة النقش في الصخور وفي الحجارة، فكلها أثر بالنسبة إليه. لكن تحديد الخط في الأثر له أكثر من معنى وأكثر من دلالة. بل إن إحالة العلامة اللغوية المكتوبة بالخط الأثر، تعكس ذلك التجلي المطلق للخط في كل الوسائل بالطريقة المرئية التي تُستخلص خلالها الدلالة

(٢٤) **الحيوان**: ١/ ٦٩ـ٧٠.

من الخـط، بعد عملية تشغيل للنظـر بوصفه «فعلًا عقليًّا»، وبواسطة الإدراك الذي يميز الشكل والخط، والذي بمقتضاه تدرَك مختلف الأشكال، وتدرَك أنواع الحروف وأشكال الخطوط عمومًا.

ولا غرو في ذلك، فالكتابة كانت عبارة عن نقوش في الصخور والجدران بمختلف أشكالها، وكانت عبارة عن حفر في الحجارة، فكانت الأمم الغابرة تنحت وتخط على جدران القصور والقبب والأبواب لتخليد أمجادها والتدليل على عظمتها، وكل ذلك له دلالاته ومعانيه في كل الحضارات.

ويمكن القول إن الجاحظ يوحِّد بين الكتب والبنيان كلما دلَّ الخط على الأثر؛ علمًا أن الخط أبلغ في الحفظ والتوصيل من البنيان. فكل ما يعود إلى الماضي من ملامح مادية، تصبح لها وظائف تواصلية، تتولى فيها الآثار المهمة الإخبارية عن ثقافة أو علوم أو حضارة أو غيرها. أما الخط فهو ينقل كل شيء عبر الأجيال، وله القدرة على الإبانة والكشف عن كل الأشياء من معارف وعلوم، التي تعد أساسًا ثابتًا لجميع ما وصلت إليه الإنسانية من الرقي والتحضر.

ومن خلال ما تقدم نعلم أن أهم وسائل التعبير إيضاحًا وبيانًا هي الكتابة الخطية، فنستخلص البُعدَ الجمالي من الإدراك البصري، وذلك من خلال النصوص بدَالِّـها الخطي التي قد تفاعلت في ذهن الجاحظ، فكان لحضورها تأثير على آرائه وتصوراته، فمفاهيم النقد والجمالية تعدت لديه إلى الخط ببلاغة التعبير وسحر البيان.


وهنوك وفوك وذومال مضافة الى غير ياء المتكلم
بالواو والألف والياء المثنى وكلا مضافا الى مضمر
واثنان بالألف والياء جمع المذكر السالم واولو
وعشرون واخواتها بالواو والياء التقدير فيما تعذر
كعصا وغلامي مطلقا او استثقل كقاض رفعا
وجرا ونحو مسلمي رفعا واللفظي فيما عداه غير
المنصرف ما فيه علتان من تسع او واحدة منها تقوم
مقامهما وهي
عدل ووصف وتأنيث ومعرفة وعجمة ثم جمع ثم تركيب
والنون زائدة من قبلها الف ووزن فعل وهذا القول تقريب
مثل عمر واحمر وطلحة وزينب وابرهيم ومساجد

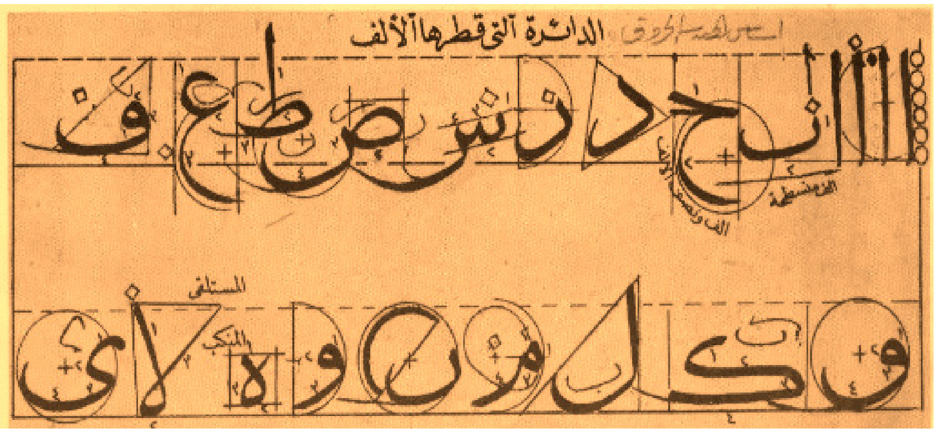
نسخة خزائنية نفيسة من كافية ابن الحاجب.

المبحث الثالث

محمد بن علي بن الحسن ابن مقلة (ت ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)

شكَّل الاهتمام بضوابط الكتابة وجمالياتها أحد أهم الأسس التي صنعت اللَّبِنات الأولى للتحول إلى البلاغة البصرية. وقد أدى هذا الاهتمام إلى ظهور تصورات وآراء وأعمال ذات قيمة كبيرة، منها ما جاء به أبو علي ابن مقلة المتوفى (ت ٣٢٨هـ) حسب ما تواتر عنه في كتب التراجم، فجوَّد الخط حتى تميز بالحُسن والجودة؛ حيث أدخل عليه تحسينات رائقة، حملته إلى الشكل الجميل الذي انتهى إليه، ثم فتح من خلال مذهبه الجمالي باب الإبداع، ونَهَج الدقة في التجويد، وبَسَط الأساليب الجمالية التي أخضعها لمقاييس محددة(٢٥).

وبذلك، كان ابن مقلة منطلَقًا فاصلًا بين ما سبق وبين العهد الجديد للخط تنظيرًا وتطبيقًا، وكانت فلسفته الخطية قائمة على أسس عقلية ومنطقية ومعرفية ومنهجية وعلمية وهندسية.



فابن مقلة كما هو معلوم هو أول مَن هندس الحروف، وأجاد تحريرها، وقعَّد لها القواعد والقوانين، حيث اعتمد منهج قطر الدائرة التي يُبنى عليها جميع أقواس الحروف الأبجدية المفردة،

(٢٥) تذكر كتب التراجم أن ابن مقلة ـ رحمه الله ـ كتب القرآن الكريم بيده في حياته مرتين.

وعدَّ (الألف) القطر هو الأساس الهندسي لضبط الحروف، واخترع طريقة جديدة للقياس بواسطة النقط، وجعل الريشة وحدة للقياس. فهو بذلك أول من بلغ بالخط المنسوب مبلغًا من الكمال، وحقق للحروف انسجامها وجماليتها، وأسبغ على الحروف تناسبًا هندسيًّا رائعًا، وهذَّب الحروف، وأخذ الخط الكوفي كقاعدة، وأخرج من هذه الحروف أشكالًا هندسية، وأمكنه بذلك قياس هذه الحروف المقوّسة مثل الراء والنون والسين، فقد جعل قطر كل حرف ألفًا.

ومن ذلك أنه أطلق على هذا الخط اسم المنسوب، لتناسب حروفه وجمال أشكالها، أو تناسبها بشكل هندسي متقن مجوَّد. وعلى هذا الأساس وضع ابن مقلة قانونه الذي يضبط به أصول الخط، وبيَّن ذلك في رسالته فقال: حُسن الكتابة وجودتها من جهتين: جهة صحة أشكالها، وجهة أوضاعها.

فأما أشكالها فيُحتَاج فيها إلى تصحيح خمسة أشياء:

الأول **التوفية**: وهو أن يوفَّى كلُّ حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يُرَكَّب منها، من مقوَّس ومنتصب ومنحنٍ ومنسطح.

الثاني **الإتمام**: وهو أن يُعطى كلُّ حرف حظه وقسمه من الأقدار التي يجب أن يكون عليها من طول وقِصر، ومن كبر وصغر.

الثالث **الإكمال**: وهو أن يُؤتى كلُّ خط حظه من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها من انتصاب وتسطيح وانكباب واستلقاء وتقويس.

الرابع **الإشباع**: وهو أن يُؤتى كلُّ خط حظه من صدر القلم الذي يتساوى به، فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ولا أغلظ، إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزائه بعض الحروف من الدقة باقية، مثل: الألف والراء.

الخامس **الإرسال**: وهو أن يرسِل يده بالقلم في كل شكل يجري بسرعة، من غير احتباس يضرسه ولا توقف يرعشه.

وأما حسن الوضع فيحتاج إلى تصحيح أربعة أشياء:

قال ابن مقلة: الأول **الترصيف**: وهو كل حرف متصل إلى حرف.

الثاني **التأليف**: وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغي ويحسن.

الثالث **التسطير**: وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى يصير سطرًا منتظم الوضع كالمسطر.

الرابع **التنصيل**: وهو مواقع المدات المستحسنة من الحروف المتصلة[٢٦].

يقول القلقشندي: «ثم انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلاثمائة إلى الوزير أبي علي محمد ابن مقلة، وعن ابن مقلة انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها»[٢٧].

لكن صاحب التحفة أورد رأيًا مخالفًا لذلك، فيقول: «قال بعضهم: وكثير يزعمون أن الوزير أبا علي ابن مقلة هو أول من ابتدع ذلك، وهذا غلطٌ، فقد وُجد من الكتب بخط الأولين فيما قبل المائتين ما ليس على صورة الكوفي، بل يتغير عنه إلى بعض هذه الأوضاع المستقرة الآن»[٢٨].

وقد اختصر ابن مقلة أنواع الخطوط العربية في ستة أقلام[٢٩]، وهي :الثلث، والنسخ، والتعليق، والريحان، والمحقق والرقاع، بينما نجد التوحيدي يجعلها اثني عشر خطًّا[٣٠].



نموذج توضيحي للأقلام الستة.

(٢٦) رسالة الخط والقلم: ١٢٩ـ١٣٠؛ وكذا: **صبح الأعشى**: ٣/ ١٤٣ـ١٤٤ بزيادات يسيرة.

(٢٧) **صبح الأعشى**: ٣/ ١٩.

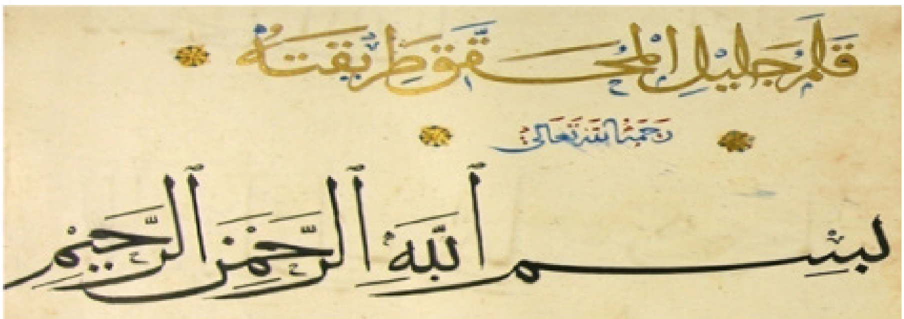
(٢٨) **تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب**: ٢٧ـ ٢٨.

(٢٩) الأقلام تعني الخطوط، فإذا قيل قلم الثلث فإن ذلك يعني خط الثلث. انظر: **روح الخط العربي**، كامل البابا: ٩٦.

(٣٠) **رسالة في علم الكتابة**: ٢٩ـ٣٠.

لكن الخط العربي في مسيره التطوري تنوعت أقلامه وأنواعه إلى عـدة أقلام وخطوط مختلفة، ذكر منها ابن الصائغ: «الطومار والجليل والمجموع والرياشي والثلثين والنصف والثلث والحولجي وخفيف الثلث واللؤلؤ والديباج، والتوقيع والرقاع والمحقق والغبار وهو أدقها. ومنها قلم السجلات والقصص. ومنها أيضًا: الثلث المعتاد والجليل وجليل الثلث وقلم المصاحف والمسلسل والمنثور والنسخ والمنثور وجليل المحقق والريحاني والرياسي والمرصع والحواشي والأشعار والمقترن واللؤلؤي وخفيف الثلث وفضاح النسخ والعهود. ومنها كذلك: ما هو محقَّق ومعلَّق ومخفَّف ومبسوط ومقوَّر وممزوج ومعماة. ومنها المفتاح والمنسوب والموزون والمدجن والمدمج والمدور والمرسل والمسلسل»(٣١).





(٣١) تحفة أولي الألباب: ٣٩.



ومن مظاهر الابتكار في الأقلام في ارتباطها بالشعر العمودي وبجمالية الخط العربي، تم تخصيص قلم خاص لكتابة الشعر، يوافق نمط القصيدة العمودية التي يتكرر نفس الحرف في قافيتها، مما يتطلب تصفيفًا محكمًا، فظهر القلم المدور الصغير، ثم القلم المؤنق.(٣٢)

لقد استطاع ابن مقلة أن يبسط رؤيته الفنية بنظرة تكاملية بجملة من الآليات المستنبَطة من فلسفته الخطية، التي تهدف إلى التنسيق والتنظيم وفق إنجازات إجرائية في منطلقاتها وفي طبيعتها وفي كل مراحلها. فقد راوحت بين النظرية والتطبيق، مما سهَّل عملية التطبيق، وجعل رؤيته ترقى في مدارج الابتكار، وتحقق إنجازًا فنيًّا كبيرًا.

(٣٢) المؤنق هو: قلم الأشعار، وهو مُركَّبٌ من قلم النَّسخ والمُحقَّق. انظر: **معجم مصطلحات الخط العربي**، د. عفيف البهنسي: ١٣٧.



نموذج بقلم ابن مقلة

وبذلك، أسهمت تجربة ابن مقلة الإبداعية وتصوراته وتصميماته الهندسية، في معالجة كل عمليات الخط من منظور هندسي مغاير، لامَسَ جوهر الخط، ضاربًا بسهمته الوافرة في التطور الجمالي للخط العربي، حيث كان للأقلام المحدَّثة وتنوعها فضل في إبداع أشكال من الحروف الجديدة، التي ولَّدت جماليات تجلَّى بريقها في مختلف النصوص، واستوطنت الجماليات التي اكتسبتها أشكال الحروف الجديدة من خلال رسمها كل التراث العربي الإسلامي في المشرق العربي، في نطاق ممارسة تطبيقية أظهرت إبداع الخط العربي بشكل منسجم ومتكامل.

المبحث الرابع
أبو بكر محمد بن يحي الصولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٧م)

كان أبو بكر الصولي رجلًا متعدد الاهتمامات، استطاع أن يمثل عصره أصدق تمثيل بكل ما فيه من تنوع واختلاف ثقافي بين الثقافة العربية والثقافات الوافدة عليها. وكان لهذه الثقافة أثر كبير على حياته، حيث تميز بنشاط علمي ضخم، يتضح من وفرة ما تركه من مؤلفات وتصانيف. ويصور ابن الأنباري ذلك بقوله: «كان عالمًا بفنون الآداب، حسن المعرفة بأخبار الملوك والخلفاء، حاذقًا بتأليف الكتب، وكان نديمًا لجماعة من الخلفاء، وجمع أشعارهم، ودوَّن أخبارهم». وله قرابة الأربعين كتابًا.

غير أن ما يهمنا من تآليفه موضع الدراسة هنا، وهو كتابه: أدب الكُتَّاب. فقد خصص الصولي في نطاق اهتمامه بجمالية الخط مقالة عن الخط والقلم[٣٣]؛ وهذا دليل على أن الكُتَّاب هم من أكثر الناس اهتمامًا بالبُعْد الجمالي للخط العربي.

وفي هذا الباب من كتابه تحدث عن الخط وما قيل في حُسنه من أشعار، وكذا ما قيل في قبحه، والوصية بإصلاح الخط وآلته، وما قيل في النقط والشكل والخط الدقيق، والحروف التي شَبَّهت الشعراء بها. ثم انتقل إلى الحديث عن القلم وما قيل فيه من نثر وشعر وطريقة بَرْيِه، وما قيل في الدواة والمداد والقرطاس وسائر أدوات الكتابة، إلى غير ذلك من الأمور.

وقد بدأ كلامه في هذا الباب بنقل أثر عن يحي بن خالد البرمكي قال: الخط صورة روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول[٣٤].

ثم قال: «ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأه، وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول، وربما اشتمل الخط القبيح على بلاغة وبيان وفوائد مستظرفة، فيرغب الناظر عن الفائدة التي هو محتاج إليها؛ لوحشة الخط وقبحه»[٣٥].

(٣٣) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٤١ـ٨٨.
(٣٤) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٤١.
(٣٥) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٤١.

أشار بقولته هذه إلى ما يفعله الخط من أثر في نفس القارئ من فاعلية الإقبال على القراءة أو الإدبار عنها طبقًا لجودة الخط أو قبحه.

ومن أقواله التي تنم عن رؤية وبصيرة: «ومن الأعجوبة في الخطوط كثرةُ اختلافها والأصول واحدة، كاختلاف شخوص الناس مع اجتماعهم في الصنعة؛ حتى إن خط الإنسان يصير كحليته ونعته في الدلالة عليه، واللزوم له، والإضافة إليه»(٣٦).

وهذا ما يسمى بالأسلوب الخطي والبصمة الخاصة للكاتب التي تميزه عن غيره، وهي كبصمة الأصابع التي لا تتكرر من شخص لغيره. حتى لو كتب خطاطان خطًّا واحدًا كالثلث مثلًا لاختلف خط كلٍّ منهما عن صاحبه، وهذا أمر يعرفه خبراء الخطوط.

ثم ساق أثرًا فيما يفعله مرأى الخط الجيد في النفس وإن لم يعرف الناظر إليه اللغة المكتوب بها: «قال محمد بن داود بن الجراح: كتب سليمان بن وهب كتابًا إلى ملك الروم أيام المعتمد، فقال: ما رأيت للعرب شيئًا أحسن من هذا الشكل، وما أحسدهم على شيء حسدي إياهم عليه». قال الصولي معلقًا: «والطاغية لا يقرأ الخط العربي، وإنما راقه باعتداله، وهندسته، وحسن موقعه، ومراتبه»(٣٧).

ثم انتقل إلى ذكر ما قيل في حسن الخط من الشعر المنظوم، مما لا يتسع المقام لاستيفاء ذكره هنا، غير أني آثرتُ ذكر ما قاله هو من شعر، إذ قال مادحًا الوزير أبا القاسم عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى:

أَفْدي أبـا العَبّاسِ مِنْ نَاظِم ... يَنْظِمُ دُرًّا في قَراطِيسِهِ
بِوابِلٍ مِن نَقْشِهِ واسِم ... يَطْلُعُ أنوارًا بها غَضَّةٌ
في أَرْضِ نِسْرِينَ لَهُ فاحِم ... بَنَفْسَجًا أو مُشْبَهًا لَوْنُه
رَقْمِ أجادَتْهُ يَدُ الرّاقِم ... كَالدُّرِّ في اللَّفْظِ وكَالوَشْي في الرْ

(٣٦) أدب الكُتّاب، للصولي: ٤٣.
(٣٧) أدب الكُتّاب، للصولي: ٤٥.

وأورد بعدها قول أحمد بن إسماعيل وهو يلامس لعبة الأبيض والأسود:

وإذا نَمْنَمَتْ بنانُكَ خَطّـًا مُعْرِبًـا عَنْ إصابَـةٍ وَسَـدادِ
عَجِبَ النّاسُ مِنْ بَياضِ مَعـانٍ تُـجْتَنى مِنْ سَوادِ ذاك المِدادِ(٣٨)

وكان مما ذكره قوله: «وسُئل بعض الكُتّاب عن الخط؛ متى يستحق أن يوصف بالجودة؟ فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، واستقامت سطوره، وضاهى صعوده حدوره، وتفتَّحت عيونه، ولم تشبه راءَه نونُه، وأشرق قرطاسه، وأظلمت أنفاسه، ولم تختلف أجناسه، **وأسرع إلى العيون تصوره،** وإلى العقول ثمره، وقُدِّرت فصوله، واندمجت وصوله، وتناسب رقيقه وجليله، وخرج عن نمط الورّاقين، وبَعُد عن تصنُّع المحرِّرين، وقام لكاتبه مقام النسبة والحلية؛ كان حينئذ كما قلت في وصف خط:

إذا ما تَحـلَّـلَ قِرْطـاسُـه وَسـاوَمَـهُ القَلَـمُ الأرْقَـشُ
تَضَمَّـنَ مِـنْ خَـطِّـه حُـلَّـةً كَنَقْـشِ الدَّنانيـرِ بل أَنْقَـشُ
حُـروفٌ تُـعيـدُ لِعَيْـنِ الكَلِـيلِ نَشاطًـا وَيَقْرَأَهَـا الأخْفَـشُ(٣٩).

وهو بقوله هذا يشير إلى ما يخلفه الخط الحسن من أثر في العين الكليلة للقارئ، واستعادة نشاطها.



نموذج تشكيلي حروفي على شكل طائر بخط الثُّلث المركَّب، ونلاحظ الكتابة أعلى اللوحة بخط النَّسخ المجوَّد.

(٣٨) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٤٧ـ٤٨.
(٣٩) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٥٠.

وفي نطاق النظرات النقدية للصولي التي تُعنى بجمالية الخط فقد استقبح أن يقع في الخط نوعان مختلفان، ويقوم في النفس من ذلك ما يقوم فيها من الشعر إذا اختلفت أعاريضه، وخُلِط فصيحه بمُولَّده. فيصفون الخط بالجودة إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، واستقامت سطوره. وقالوا: رداءة الخط إحدى الزمانتين، كما أن حُسْنه إحدى البلاغتين(٤٠). ونقل أثرًا لبعضهم: القلم الرديء كالولد العاق(٤١)؛ إذ إن القلم الرديء سيكتب قَطْعًا خَطًّا رديئًا بدوره.

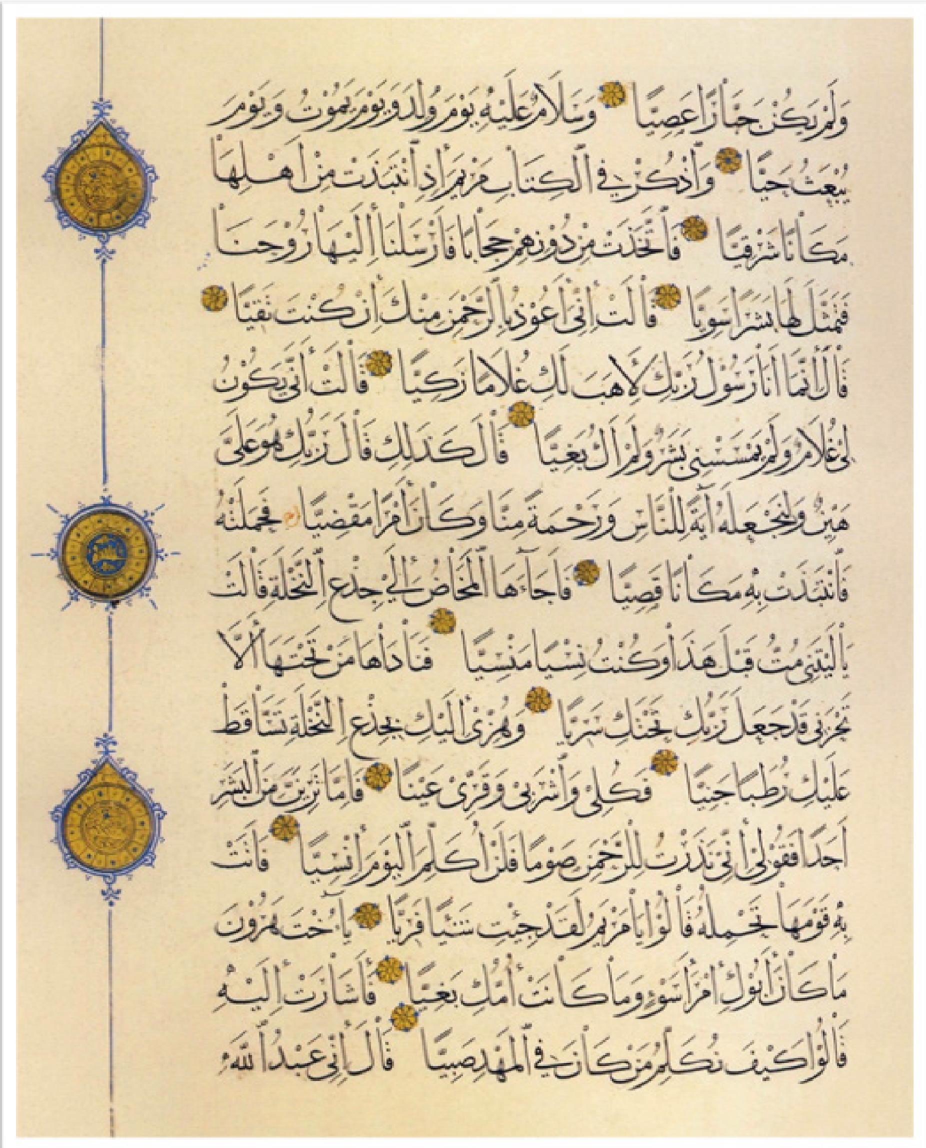
لقد أسهمت اهتمامات أبو بكر الصولي في إخصاب الأرضية للخط العربي ليقطع أطوارًا متعددة، قادته لاحقًا نحو مرحلة الجودة والجمال، كما أسهمت آراؤه في رسم معالم الخط الجيد، وفق الذوق والمعيار الذي اعتمده، ووفق الأهداف الجمالية المتوخاة حسب مقدرته في التمييز في الخط، وحسب المعرفة النقدية، والمرجعية الفنية التي تضبط العلاقة بين الناقد والمادة الخطية.

لكنها في مجملها قد شكَّلت تحولًا في الرؤية للخط، وصناعة أفكار نقدية تفتح آفاقًا نحو التقويم الصحيح، وتُظهِر في الآنِ نفسه معالم الجمال للخط، وتقدم نظرة عن الشكل الجيد، وتكشف لنا رؤى جديدة قياسًا بالوضع السابق للخط؛ وذلك في نطاق تقويمي تحكمه الرؤية البصرية في استحسانه لهذا واستقباحه لذاك، وغذته الآراء والمعايير والأوصاف التي يجب أن يكون عليها الخط والقلم.

---

(٤٠) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٥٢.

(٤١) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٧٤.


ولم يكن جبارا عصيا ۞ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم
يبعث حيا ۞ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها
مكانا شرقيا ۞ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا
فتمثل لها بشرا سويا ۞ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ۞
قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ۞ قالت أنى يكون
لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ۞ قال كذلك قال ربك هو علي
هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ۞ فحملته
فانتبذت به مكانا قصيا ۞ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت
يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ۞ فناداها من تحتها ألا
تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ۞ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط
عليك رطبا جنيا ۞ فكلي واشربي وقري عينا ۞ فإما ترين من البشر
أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ۞ فأتت
به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ۞ يا أخت هرون
ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ۞ فأشارت إليه
قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ۞ قال إني عبد الله

لوحة من مصحف بالخط المحقَّق من سورة مريم.

المبحث الخامس
أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب
(من أهل القرن الرابع الهجري)

ألَّف أبو الحسين بن وهب الكاتب كتابه «البرهان في وجوه البيان»[٤٢] بعد سنة ٣٣٥هـ. وأثار هذا الكتاب ضجة كبيرة في العصر الحديث من حيث توثيق نسبته الصحيحة، ونشره بعنوان مغاير لاسمه الصحيح: «نقد النثر» لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)[٤٣].

يقول ابن وهب: البيان على أربعة أوجه؛ فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تَبِن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللُّب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب وهو الذي يبلغ مَن بَعُدَ وغاب. وقد أدار على هذه القسمة الرباعية كتابه؛ فسمَّى البيان الأول: الاعتبار، والبيان الثاني: الاعتقاد، والبيان الثالث: العبارة، والبيان الرابع: الكتاب[٤٤]. وهو ما يقترب من موضوع هذه الدراسة.

وقد قسَّم ابن وهب الكُتّاب إلى خمسة أصناف: كاتب خطٍّ، وكاتب لفظٍ، وكاتب عَقْدٍ، وكاتب حُكْمٍ، وكاتب تدبيرٍ[٤٥]، ثم شرع في بيان ما لكُلٍّ منهم من مذهب في الكتابة، يخالف مذهب غيره طوال هذا الباب. يقول ابن وهب: أمَّا كاتب الخط فإنه إمَّا أن يكون ورَّاقًا أو مُحرِّرًا، وهما موصوفان بنقل الألفاظ وتصورها، ويحتاجان إلى أن يجمعا مع حلاوة الخط وقوته، سواد المِداد وجودته، وتفقُّد القلم وإصلاح قَطَّتِه، إلى جودة التقدير، والعلم بمواقع الفصول[٤٦].

(٤٢) كان أول من أثبت هذه النسبة الصحيحة هو: د. أحمد مطلوب، وصدرت نشرته الأولى للكتاب في العراق ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م، ثم حققه مرة أخرى بمصر د. حفني محمد شرف، مكتبة الشباب بالمنيرة، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(٤٣) انظر تفاصيل تلك المسألة في مقدمة تحقيق د. أحمد مطلوب للكتاب: ١١ـ٤٠.

(٤٤) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٦٠.

(٤٥) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٣١٥.

(٤٦) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٣١٦.

ثم ذكر أهمية معرفة الخطّاط أو الورّاق لعلم النحو وخاصة مسائل المقصور والممدود، والمؤنث والمُذكر، ومسائل الهجاء (أحكام كتابة الهمزة، والزيادة والحذف، والموصول والمقطوع...)، الذي يَسْلم معه من الوقوع في اللحن والخطأ.

ثم قال بعد ذلك: يحتاج المُحرِّر إلى إطالة من قلمه؛ فإنه أصفى لكتابته، وأن يعفي قلمه فلا يلح على شحمه؛ لأن ذلك أقوى لخطّه، وسائر ما يكتب بالمداد...[وأمّا] الوراق فيحتاج إلى تحريف قَطّة قلمه، والمُحرِّر أن يجعلها بين التحريف والاستواء؛ فإن ذلك أحسن لخطّه. وكلّما كان اعتماد الكاتب على سن قلمه الأيمن، كان أقوى لخطّه وأبهى بخطّه(٤٧).

يقول ابن وهب: فأما جودة التدبير، فأن يكون ما يَفْضُله من البياض أو القرطاس أو الكاغد أو الورق عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله على نِسَبٍ متساوية. وأن تكون رءوس السطور وأواخرها متساوية؛ فإنه متى خرج بعضها عن بعض قَبُحت وفسدت. وأن يكون تباعد ما بين السُّطور على قِسْمَةٍ واحدة إلا أن يأتي فصل فيُزاد في ذلك(٤٨).

نلاحظ أن ابن وهب في هذه الفقرة التي مرَّت تنبَّه إلى ما يسمى في الطباعة اليوم بـ«فن إخراج الصفحة ومحاذاة السطور». وهذا فيه من الجمالية والانتظام للصفحة ما يساعد على راحة العين أثناء عملية القراءة.

والفصل إنّما يقع بعد تمام الكلام الذي يُبتَدأ به واستئناف كلام غيره، وسَعَة الفصول وضيقها على مقدار تناسب الكلام. فإن كان القول المُستأنف مُشاكِلًا للقول الأول أو مُتعلِّقًا بمعنى منه جُعِل الفصل صغيرًا، وإن كان مُبايِنًا له بالكُلِّيَّة جُعِل أكبر من ذلك، وأمّا الفصل قبل تمام القول فهو من أعيب العيوب على الكاتب والورّاق جميعًا، وترك الفصل عند تمام الكلام عيبٌ أيضًا إلا أنه دون الأول(٤٩).

---

(٤٧) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٣١٦.
(٤٨) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٣١٧.
(٤٩) انظر: **البرهان في وجوه البيان**: ٣١٧.

المبحث السادس
أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)

من الآراء التي أسهمت في التحول من بلاغة المكتوب إلى الجماليات البصرية، آراء أبي حيان التوحيدي عليّ بن محمد بن العباس البغدادي؛ فقد عمَّقت من إدراكنا لجماليات الخط، والوعي بمقاصده الجمالية.

فهو واحد من الذين صرفوا عنايتهم للمقصد الجمالي للخط العربي، فألَّف في ذلك رسالته الشهيرة في علم الكتابة، وذكر فيها قواعد الخط العربي، كما وصف خطوط بعض معاصريه، وعدَّد أنواع الخطوط العربية وأقسامها المستخدَمة في عصره. وجاءت الرسالة متضمِّنةً كل ما يتصل بهذا الفن من مقولات ونصائح، وكل ما يتعلق بأسرار الخط العربي من أدوات وطرائق للكتابة. ونظر فيها إلى الشكل الذي يجب أن يكون عليه الخط من حسن وجمال وتقنية. وقد رأى أنه فن عربي وإسلامي جميل له مستلزماته الفنية، وله مرجعياته وضوابطه. وقد كان لأبي حيان إلمام بمقاييس الحروف ووضعياتها -نظرًا لمعاناته حرفة النِّساخة- ومنها استقى نظرته الجمالية.

أورد التوحيدي في رسالته أقوال قدماء الفلاسفة والكُتّاب عن فضائل الخط وما يحمله من جمال مجرد؛ فقد تضافر فن «الرقش العربي»(٥٠) (الزخرفة والتوريق) مع الخط في تحديد شخصية الفن العربي والإسلامي. وقد أورد التوحيدي في رسالته مقولة هاشم بن سالم: قد تكون صورة المداد في الأبصار سوداء، ولكنها في البصائر بيضاء(٥١). أي إن رؤية الفن تتم بالبصيرة المدرِكة وليس بمطلق البصر(٥٢).

يقول أبو حيان التوحيدي: «سمعت ابن المشرف البغدادي يقول: رأيت خط أحمد بن أبي خالد كاتب المأمون، وكان ملك الروم يخرجه في يوم عيده في جملة زينته، ويعرضه على العيـون

(٥٠) الرقش هو الخط الحسن، والرقش والترقيش: الكتابة والتنقيط، قال المرقش:
الدّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَما   رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ.
انظر: **لسان العرب**، مادة (ر ق ش).

(٥١) **رسالة في علم الكتابة**، للتوحيدي: ٤٠.

(٥٢) انظر: **الخط العربي والرقش: رؤية فلسفية**، د. بركات محمد مراد: ٧٠، **مجلة الذخائر**، السنة (٣)، العدد (٩)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

فقال: وكانت ألفاته ولاماته على غاية الانتصاب والتقوُّم، ولم أجد في جميع حروف خطه عيبًا إلا في الواوات الموصولة، والياءات المفصولة. قال ورأيت خط إبراهيم بن العباس، وكان ضعيفًا جدًّا، ولكنه شديد الحلاوة، قهَّارًا للعيون. قال: ورأيت خط ذي الرياستين وكان نهاية، لكنه كان لا يكتب بالقلم الأوسط ولا الدقيق، وليس لأهل المشرق ولا لأهل المغرب حد موصوف»(٥٣).



ويُسْتَنْتَج مما سبق أن أبا حيان التوحيدي كان ينتقد أشياء ويستحسن أخرى، ويُصدر أحكامًا نقدية تخص جمالية الخط، فضلًا عن العناية بالذوق وبالبُعْد الجمالي. ولم يكتفِ بهذا فحسب، وإنما وضع شروطًا للخط الجميل المجوَّد قائلًا: «والكاتب يحتاج إلى سبعة معانٍ: الخط المجرد بالتحقيق، والمُحلَّى بالتحديق، والمُجمَّل بالتحويق، والمُزيَّن بالتخريق، والمُحسَّن بالتشقيق، والمُجَاد بالتدقيق، والمُميَّز بالتفريق»(٥٤).

ثم شرع في بيان هذه المعاني فقال:

التحقيق هو: إبانة الحروف منثورها ومنظومها، مُفصَّلِها وموصُولِها، بمدَّاتها وقصراتها، وتفريجاتها وتعريجاتها. حتى تراها كأنها تبتسم عن ثغور مُفلَّجة أو تضحك عن رياض مُدبَّجة.

(٥٣) رسالة في علم الكتابة، للتوحيدي: ٣٦.
(٥٤) رسالة في علم الكتابة: ٣١.

والتحديق هو: إقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبييض أوساطها، محفوظة عليها من تحتها وفوقها، وأطرافها كانت مخلوطة بغيرها أو بارزة عنها حتى تكون كالأحداق المُفتَّحة.

والتحويق هو: إدارة الواوات والفاءات والقافات وما أشبهها مُصدّرة ومتوسطة ومذنَّبة بما يكسبها حلاوة، ويزيدها طلاوة.

والتخريق هو: تفتيح وجوه الهاء والعين والغين وما أشبهها كيفما وقعت أفرادًا وأزواجًا، بما يدل الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها.

والتعريق هو: إبراز النون والياء وما أشبهها، مما يقع في أعجاز الكلمة، مثل: من وعن وفي ومتى وإلى وعلى، بما يكون كالمنسوج على منوال واحد.

والتشقيق هو: تكنّف الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف، وما أشبه ذلك مما يحفظ عليها التناسب والتساوي؛ فإن الشكل بهما يصح ومعهما يحلو. فالخط كما قيل: هندسة روحانية بآلة جسمانية.

والتنسيق هو: تعميم الحروف كلها مفصولها وموصولها بالتصفية، وحياطتها من التفاوت في التأدية، ونفض العناية عليها بالتسوية.

والتوفيق هو: حفظ الاستقامة في السطور من أوائلها وأواسطها وأواخرها وأسافلها وأعاليها بما يفيدها وفاقًا لا خلافًا.

والتدقيق هو: تحديد أذناب الحروف بإرسال اليد، واعتمال سن القلم وإدارته مرة بصدره ومرة بسنيه، ومرة بالاتكاء ومرة بالإرخاء، بما يضيف إليها بهجة ونورًا، ورونقًا وشذورًا.

والتفريق هو: حفظ الحروف من مزاحمة بعضها لبعض، وملابسة أول منها لآخرها؛ ليكون كلُّ حرف منها مفارقًا لصاحبه بالبدن بالشكل الأحسن(٥٥).

(٥٥) **رسالة في علم الكتابة**، للتوحيدي: ٣١-٣٣.



نموذج لخط الثُّلث المُجوَّد من أواخر سورة الحشر.

لكن بعض مَن شرح هذه المعاني جانَبَه الصواب؛ لعدم درايته بالخط وأساليبه، فشرحها بطريقة آلية ديناميكية؛ لأنه يعد الخط صنعة وليس أثرًا وفنًّا. علمًا بأن هذه المعاني محددة جدًّا ودقيقة للغاية، وترسم طريقًا صريحًا وواضحًا لجمالية الخط. فهي تعبر عن رأي أبي حيان وتوجهه الواضح نحو فصاحة الخط، أو جمال الكتابة، والدليل الخطي العربي بخصوصية التجربة الانتقالية في نطاق مفارقة كبيرة، حيث تتغير مهارات التوصيل الشفهي إلى مهارات يدوية بصرية. وبذلك يكون بياض الورق أحد العناصر المساهمة في النص، كوسيط يفتح سطحه ليتحطم بسلطة الظهور الخطي الفصيح المدجج بالقيم والتشكيلات الجمالية.

وقياسًا على شروط الخط الجميل التي وضعها أبو حيان التوحيدي، فقد أورد ابن الصائغ في التحفة: "سأل الصوفي بعض الكتّاب عن الخط متى يستحق أن يوصف بالجودة فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولامه، واستقامت سطوره، وضاهى صعوده حدوره، وتفتحت عيونه، ولم تشتبه راؤه ونونه، وأشرق قرطاسه، وأظلمت أنفاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع إلى العيون تصوره، وإلى القلوب تشمره، وقدرت فصوله، وأدمجت أصوله، ومناسبة دقيقه وجليله، وتساوت أطنابه، واستدارت أهدابه، وصغرت نواجذه، وانفتحت محاجره، وخرج عن نمط الوراقين، وبَعُد عن تصنع المحررين، وخُيِّل إليك أنه متحرك وهو ساكن الأطناب الألفات والأهداب من فصول الراء والزاي والنواجذ الباء والتاء.."(٥٦).

فالخط العربي بالمعاني التي أوردها أبو حيان التوحيدي وكذا ابن الصائغ، يفرض نفسه عنصرًا للتواصل يجعل عين القارئ متفاعلة؛ لأن المقاصد الخطية تعتمد على مخاطبة العين. وبذلك تتغير المقاييس البلاغية قياسًا بالنظر إلى المعاينة البصرية التي تعتمد الواقع المرئي للحروف وللكلمات والعبارات. وتعتمد أيضًا الأشكال الخطية عن طريق تفتيت الحروف بتناظر دقيق، واستخدامها وتطويعها حسب المراد والغاية المطلوبة، عملًا بالشروط الجمالية المحددة، وقياسًا بالسمة المركبة للخط العربي التي تخول إثبات الجمال حتى يحتل مكانة في العين ثم القلب بالتبعية.

والخط حسب المعاني الواردة في النصَّيْن يمتلك إمكانيات هائلة، ويمتلك الطواعية والمرونة والانسيابية، ويمتلك كل مقومات الجمال، مما يفتح أمام المبدع آفاق الخيال الغني الخصب لتشكيل المكان باعتماد الإطالة والاستقامة والتفتيح والتدوير.

لقد شكل التنظير الجمالي للخط عند أبي حيان التوحيدي حلقة مهمة ربطت العلاقة مباشرة بين الجمال والخط، بإكساب الخط جماليات غير مسبوقة؛ لأنه استخدم منهجًا جماليًّا يقود إلى الإبداع بطرق مختلفة، وأبعد السمة المعتادة في الحرف، وخَلَّص الخطاط من الأشكال والأنماط الجاهزة، وبيَّن الإمكانات الهائلة التي تُنتج الجماليات، وتفتح آفاق الخيال والحرية أمام المبدع للخط، وإنتاج معرفة فنية وجمالية بأدوات وأفكار وتصورات جديدة، حيث فاقت الأقلام مائتين وخمسين قلمًا، تألق خلالها المجرد والإسماعيلي، والمغربي، والمكي، والأندلسي، والشامي، والثلثي،

(٥٦) تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب: ٣٧.

والعراقي، والعباسي، والبغدادي، والمشعب، والريحاني، والمصري والنسخي. وخُصِّص كلٌّ منها لما يناسبه.

وانفتح الخط بذلك على الفن؛ حيث إن لكل صنف معرفة بآلياته وطقوسه الجمالية التي تجد لها تجليات في التصور النقدي لأبي حيان التوحيدي. وقد لاقت اهتمامًا كبيرًا، حيث اكتسبت مع الخطاطين أهمية في الحركة الخطية الجمالية، كان لها أثر بالغ في توجيه العمليات الإبداعية نحو التجديد والابتكار، وهو ما أفرز فيما بعد نصوصًا مغايرة(٥٧).

(٥٧) وللمزيد انظر: **موسيقى الخط العربي عند أبي حيان التوحيدي**، محمد بغدادي، في تقديم كتاب: رسالة في علم الكتابة، لأبي حيان التوحيدي: ٤ـ١١؛ وكذا: **سيرة التوحيدي وآثاره**، عبد الرزاق محيي الدين، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، سنة ١٩٤٨م.

المبحث السابع
علي بن خلف الكاتب (ت بعد ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م)

لا شك أن الكتابة العربية من أشرف الكتابات؛ لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها. ولذلك، فإن صناعة الكتابة من أنبل الصناعات قدرًا، وأعظمها خطرًا، وأحسنها على أهلها أثرًا.

وفي ذلك السياق ألَّف علي بن خلف كتابه «مواد البيان»، وهو أثر نفيس في صناعة الكتابة، جمع فيه المؤلف جميع الآداب الخاصة بالكتابة والعلوم التي يجب أن يعرفها الكاتب، لتعينه على عمله في ديوان الإنشاء.

أما المؤلف فهو أبو الحسن علي بن خلف بن علي بن عبد الوهاب الكاتب، وهو من كُتّاب الفاطميين بالقاهرة، وله غير هذا الكتاب: آلة الكُتّاب، وكتاب الخراج.

اعتمد المؤلف في كتابه هذا على كتب البلاغة والبيان والبديع وصناعة الكتابة، وكان ممن نقل عنهم: ابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبي علي الحاتمي، وأبي الحسن الرماني، وأبي علي النَّحْوِي.

وترجع أهمية هذا الكتاب في كونه من الكتب المتقدمة في صناعة الكتابة. ولهذا كان من أهم مصادر القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى»، واعتمد عليه كثيرًا في حديثه عن مذاهب كُتّاب الدولة الفاطمية.

قسَّم المؤلف كتابه إلى عشرة أبواب، وهي:

الأول: في حد صناعة الكتابة وفضيلتها ومنفعتها وغرضها وقسمتها ورسم الكتاب وعلة واضعه، **الثاني**: في البلاغة وأقسامها الأصلية، **الثالث**: في أقسام البلاغة الفرعية، **الرابع**: في صناعة البديع وأبوابها، **الخامس**: في ما يُخْرِج الكلام عن أحكام البلاغة، **السادس**: في أن الطبع هو قوام الصناعة ونظامها، واحتذاء مذاهب السابقين بكمالها وتمامها، **السابع**: في أوضاع الخط وقوانينه، وترتيب الصدور والأدعية والعنوانات والتاريخ والختم، **الثامن**: في رسوم المكاتبات السلطانية، **التاسع**: في آداب الصناعة، **العاشر**: في آداب السياسة.

وما يعنينا هنا في هذه الدراسة ما ذكره عن أوضاع الخط وأحكامه والطريق إلى تحسينه وترتيب الحروف في الباب السابع[٥٨].

ذكر المؤلف أول الباب أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها. ولهذا الاشتراك وقع التناسب بينهما في أحوال كثيرة، فكلاهما يعبِّر عن المعاني. قال ابن خلف: «وذلك أن الخط واللفظ يعبّران عن المعاني، إلا أن اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن، وهو وإن كان ساكنًا يفعل فعل المتحرك بإيصاله ما يتضمنه إلى الأفهام، وهو مستقر في حيزه ومكانه. واللفظ فيه العذب والرشيق السائغ في الأسماع، والخط فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور. واللفظ فيه الجزل الفصيح... ومنه المبتذل السخيف... والخط فيه المُحرَّر المُحقَّق الذي تُكتَب به الكتب السلطانية والأمور المهمة، وفيه المُطلَق المُرسَل الذي يتكاتب فيه الناس ويستعملونه فيما بينهم»[٥٩].

فقسم كما نرى الخط قسمين: الأول الخط المُحرَّر المُحقَّق، والآخر الخط المُطلَق المُرسَل. و**المحقق** خط من خطوط الثلث، من أحسن الخطوط وأصعبها، وهو كالمؤنق مع اختلاف في حروف: الراء والواو والنون والياء. ويختلف عن الثلث في طول ألفاته وبعض اليبوسة. أما **المطلق** فهو الخط الذي تداخلت حروفه واتصلت. وأما **المرسل** فهو الخط الذي لا يتقيد بقاعدة، وغير مركب[٦٠].

ثم قال في موضع آخر مُعرِّفًا كلًّا منهما: «فأما المحقق فهو ما صحّت أشكال حروفه على اعتبارها مفردة... وأما المطلق فهو الذي تداخلت حروفه، واتصل بعضها ببعض... وهو أرشق وأحسن منظرًا ما دام مُجْملًا، فإذا فُصِّلت حروفه ووقعت المقايسة بينهما وبين حروف المحقق وُجِد بينهما تفاضل كثير»[٦١].

(٥٨) مواد البيان، لعلي بن خلف الكاتب، تحقيق د. حاتم الضامن: ٣١٦-٣٢٦.

(٥٩) مواد البيان، لعلي بن خلف: ٣١٦.

(٦٠) انظر: معجم مصطلحات الخط العربي، د.عفيف البهنسي: ١٣٨، ١٣٩، ١٤١.

(٦١) مواد البيان: ٣١٩.



سورة الفاتحة بالخط المحقق، ونلاحظ الكتابة بالخط الريحاني (وسط اللوحة).

ثم قال: «والخط إذا كان جيدًا حسنًا بعث الإنسان على قراءة ما أُودِع فيه وإن كان قليل الفائدة، وإذا كان ركيكًا قبيحًا صرفه عن تأمل ما تضمَّنه وإن كان جليل الفائدة»[٦٢].

وهو بذلك قد تنبَّه إلى تأثير الخط في نفس القارئ من فاعلية الإقبال على القراءة أو الإدبار عنها؛ وذلك اعتمادًا على جودة الخط أو رداءته كما سبق أن أشار إلى ذلك أبو بكر الصولي من قبل في قوله: «ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مرذول

(٦٢) **مواد البيان**: ٣١٦-٣١٧.

ومعنى مجهول، وربما اشتمل الخط القبيح على بلاغة وبيان وفوائد مستظرفة، فيرغب الناظر عن الفائدة التي هو محتاج إليها، لوحشة الخط وقبحه»[٦٣].

ثم ذكر أنهم أوقعوا اسم اللسان على القلم، لكونه مُبيِّنًا عن المعاني، ثم نقل أقوالهم المأثورة في ذلك: «فقال بعضهم: القلم أحد اللسانين، وقال آخر: القلم أنطق اللسانين، وقالوا: الأقلام ألسنة الأفهام، وقالوا: بلاغة اللسان وبلاغة القلم، وفلان بليغ اللسان وفلان بليغ القلم»[٦٤].



---

(٦٣) **أدب الكُتَّاب**، للصولي: ٤٢.

(٦٤) **مواد البيان**: ٣١٧.

أبيات من منظومة ابن البواب الرائية مكتوبة بخط الثُّلُث، والتي أولها:

يا مَنْ يَرُومُ إجادَةَ التَّحْريرِ   وَيُريدُ حُسْنَ الخَطِّ والتَّصْويرِ

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الطريق إلى تحسين الخط، فذكر أنه إنما يكون بثلاثة أشياء: تصحيح أشكال الحروف، وترتيبها، وتصحيح الهجاء.

قال: «فأما تشكيل الحروف فهو الأصل في أدب الخط؛ لأن الخط إنما يسمى جيدًا إذا حَسُنَت أشكال حروفه، ورَدِيًّا إذا قَبُحت»[٦٥].



البسملة بخط الثُّلُث كتبها: حامد الآمدي، مؤرخة (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م).

ثم شبَّه حُسْنَ صور حروف الخط الواصلة إلى العين بعذوبة مخارج الألفاظ في السمع.

وفي ذكره لترتيب الحروف قال: «إنه ينقسم إلى ستة أقسام:

أولها: تأسيس الخط على الوضع المُصطَلح عليه... وهما: المحقق والمطلق.

(٦٥) **مواد البيان**: ٣١٨.

وثانيها: وضع كل قسم من قسمي الخط في موضعه... لأن استعمال أحدهما موضع الآخر خارج عن الأمر المعتاد.

وثالثها: لزوم الطريقة في كل واحد من الخطين، وألا يخلط حروف منهما بحروف الآخر.

ورابعها: تمييز الفصول المشتمل كل فصل منها على نوع من الكلام عمَّا تقدَّمه وما يتلوه؛ ليُعرَف مبادئ الكلام ومقاطعه، فإن الكلام ينقسم فصولًا طوالًا وقصارًا... تمييزًا يُؤمَن معه من التخليط، فإن ترتيب الخط يفيد ما يفيده ترتيب اللفظ، وذاك أن اللفظ إذا كان مرتبًا يخلِّص بعض المعاني من بعض، وإذا كان مخلَّطًا أُشكلت معانيه، وتعذّر على سامعه إدراك محصوله. وكذلك الخط فإنه إذا كان مميز الفصول وصل معنى كل فصل منه إلى النفس على صورته، وإذا كان متصلًا دعا إلى مراجعة تأمله راجعًا إلى الفكر في تخليص أغراضه.

ثم قال: «وينبغي ألا يذكر الجملة في آخر السطر والتفصيل في أول الذي يتلوه؛ فإنه تلبيس لاتصال الكلام. ولا أن يجعل في أول السطر بياضًا فيَقْبُح بخروجه عن نسب السطور، ولا أن يُفسِح بين السطر وما بعده فسحًا زائدًا عمَّا بين كل سطرين؛ لقبحه أيضًا، ولكن يراعي ذلك من أول السطر مقدِّرًا الخط بالجمع والمشق حتى يتخلص من هذا العيب»(٦٦).

قلت: إذا تأملت عبارة المؤلف السابقة وجدت أنه تنبّه إلى ما يسمى في علم المخطوطات اليوم: فن إخراج الصفحة ومحاذاة السطور. أما قوله: «يراعي ذلك من أول السطر مقدِّرًا الخط بالجمع والمشق حتى يتخلص من هذا العيب»، فمعناه أن الناسخ يقدر عدد الكلمات في السطر الواحد، فإن وجدها قلت عن استيفاء مساحة السطر استعمل المشق. وهو مد مساحة حروف بعض الكلمات، والعكس إن وجد الكلمات تزيد عن مساحة السطر جمع بين حروف بعض الكلمات. كأن يكتب الكلمة الواحدة على مستويين، أو يستخدم التركيب.

---

(٦٦) مواد البيان: ٣١٩ـ٣٢٠.


بسم الله الرحمن الرحيم وبه الثقة
قال الإمام العالم العلامة أفضل المتأخرين مجد العرب
وقبلة الأدب جمال الدين كمال الإسلام أبو عمرو
عثمن المالكي المعروف بابن الحاجب رحمه الله عليه
الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد وهي اسم وفعل وحرف
لأنها إما أن تدل على معنى في نفسه أو لا الثاني الحرف
والأول إما أن يقترن بأحد الأزمنة الثلثة أو لا الثاني
الاسم وقد علم بذلك حد كل واحد منها الكلام
ما تضمن كلمتين بالإسناد ولا يتأتى ذلك إلا في
اسمين أو في فعل واسم الاسم ما دل على معنى في
نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلثة ومن خواصه

نسخة خزائنية نفيسة من كافية ابن الحاجب.

قال المؤلف: «وخامسها: حسن التدبير في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها؛ لأن السطور في المنظر كالفصول. فإذا قُطِع السطر على شيء يتعلق بما بعده كان قبيحًا، ككتب بعض حروف الكلمة في آخر السطر وبعضها أول السطر الثاني... وأكثر ما يوجد ذلك في مصاحف العامة وخطوط الوراقين.

وسادسها: ترتيب المَدَّات التي تقع بين حروف الكلمة الواحدة... وهذه المدات تُستَعمل لأمرين؛ أحدهما: أنها تُحسِّن الخط وتُفخِّمه..، والآخر: أنها ربما وقعت في الحرف لتُتَمِّم السطر إذا فضَل منه ما لا يتسع لحرف آخر»(٦٧).

ثم ذكر أخيرًا بعضًا مما يزيد في حسن الخط قائلًا: «وأما ما يزيد في حسن الخط، فالمقارنة بين حروفه، والمباعدة بين سطوره مع صحتها واستقامتها؛ فإن يُسْر الميل الداخل عليها يُقبِّح الخط ويَكسِف نوره ولا سيما خطوط النُّسَّاخ، إلا أن الكُتَّاب قد وقع بينهم اصطلاح حادث على رفع أواخر السطور عن أوائلها. والرسم الآخر الأفضل أن تعتدل سطور الخط وتتناسقَ تناسق أغراس النخل والشجر والبناء»(٦٨).

قلت: والمقارنة بين الحروف يُفهم منها أحد أمرين؛ الأول: أن تكون الحروف مقترنة ببعضها في محاذاة واحدة وقياس واحد أعالي الحروف وأسافلها، والآخر: أنك إذا نظرت إلى الحرف الواحد في أي موضع من الكلام وجدته على هيئة واحدة. فالكاف المنتهية مثلًا إذا تكررت في أي موضع من الصفحة فإن شكلها وقياسها يكون واحدًا في النظر.

هذا مجمل لما ذكره عالمنا علي بن خلف الكاتب -رحمه الله- في كتابه القيِّم: مواد البيان.

(٦٧) مواد البيان:٣٢١-٣٢٢.
(٦٨) مواد البيان: ٣٢٦.

خاتمة

وفي الختام يتبين لنا أن الكتابة في أول أمرها كانت خالية من البعد الجمالي؛ حيث كانت مهمتها وظيفية نفعية لا غير، وهي حفظ العلم. فلما تطور الخط على يد مبدعي الخط الأوائل أمثال ابن مقلة ومَن حذا حذوه بعدُ، تحول الاهتمام إلى المجال البصري الذي كان مهمَلًا إلى حدٍّ ليس بالقليل، إذا استثنيا كتابة المصحف الشريف؛ ففي صورته الأولى كانت هناك محاذاة في السطور، وكان هناك تنظيم في إخراج الصفحة، وتأنق في كتابة أسماء السور بخط مخالف، إلى غير ذلك من جماليات أولية تتعلق بكتابة المصحف الشريف.

إن اهتمام العربي الأول بحفظ ورواية الشعر الجاهلي، لا يقل عن اهتمامه بالكتابة والتدوين والعناية بالخط العربي، والحث على تجويده وتحسينه. وهذا نابع من الصلة الوثيقة للخط بما يُكتَب، وهو الذي ارتفع إلى مستوى الكلمة الشفهية؛ لأن الكلمة نفسها موزونة في العربية، ومشتقاتها تجري على صيغ محددة الأوزان، والمرسومة كأنها قوالب البناء. فكان ضروريًّا بذل الجهد لإبداء أقصى ما يمكن من الجماليات للخط العربي، وإبداء مختلف التصورات والاجتهادات. وبإزاء ذلك، فقد عمل العديد من العلماء على توجيه وترشيد مسيرة الخط العربي وتجويده وضبطه وتزيينه، ودفعه نحو إرساء هذه الجماليات المبتغاة.

إن العلاقة بين الحرف العربي والمادة المكتوبة اتخذت مسارات متعددة: منها ما هو وظيفي يتعلق بالاستفادة من وظيفة الحرف في عملية التسجيل والتدوين لأغراض الحفظ، أو فني يتعلق بالاستفادة من خصائصه الجمالية، ومنها ما هو تقني كتوظيف أشكال الحرف وصوره في تشكيل الوحدات النَّصية اعتبارًا لأولوية الشكل وتأثيره في البصر، حيث يتعلق الفعل البصري للحروف بالمظهر الجمالي لها.

إن أهميةَ جماليات الخط العربي كامنةٌ في كونها تعمل على خَلق النظام الجمالي، الذي يغدو موضوعًا بدلالات أخرى على مستويات متعددة، بأداء تصوري في الذهن قبل البدء بالخط على الورق. وهذا له دلالته في المنظومة الخطية عند علمائنا القدماء، والتي أدت فيما بعد إلى ابتكار أنماط خطية وصيغ تعبيرية جديدة، وصنع أساليب وتكوينات مفارقة ومغايرة.

وينبغي التنبه إلى أن الحروف العربية ليست ثابتة الأشكال في النصوص، لذلك فهي تتطلب تحولًا جديدًا في كل حين؛ إذ تتغير في الكلمات حسب تغير شكلها إثر تطوره الجمالي، فتصبح كل كلمة جديدة تبحث عن معادلة جديدة، مع موازنة الفراغات داخل الكلمة نفسها وداخل السطر بأكمله، وموازنة إيقاعات الحروف والكلمات داخل النصوص، فهذه الإيقاعات تمنح القارئ تفاعلًا عند رؤيتها.

نتائج الدراسة

ويمكن أن نلخص هنا أهم النتائج التي توصَّلت إليها الدراسة:

- أسهمت آراء الجاحظ في التحولات التي عرَفَها مجال الخط، الشيء الذي أنتج أبعادًا جمالية تزخر به نظريته. فقد تطرَّق لبيان الخط واستثمره جماليًّا في عملية التواصل، وتنبَّه إلى رمزية الخط في أدائها لوظيفة البيان عن طريق الرؤية البصرية التي تحقق هذا التواصل.
- انصبت جهود ابن مقلة حول الاهتمام بضوابط الكتابة وجمالياتها، مُشكِّلةً في ذلك أهم الأسس التي صنعت اللبنات الأولى في التحول إلى الجماليات البصرية لا مجرد الكتابة.
- أشار الصولي إلى معالم الخط الجيد والحالة التي يجب أن تكون عليها الحروف جماليًّا وفق الذوق والمعيار الذي اعتمده، ووفق الأهداف الجمالية المتوخاة حسب مقدرته في التمييز في الخط، كما أشار إلى تأثير الخط جودةً وقبحًا في نفس القارئ من فاعلية الإقبال على القراءة أو الإدبار عنها.
- شكَّلت جهود أبي حيان التوحيدي تحولًا من المكتوب المجرد إلى إدراك وظيفته البلاغية وجمالياته البصرية، ووعي بالبعد الجمالي للخط الذي عمَّق من إدراكنا للبعد الشكلي ومن الصيغ الجمالية للخط، في نطاق فلسفته الفنية ونظريته الجمالية، والتي حدَّدت لنا بامتياز معالم الجمال، وكان له بالغ الأثر في توجيه العمل الإبداعي نحو الجِدَّة والابتكار.
- نبَّه علي بن خلف إلى تأثير الخط في نفس القارئ من فاعلية الإقبال على القراءة أو الإدبار عنها كما ذكره الصولي من قبله؛ وذلك اعتمادًا على جودة الخط أو رداءته. كما تنبه إلى ما يسمى في علم المخطوطات اليوم بـ «فن إخراج الصفحة ومحاذاة السطور». كما ذكر بعض النصائح لتحسين الخط وما يزيد في حسنه، مراعيًا في ذلك جماليات الخط والكتابة، وما تلعبه من دور في الإقبال على القراءة.
- أظهرت تلك الدراسة بجلاء أصالة علمائنا الفكرية والمنهجية، والتي برزت وتفوقت في وقت لم يكن فيه الغرب الأوروبي شيئًا مذكورًا، ونَسْيًا من التاريخ منسِيًّا. فما لهم الآن

يصدّعون رءوسنا بنظرياتهم! ولنا والله ـ مُقسِمين بغير حنث ـ في تراثنا مغنى ومقنع، ولكنها عقدة المغلوب المفتون بغالبه، كما ذكر ابن خلدون.

- أسهمت آراء العلماء المشارقة وتصوراتهم في إثراء الثقافة العربية الإسلامية بإنتاج نقدي ثري، مهَّد الطريق لرؤًى جمالية جديدة ترتكز على أساس علمي متين، تصلح أن تكون زادًا لعلماء الجماليات في العصر الحديث.

المصادر والمراجع

١- **أدب الكُتَّاب**، لأبي بكر محمد بن يحيى الصُّولي، تصحيح: محمد بهجة الأثري، مراجعة: محمود شكري الألوسي، المكتبة العربية ـ بغداد، ط١، ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م.

٢- **البرهان في وجوه البيان**، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة الأولى الجديدة للناشر، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٣- **البيان والتبيُّن**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: أ. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٤- **تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب**، لعبد الرحمن بن يوسف بن الصائغ، تحقيق: أ. هلال ناجي، دار بو سلامة ـ تونس، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥- **جماليات الخط المغربي في التراث المغربي**: **دراسة سيميائية**، د. محمد البندوري، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر ـ مراكش، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

٦- **جماليات الخط العربي في الفنون التشكيلية**، د. أيمن فاروق عبد العظيم، منشورات جامعة الطائف ـ السعودية، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧- **الحيوان**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: أ. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٨- **الخط العربي (فعاليات أيام الخط العربي ١٩٩٧م)**، وزارة الثقافة ـ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة بقرطاج ـ تونس، ط١، ١٤٢٢/ ٢٠٠١م.

٩- **الخط العربي والرقش رؤية فلسفية**، د. بركات محمد مراد، **مجلة الذخائر** ـ بيروت، (عدد خاص عن الخط والمخطوط العربي)، العدد (٩) السنة الثالثة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٠- **رسالة في الخط والقلم**، لابن مقلة، ضمن كتاب: **موسوعة تراث الخط العربي**، تحقيق: أ.

هلال ناجي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١١-**رسالة في علم الكتابة**، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، تقديم: محمد بغدادي، مطبوعات صندوق التنمية الثقافية ـ وزارة الثقافة المصرية، نشرة خاصة ضمن فعاليات ملتقى القاهرة الدولي الثاني لفن الخط العربي، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

١٢- **رسائل الجاحظ**، تقديم وتبويب: علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

١٣- **روح الخط العربي**، كامل البابا، دار لبنان للطباعة والنشر ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٤- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: محمد عبد رب الرسول إبراهيم، المطبعة الأميرية ـ القاهرة، ط١، ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م.

١٥- **الفن في الفكر الإسلامي.. رؤية معرفية ومنهجية**، بحوث المؤتمر الذي عقده المعهد العالمي للفكر الإسلامي سنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، بالتعاون مع جامعة العلوم الإسلامية العالمية ووزارة الثقافة الأردنية، تحرير: د. فتحي حسن ملكاوي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ مكتب الأردن، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٦- **لسان العرب**، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، اعتنى بها وصححها: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٧- **معجم مصطلحات الخط والخطاطين**، د. عفيف البهنسي، مكتبة لبنان ناشرون ـ بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٨- **مواد البيان**، لعلي بن خلف الكاتب[٦٩]، تحقيق: د. حاتم الضامن، دار البشائر ـ دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٦٩) حقَّقه لأول مرة: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح ـ ليبيا، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ملاحظات عن بعض الأطباء اليهود المصريين الذين برزوا أثناء الحكم العربي[1]

صاحب السعادة، السيدات والسادة،

بدايةً، أستميحكم عذرًا فيما قد تجدونه في محاضرتي من نقائص، سواء في الشكل أو المضمون؛ فلا بد أن ننظر بعين الاعتبار إلى أنه لا يوجد -حتى وقتنا هذا- أيُّ نص يجمع تاريخ الأطباء اليهود في الشرق، وأن معظم كُتُبِهم قد فُقِدَت، وما يوجد منها في المكتبات أكثره غير منشور، ويصعب الوصول إليه[2]. ومن المؤسف أن أهم الكتب الطبية التي وضعها إسحاق الإسرائيلي وابن ميمون لم تُنشر بالعربية، رغم أن هناك ترجمات لاتينية وعبرية لها منذ العصور الوسطى، وذلك على الرغم من أن هناك كتبًا طبية عربية، أقل أهميةً منها بكثير، قد تم نشرها منذ فترة طويلة. وحتى تراجمُ عددٍ كبيرٍ جدًّا من مشاهير الأطباء اليهود في العهد العربي نجدها متناثرة في كتابات المؤرخين وكُتّاب التراجم المسلمين. وباستثناء ستاينشنيدر Steinschneider[3]، فإن الحاخامَيْن كرونر Kroner وموينـز Muenz هما فقط مَن واتَتْهما فكرةُ إبراز تاريخ الأطباء اليهود في الشرق. وأمام هذه المادة الضخمة التي تتطلب دراستُها عُمرًا بأكمله، لا يسعني إلا الاكتفاء بإيراد بعض الخصائص المميِّزة للمعارف الطبية لدى أشهر هؤلاء الأطباء، وإغفال القدر الأكبر المتعلق بأولئك الأقل شهرة.

---

(١) محاضرة ألقيت أمام الجمعية المصرية للدراسات التاريخية اليهودية، في القاهرة، يوم ٣١ مايو ١٩٢٨م. ترجمة: شيرين محمود؛ أخصائي أول بمركز المخطوطات، عن الأصل المنشور باللغة الفرنسية. مُراجعة: محمد عبد السميع؛ أخصائي أول بمركز المخطوطات، للترجمة العربية عن النص الفرنسي الأصلي. تعقيب: ميخالي سولومونيدس؛ أخصائي موجه بمركز المخطوطات. ضبط النص العربي الـمُـترجَم: د. مدحت عيسى؛ مدير مركز المخطوطات.

(٢) الكتاب الذي وضعه Muenz بالألمانية له ميزاته، ولكنه شديد الاختصار لدرجةٍ لا تسمح باعتباره تاريخًا جامعًا.

وقبل البدء في موضوع حديثنا، فلننظر أولًا إلى حال العلم -وخاصةً الطب- في الفترة السابقة على الإسلام. كان الشرق قد اكتسب صبغةً هيلينية بتأثيرٍ من غزوات الإسكندر الأكبر، وأصبحت الإسكندريةُ المركزَ الفكريَّ لذلك العالَم الجديد، ولم يتغير هذا الوضع فيما بعد تحت السيطرة الرومانية. وكان اليهود أنفسُهم -كما تعلمون- قد اصطبغوا تمامًا بالصبغة الهيلينية في مصر ومعظم الأقاليم الآسيوية التابعة للإمبراطورية السلوقية(٣). ولم يكن هناك مركز للمقاومة اليهودية أمام الزحف الهلينستي إلا في فلسطين، وعلى الأخص القدس، وقد تجسَّدت هذه المقاومة في الثورات التي قام بها اليهود ضد مضطهديهم، بدايةً من السلوقيين حتى البيزنطيين. ولكن مع ذلك، ظَلَّ التفكير العلمي اليهودي يونانيًّا، مثلما كان الحال مع فيلون Philon والمؤرخ فلافيوس يوسيفوس Flavius Joseph. أما ازدهار المسيحية وغزو الفرس لآسيا الوسطى، فلم يكن لهما تأثير واضح في العلوم. ولم يظهر التأثيران الهندي والفارسي إلا في الكيمياء والجغرافيا، وبدرجةٍ محدودة. وظلت الفلسفة تسير على خطى أفلاطون Platon وأرسطو Aristote، وتابع الطب نهج أبقراط Hippocrate وجالينوس Galien، بينما اتبعت الرياضيات مذهب أقليدس Euclide وبطليموس Ptolémée. وكانت اليونانية لا تزال هي اللغة السائدة في الإسكندرية، بينما بدأت اللغة الآرامية المحدَثة أو السريانية تصبح لغةَ العلم في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين. وبالتدريج بدأ بعض الأطباء، خاصةً ممن ينتمون لطائفة النساطرة المسيحية، يترجمون أعمال كبار الأطباء اليونانيين إلى السريانية. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، أضيفت مدرسةٌ للطب إلى أكاديمية جنديسبور Gondé-Châpour (في خوزستان Khouzistan) بفارس، وهي الأكاديمية التي أنشأها الملوك الساسانيون قبل ذلك بقرن. وهناك التقت مذاهب اليونانيين -التي تمت ترجمتُها إلى السريانية والبهلوية (اللغة الفارسية الوسطى)- بمذاهب الأطباء الهنود التي جُلِبَتْ من خلال بعثات خاصة وتُرجِمَت من السنسكريتية إلى الفارسية. ونشير هنا إلى أن لعبة الشطرنج

(٣) السلوقيون (٣١٢-٦٤ ق.م.) هم سلالة هلينستية ترجع تسميتها إلى مؤسس الأسرة الحاكمة للدولة السلوقية، سلوقس الأول نيكاتور (الفاتح) أحد قادة جيش الإسكندر، شكلت هذه الدولة إحدى دول القادة الخلفاء (Diadochi) التي نشأت بعد موت الإسكندر المقدوني، وخلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد حكمت منطقة غرب آسيا، وامتدت من تراقيا غربًا وحتى الهند شرقًا. كان للسلوقيين الدور الكبير في تفاعل الحضارتين الإغريقية والشرقية. (المترجمة)

انتقلت بهذه الطريقة، في القرن السادس الميلادي، من الهند إلى بلاط كسرى أنوشروان Khosrau Anoûchirvân على يد طبيبه الخاص برزويه Borzawaïh الذي ربما كان يهوديًّا.

وطيلة تلك الفترة، لا يذكر التاريخ شيئًا عن الأطباء اليهود، رغم أنهم كانوا بلا شكٍّ موجودين، بل ولهم مكانتهم، كما يظهر من كلام الأب يوحنا فم الذهب Jean Chrysostome بطريرك القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، الذي كان يقول إنه من الأفضل للإنسان أن يموت ولا أن يعالجه طبيب عبراني! وكانت المدارس اليهودية الثلاث بفارس، في صورا Soura وبومبديثا Poumbeditha ونهارديا Nehardea، تهتم فقط بالشروح التوراتية والتراث، مهملةً الطب. ولكن التلمود نفسه، الذي ترجع أصوله إلى الفترة بين القرنَيْن الثاني والسادس الميلاديين، يحوي العديد من الإشارات الطبية ويذكر بعضَ الأطباء، خاصةً البابليّ مار صمويل (١٦٥-٢٥٧ ق.م.) الذي تَرِدُ كثيرٌ من أقواله في النص(٤).

بعد ظهور النبي محمد، وغزو البلاد الإفريقية والآسيوية التي كانت تحت حكم البيزنطيين والفرس، نسمع عن طبيب اسمه ثيودوكوس Théodocus كان يعمل لدى الوزير القوي puissant vizir الحجاج بن يوسف (ت ٧١٤م)، ونشرَ المعارفَ الطبية اليونانية في الدولة الأموية. وكان لهذا الطبيب تلميذٌ يهودي اسمه فرات ابن شاحناثا Forât Ben Chahnâthâ عمل طبيبًا لعيسى بن موسى حاكم الكوفة بعد نشأة الدولة العباسية (بدايةً من ٧٥٠م)(٥).

ونقلتْ إلينا كتبُ التراجم العربية أيضًا اسمَيْ طبيبين يهوديين عاشا في البصرة في القرن الثامن الميلادي هما ماسرجيس Mâsardjïs أو مسرجويه Mâsardjawaïh وابنه عيسى. وقد اشتهر مسرجويه على الأخَصِّ لترجمته إلى العربية كتابًا يونانيًّا مهمًّا في الطب هو «الكُنّاش في الطب» Pandects لأهرن السكندري Aharôn d'Alexandrie (النصف الأول من القرن السابع

(٤) انظر:
I. Preuss, Biblisch-talmudische Medizin, Berlin, 1911; M. Neuburger, Geschichte der Medizin. Stuttgart, 1911. Vol. II, pp. 8-88; George Sarton, Introduction to the History of Science, vol. I, Baltimore 1927.(الجزء الثاني يعرض، من بين ما يعرض، للعلم العبراني من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر).

(٥) ابن القفطي، كتاب الحكماء، طبعة ليبزج، ١٩٠٣.
Kitâb al-Hukamâ, ed. I. Lippert, Leipzig, 1903; L. Leclerc, Histoire de la médecine arabe, Paris, 1876, vol. I, p.82.

الميلادي)، وهو كتاب كان قد ترجمه من اليونانية إلى السريانية شخص يُدعى جِسيوس Gessius. كل هذا يعطينا فكرة عن خليط الأجناس واللغات الذي كان شائعًا في بدايات الإسلام: فالراهب المسيحي أهرن، الذي يحمل اسمًا ساميًا، كتب باللغة اليونانية، ثم قام اليوناني جسيوس بالترجمة إلى السريانية، ثم ترجم اليهوديُّ الفارسيُّ ماسرجيس الكتابَ إلى العربية! بالإضافة إلى ذلك، قام ماسرجيس بتأليف كتب في الطب، إلا أنها فُقدت جميعًا، وكذلك فُقدت ترجمته للكُنّاش. لكن الرزاي، الطبيب العربي الفارسي الشهير، يذكره كثيرًا باسم (اليهودي)(٦)، خاصةً عندما يتحدث عن كتابه عن منافع العقاقير (كتاب العقاقير ومنافعها ومَضارّها).

إننا لا نعرف الكثير عن تطور العلوم في عهد الخلفاء الأمويين (٦٦١-٧٥٠م). أما الخلفاء العباسيون (منذ ٧٥٠م)، فقد بدأوا -كما قلنا- في شراء وترجمة كل المخطوطات اليونانية في الطب والفلسفة والعلوم الطبيعية، من كل أرجاء مُلكهم الشاسع، بل وحتى في الأقاليم المجاورة الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وفي عام ٨٣٠م، أنشأ المأمون في بغداد أكاديمية ومكتبة أسماها "بيت الحكمة"، وأنفق فيها على عددٍ كبير من المترجمين، كان معظمهم أطباء، وكلهم تقريبًا من النساطرة الذين يعرفون اللغات اليونانية والسريانية والعربية. وهكذا تُرجم في عهد المأمون وخلفائه العشرة، حتى نهاية القرن التاسع الميلادي؛ أغلبُ مؤلفات أبقراط، وجالينوس، وروفوس Rufus وديسقوريديس Dioscoride، وأوريباسيوس Oribase وبولس الإيجي(٧) Paul d'Égine وغيرهم، بالإضافة إلى مؤلَّفات الفلاسفة اليونان وشروحهم، ومؤلفات الرياضيين والفلكيين والجغرافيين والكيميائيين والعشّابين. وكان هذا مصدرَ الازدهار المذهل للطب العربي، ذلك الازدهار الذي أسهم الأطباء اليهود في تحقيقه إسهامًا كبيرًا. فإذا نظرنا إلى كلام ابن أبي أصيبعة، المؤرخ الشهير للأطباء العرب(٨)، سنجد أن القرن التاسع الميلادي شهد نحو مائة وثلاثين طبيبًا مسيحيًا، وثلاثةَ وثنيّين (صابئة، أي عَبَدَة النجوم)، وثلاثة يهود وخمسة مسلمين. وفي القرن العاشر الميلادي، كان هناك تسعة وعشرون طبيبًا مسيحيًا، وأربعة وثنيين، وستة من اليهود، وثلاثون مسلمًا. وفي

(٦) Leclerc, l.c., pp. 77-81.

(٧) المعروف أيضًا باسم: «بولس الإيجيني» و«بولس الإيجينيتي». (المـُعـَـقِّب)

(٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢م، جزآن (باللغة العربية).
M. Steinschneider, Zeitschr. d. Deutschen Morgenlaend, Gesellsch., 53, 428-34, 1899.

القرن الحادي عشر الميلادي، أربعة أطباء مسيحيين فقط، وسبعة يهود، وعدد كبير من المسلمين. وتُحَدِّثنا الحوليات العربية عن اثنين من الأطباء المشهورين، عاشا في القرن التاسع الميلادي، هما سهل بن بشر، المعروف باسم رَبّان الطبري، وابنه عليّ الذي اشتهر بفضل موسوعته «فردوس الحكمة» التي ألَّفها نحو عام ٨٥٠م(٩)، وقد زُعِم أنهما من اليهود الفرس، لكنهما كانا من النساطرة واعتنقا الديانة الإسلامية، ويتضح هذا من كتابٍ اكتُشف مؤخرًا ونشرته مكتبة مانشستر(١٠)، وهو مقالة في مدح الديانة الإسلامية كتبها علي الطبري. لذلك، يجب من الآن أن نتوقف عن عدِّهما طبيبين يهوديين عربيين.

أما المصادر العبرانية، فقد نقلت لنا اسمي طبيبين يهوديين عاشا في بغداد نحو عام ٨٠٠م؛ أحدهما هو إسحق بن عمران الكبير، والآخر هو يوشع بن نون، وهذا الأخير كان أستاذًا للطبيب الكبير والفيلسوف والفلكي المسلم أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي(١١)، ولكن هناك مصادر تذكره على أنه مسيحي.

ننتقل الآن إلى أشهر الأطباء اليهود بعد ابن ميمون، وهو إسحق بن سليمان الإسرائيلي، الذي يذكر العرب اسمه هكذا: أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي. وقد وُلد في القرن التاسع الميلادي، ومات عن عمرٍ يناهز المائة سنة (وذلك في نحو عام ٩٣٢م). ويقول سيلفستر دي ساسي(١٢) في ترجمته: «كان إسحاق بن سليمان الإسرائيلي طبيبًا ماهرًا وموهوبًا وعلى درجة كبيرة من العلم، وقد اشتُهر بعبقريته ومعارفه، وألَّف كتبًا ممتازة، وتميَّز بنُبل مشاعره... وهو معروف

(٩) ابن أبي أصيبعة، المرجع السابق، ج١: ٣٠٨-٣٠٩؛ ابن القفطي، المرجع السابق: ٢٣١؛ ابن النديم، كتاب الفهرست، طبعة Fluegel؛ ليبزج ١٨٧١، ج١: ٢٩٦.
Steinschneider, Zeitschrift d. Dtsch. Morgenl. Gesellsch., 54, 46-48, 1900; H. Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber, Leipzig 1900, pp.14-15; E.G. Browne, Arabian Medicine, Oxford 1921, pp.37-44.

(١٠) علي الطبري، كتاب الدين والدولة:
The Book of Religion and Empire, ed. A. Mingana, Manchester 1923
النص بالعربية، أما الترجمة الإنجليزية التي صدرت في ١٩٢٢م فليست في حوزتي.

(١١) The Jewish Encyclopedia, vol. VIII, 1906, p.414.

(١٢) Sylvestre de Sacy, Relation de l’Egypte par ‘Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad, Paris 1810, pp. 41-45.

باسم الإسرائيلي. وقد وُلد في مصر. وبدأ بممارسة الكحالة، ثم استقر في القيروان ولازم إسحاق بن عمران (الصغير، وكان طبيبًا مسلمًا بارزًا) وتتلمذ له. ثم صار طبيبًا للإمام أبي محمد عبيد الله[١٣] المهدي حاكم إفريقية (هو زيادة الله الثالث، من الأغالبة، ٩٠٣-٩٠٩م)... ولم يتزوج أبدًا ولا ترك أطفالًا. وقد سأله أحدهم يومًا إن لم يكن من الأفضل أن يكون له أولاد، فأجابه: «أبدًا، فأنا... أترك أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد، وهي كتاب الحميات، وكتاب الأغذية والأدوية، وكتاب البول، وكتاب الأسطقسات[١٤]». وقد ترك لنا ابن الجزار، أشهر تلاميذ إسحق، الرواية التالية التي نقلها من فم أستاذه مباشرة: «لَمّا تركت مصر للعمل بجوار الأمير زيادة الله بن الأغلب، وجدته معسكرًا مع جنوده في الأُربُس (غرب القيروان)، فلقيته هناك. وكان هو الذي طلبني للحضور وأرسل لي خمسمائة دينار (ذهبًا) لتكاليف الرحلة. وما إن علم بمجيئي حتى استقبلني لديه، وألقيت عليه التحية الواجبة للأمراء. ولكني لاحظت قلّة المهابة في بلاطه، وأنه كان يفضّل المزاح والهزل». بعدها نصب له أحد رجال البلاط فخًا طارحًا عليه سؤالًا: الشيء المملح لذيذ الطعم، والشيء الحلو لذيذ الطعم، إذن الحلو ملح والملح حلو! وخرج إسحق من الموقف بشرح علمي، وبدوره ألقى على محدثه السؤال التالي: «ألست حيًّا؟ قال: بلا شك. قال إسحق: وهذا الكلب، هل هو حي؟ قال: نعم. فقال له: إذن، فأنت الكلب، والكلب أنت»، فقهقه زيادة الله ضاحكًا، وعرف إسحاق أنه يفضل المزاح على الجد[١٥].

(١٣) في الأصل: عبد الله. (المترجمة)

(١٤) النص الأصلي كما جاء في كتاب عيون الأنباء هو: «ولم يتخذ امرأة ولا أعقب ولدًا، وقيل له: أَيَسُرك أن لك ولدًا؟ قال: أما إذا صار لي كتاب الحميات، فلا. يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد. ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد وهي: كتاب الحميات، وكتاب الأغذية والأدوية، وكتاب البول، وكتاب الأسطقسات»، ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: ٤٨٠. (المترجمة)

(١٥) النص الأصلي كما جاء في كتاب عيون الأنباء هو: «وقال أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار في كتاب «أخبار الدولة» [...]: حدثني إسحق بن سليمان المتطبب قال: لما قدمت من مصر على زيادة الله بن الأغلب وجدته مقيمًا بالجيوش في الأريس فرحلت إليه، فلما بلغه قدومي وقد كان بعث في طلبي وأرسل إليَّ بخمسمائة دينار وتقويت بها على السفر، فأُدخلت إليه ساعة وصولي فسلمت بالإمرة، وفعلت ما يجب أن يُفعَل للملوك من التعبُّد، فرأيت مجلسه قليل الوقار والغالب عليه حب اللهو، وكل ما حرك الضحك. فابتدأني بالكلام ابن خنيس المعروف باليوناني فقال لي: تقول إن الملوحة تجلو؟ قلت: نعم. قال: وتقول إن الحلاوة تجلو؟ قلت: نعم؟ قال لي: فالحلاوة هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة. فقلت: إن الحلاوة تجلو بلطف وملاءمة، والملوحة تجلو بعنف. فتمادى على المكابرة وأحبَّ المغالطة. فلما رأيت ذلك قلت له: تقول أنت حي؟ قال: نعم. قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب والكلب أنت. فضحك زيادة الله ضحكًا شديدًا، فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من رغبته في الجد»، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٤٨٠. (المترجمة)

وفي ٩٠٩م، هُزم زيادة الله وخُلع عن العرش على يد المهدي الفاطمي، الذي فتحت أسرتُه مصرَ فيما بعد. وعمل إسحاق بن سليمان لديه ولدَى خلفائه من بعده. وإذا كانت هذه الرواية التي أوردها عدة مؤرخين حقيقية، فسيعني هذا أنه لم يمت في عام ٩٣٢م بل بعد ذلك بعشرين سنة على الأقل؛ لأن هذا معناه أنه عالج الخليفة الفاطمي الثالث على تونس، المهدي، حتى وفاته في عام ٩٥٢م. وهذا يتفق مع ما ذكره ابن أبي أصيبعة عما تمتع به إسحاق من طول عُمْرٍ مذهل[١٦].

وقد نسب هذا المؤلف نفسُه لإسحاق الكتبَ الطبية الأربعة التي ذكرناها آنفًا، بالإضافة إلى «مقدمة في الطب»، و«مقالة في النبض»، ومقالة «في الترياق» وعدة مؤلفات فلسفية. وهناك مقالة «في الاستسقاء» لا تذكرها الحوليات، ولكن لها ترجمة عبرية موجودة في باريس. وقد صنّف إسحاق أعمالَه الطبيةَ بالعربيةِ، لأنها كانت مُهداة إلى حكَّام تونس. وحظيت مقالتا «الحمى» و«البول» على تقدير خاص، ووُصفتا بأنهما أفضل ما كُتب في هذين المجالين، كما أنهما تعكسان الطب اليوناني الذي انتقل عبر الترجمات العربية في القرن التاسع الميلادي. ويوجد ثلاث من مقالات إسحاق بالعربية.

وفي القرن الحادي عشر، تُرجمت كل أعمال إسحاق إلى اللاتينية على يد قسطنطين الإفريقي Constantin l'Africain، الذي كان مسلمًا من قرطاج ثم تنصَّر وصار راهبًا بدير مونت كاسينو Monte Cassino في إيطاليا. وقد طُبعت في ليون عام ١٥١٥م بعنوان (Opera Omnia Isaaci Filii Salominis)، وكان لها تأثير عظيم في الطب في تلك الفترة. وفي القرن الحادي عشر، قال عليٌّ بن رضوان، الطبيب المصري المسلم، عن كتاب «مقالة في الحميات»: «أشهد أن هذا الكتاب عظيم الفائدة، وأنه عملُ رجلٍ عظيم الفضل. وقد مارستُ معظمَ ما ذكره هذا الكتاب ولم أجد ما أضيف عليه»[١٧]. ويضيف ابن أبي أصيبعة: «وهذا الكتاب يفوق كُلّ ما كُتب في هذا الموضوع»[١٨]. وقد قام جيرار دي كريمونا Gérard de Crémone (ت ١١٨٧م) بترجمة بعض كتب إسحاق الأخرى إلى اللاتينية، وجيرار هو أبرز المترجمين من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى.

---

(١٦) «وعمّر عمرًا طويلًا إلى أن نيَّف على مائة سنة»، ابن أبي أصيبعة: ٤٧٩. (المترجمة)

(١٧) النص في كتاب ابن أبي أصيبعة: «أقول أنا عَلِي بن رضوان الطبيب إن هذا الكتاب نافع وجمع رجل فاضل، وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه»: ٤٨٠. (المترجمة)

(١٨) النص في كتاب ابن أبي أصيبعة: «ولم يوجد في هذا المعنى كتاب أجود منه»: ٤٨٠. (المترجمة)

وفيما بعد، تُرجمت كل أعمال إسحق -بما في ذلك مقالاته الفلسفية- إلى العبرية، بعضها من الأصل العربي والبعض الآخر من اللاتينية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من الرسائل بالعبرية فقط، حيث ضاعت أصولها العربية، منها «مقالة في الروح والنَّفْس» وتعليق على كتاب يصيره Yesîra «كتاب الخلق».

وفي عام ١٨٦١م، اكتشف موسى سواف Moïse Soave مقالةً صغيرة بالعبرية منسوبة لإسحاق الإسرائيلي[١٩] تحمل عنوان «إرشاد الأطباء»[٢٠]، وهي مجموعة من خمسين حكمة بعضها مكتوب بأسلوب ممتاز. ونذكر من الحِكم التي أوردها إسحق: «الوقاية خير من العلاج»، «معظم المرضى يبرأون بمساعدة الطبيعة»، «إن كانت لديك الخيرة بين العلاج بالأغذية أو بالأدوية، فاختر الأولى»، «أغلق فمك على التوقعات القاطعة، واكتفِ بالافتراضات»، «لا تُجْرِ لسانك بإدانة غيرك من الأطباء، فلكلٍّ كبوة. واحرص على أن تكون الإشادة بك لنجاحك، ولا تبحث عن سعادتك في القدح في الآخرين»، «احرص على علاج ومداواة المرضى الفقراء، فلن تجد عملًا أشرف من هذا»، «طمئن المريض حتى ولو كان هذا يخالف قناعتك، فأنت بهذا تساعد الطبيعة على القيام بعملها».

ومن بين القواعد العملية للأطباء، أذكر هذه الحكمة: «اطلب أجرك من المريض بينما المرض في أشده، لأنه ما إن يُشفى فسرعان ما سينسى ما قدمته له من خدمات!».

ولم تحظَ أعمال إسحاق الفلسفية، كتاب التعريفات وكتاب العناصر، بأي تقدير. ويقول ابن ميمون نفسه، في رسالةٍ كتبها إلى صمويل بن طيبون: إن إسحاق لم يكن إلا طبيبًا كبيرًا، ولكنه لم يكن فيلسوفًا ذا قدر.

وقد قلنا في السابق إن أشهر تلاميذ إسحاق بن سليمان كان الطبيب المسلم ابن الجزّار. ومن تلاميذ إسحاق أيضًا، هناك أبو سهل دوناش بن تميم، وهو يهودي اشتُهر أيضًا باسم أدونيم Adônîm، وقد خَلَفَ إسحاق في وظيفته كطبيب في بلاط الخلفاء الفاطميين في القيروان،

(١٩) قد تكون هذه المقالة من وضع إسحاق إسرائيلي آخر، يهودي إسباني من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، كتبه باليهودية.

(٢٠) Soave; Guida dei medici, Giorn. di Scienze Mediche, vol. 18, 1861; D. Kauffmann, Isaak Israeli's Propaedeutik fuer Aerzte, Magaz. f. Wiss. d. Judentums, II, 97-112, 1885.

وصنَّف هناك عدة مؤلفات في الفلسفة والرياضيات والطب، وكان يراسل زميله اليهودي المشهور حسداي بن شابرو Hasdaï ben Chaproû (ت ٩٧٠م) الذي كان وزيرًا وطبيبًا في بلاط حاكم قرطبة بالأندلس. ولست هنا بصدد الكلام عن الأطباء اليهود في إسبانيا، ولكني فقط أذكِّركم أن حسداي كان له فضل علمي كبير عندما ترجم كتاب الأدوية لديوسقوريدس Dioscoride من اليونانية إلى العربية، بمساعدة الراهب نيقولا في نحو عام ٩٥١م، وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع قد أهدى هذا الكتاب للخليفة القرطبي عبد الرحمن الثالث.

وفي سياق حديثنا عن ترجمات اليهود للكتب الطبية، لا يمكن أن نغفل ترجمات أضخم الموسوعات الطبية في العصور الوسطى: كتاب الحاوي للرازي، والقانون في الطب لابن سينا، الطبيبين المسلمين الفارسيين الماهرين (اللذين عاشا في القرنين العاشر والحادي عاشر الميلاديين). فكتاب الحاوي يقع في خمسة وعشرين مجلدًا مخطوطًا على الأقل. ولا توجد منه نسخة خطية عربية واحدة كاملة، وأقل النسخ عيوبًا هي النسخة الموجودة بمكتبة الإسكوريال (بالقرب من مدريد)، ويعود الفضل فيها إلى عمل الأطباء اليهود، حيث تحمل في حواشيها العديد من الملاحظات بالعبرية. وطيلة أربعة قرون، لم يجرؤ أحد أن يترجم هذا الكتاب الضخم، حتى جاء اليهودي فرج بن سالم (سولمون) المعروف باسم فرجوت Farraguth، وهو من جرجنتي Girgenti في صقلية، وتصدَّى لهذه المهمة التي تفوق قدرة البشر، على نفقة شارل دانجو Charles d'Anjou شقيق شارل التاسع ملك نابولي. وقد فرغ من ترجمته اللاتينية سنة ١٢٧٩م، وطُبعت بعدها بقرنين في برشيا Brescia في عام ١٤٨٦م، وقد احتلت الترجمة مجلدين ضخمين من القَطْع الكبير in-folio. ويقول عنها لوكليرك Leclerc إنها أهم ترجمة لدراسة تاريخ الطب، لأن الحاوي يعرض لكل الكتب الطبية اليونانية والسريانية المعروفة للعرب، ويضيف إليها مقتطفات من أوائل الكتب الطبية العربية حتى عام ٩٠٠م تقريبًا. وبالإضافة إلى هذه الترجمة، ترجم فرجوت للاتينية أيضًا كتابين مهمين للطبيبين العربيين المسيحيين ابن جزلة وابن بطلان (القرن الحادي عشر الميلادي).

أما الموسوعة الطبية العربية الأخرى، الأقل حجمًا والأكثر شهرة، وهي القانون لابن سينا، فقد ترجمها للاتينية المسيحيُّ جيرار دي كريمونا، بينما ترجمها من العربية إلى العبرية ناثان هامياتي Nathan Ha-Meâtî في روما عام ١٢٧٩م، وكذلك ترجمها في نفس الوقت زراحيا بن إسحاق بن

سحيلتيال هاين Zerahya ben Isaac ben Chealtiel Hein، وإن كانت ترجمته غير مكتملة. أما ترجمة ناثان، فقد صحَّحها وضبطها فيما بعد يوسف بن يوشع لوركي Joseph ben Josué Lorkî. وقد صدرت الطبعة الأولى من الترجمة العبرية للقانون في ثلاثة أجزاء في نابولي حوالي عام ١٤٩١م، أي قبل صدور طبعته العربية الأولى بنحو قرن (روما، ١٥٩٣م).

وننتقل الآن إلى طبيب عُرف باسم عسَّاف اليهودي (Asaph Ha-Yehoûdî Asaf Iudaeus)، ولا نعرف شيئًا عن حياته غير أنه عاش في القرن التاسع أو القرن العاشر للميلاد، ويُعد كتابه الطبي Sêfer Rephodôth (كتاب الشفاء) أقدم كتاب معروف باللغة العبرية في هذا المجال(٢١)، وقد يكون مترجَمًا عن اليونانية أو السريانية؛ لأنه لا يذكر إلا كتبًا طبية يونانية. وهو يتكلم في التشريح، ووظائف الأعضاء، وعلم الأمراض، والصحة، والمداواة، وينتهي ببعض الحِكَم وقَسَم أبقراط الشهير. وكثيرٌ من العلاجات المذكورة لم تكن معروفة في الطب اليوناني.

لا شك أنكم لاحظتم أن القرن العاشر شهد العديد من الأطباء اليهود المشهورين، بالإضافة إلى مَن اشتهروا بمعارفهم الفلسفية أو الفيلولوجية أكثر من معارفهم الطبية، مثل يونا Yônâ (ابن جناح) النحوي والطبيب اليهودي الإسباني السرقسطي.

وخلال القرون التالية، من الحادي عشر حتى الرابع عشر، زاد عدد الأطباء اليهود المتحدثين بالعربية، كما زادت شهرتهم. ورأينا منهم أطباء في بلاطات العديد من الحكام المسلمين، في إشبيلية، وغرناطة، وفاس، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وبغداد، بل وحتى لدى سلاطين المغول في آسيا الوسطى، مثل سعد الدولة وزير وطبيب السلطان المغولي أرغون، الذي مات تقريبًا في نفس وقت وفاة سيدِه، في عام ١٢٩١م(٢٢).

وسأذكر عددًا من هؤلاء، خاصةً أولئك الذين عاشوا في مصر:

(٢١) Moritz Steinschneider, Die hebraeischen Uebersetzungen des Mittelalters etc. Berlin 1893, pp.388-402 et 754-761.

(٢٢) Rich. Gottheil, The Jewish Encyclopedia, vol. II 1902, p.162. Ludwig Venetianer, Asaf Iudaeus, 3 fasc. Budapest 1915-7.

\وهناك اليهودي القرائي أبو البيان السديد ابن المــــُدَوَّر، الذي كان طبيبًا في بلاط آخر الخلفاء الفاطميين (حتى عام ١١٧١م) وفي بلاط خليفتهم صلاح الدين. وقد مات في القاهرة في سنٍّ طاعنة عام ١١٨٣م. وكتابه الأساس هو الدستور المارستاني، وهو أقرباذين خاص بالمستشفيات. ونذكر أيضًا معاصره أبا الفضائل بن الناقد، طبيب العيون اليهودي الذي عاش بالقاهرة، ومات في ١١٨٨م، وقد اشتهر بعطفه على المرضى الفقراء(٢٣). وكان ابنه، أبو الفرج، طبيب عيون أيضًا، وقد اعتنق الإسلام. ويذكر ابن أبي أصيبعة سلسلة من الأطباء اليهود المصريين المشهورين، مثل هبة الله، المتوفى في ١١٨٤م، وآخر اسمه موفّق بن شوعة، كان جرَّاحًا وطبيب عيون (ت ١١٨٣م) وأيضًا أبو البركات بن القضاعي (ت ١٢٠٢م) الذي عمل جراحًا وطبيب عيون لدى السلطان العزيز، ابنِ صلاح الدين وخليفتِه. وهناك أبو المعالي بن تمام، الذي كان معاصرًا لابن ميمون، وكان طبيبًا يهوديًّا عمل في بلاط صلاح الدين ثم لدى أخيه سيف الدين(٢٤)، وهناك أسعد المحليِّ، الذي وُلد في المحلة الكبرى (في دلتا مصر) وكان أيضًا طبيبًا مشهورًا، وبعده داود بن سليمان (١١٦١ - ١٢٥١م) الذي كان طبيبًا في البيمارستان الناصري بالقاهرة.

ويبدو أن وضع الأطباء اليهود كان ممتازًا، وذلك في بعض الفترات ومع بعض الحكّام المتسامحين، مثل صلاح الدين نفسه وبعض خلفائه. ولكن بصفةٍ عامة عانى الأطباء اليهود، مثل بقية بني دينهم، من كراهية المسلمين والمسيحيين، خاصةً أثناء الحروب الصليبية؛ والدليل على ذلك تحوُّل كثير من الأطباء اليهود المشهورين إلى الإسلام. ولن أذكر من هؤلاء إلا السموأل بن يهوذا Samuel ben Yahoûda، الذي يرجع أصله إلى فاس (المغرب، القرن الثاني عشر الميلادي)، واضطره الاضطهادُ الديني إلى الهجرة مع أبيه، حيث استقرّا بعد طول سفر في بغداد أولًا، ثم بعد ذلك في المراغة (أذربيجان، شمال فارس) وهناك تحوَّل إلى الإسلام، في نحو عام ١١٦٣م، للهروب من اضطهاد الزمرة العدائية التي كانت تملأ بلاط أتابكة أذربيجان، الذي كان طبيبهم المفضَّل(٢٥). أما أشهر الأطباء اليهود الذين تحوَّلوا عن الديانة اليهودية، فهو هبة الله بن علي بن مَلَكا الذي يحمل لقبي «أبي البركات» و«أوحد الزمان» اللذين يشهدان على ما كان يتمتع به من شهرة ومكانة(٢٦). وتعد

(٢٣) Ibid., p.116.

(٢٤) Ibid., p.117.

(٢٥) Leclerc, vol. II, p.12-19.

(٢٦) Ibid, p.29-31.

قصته نموذجًا لما كان يحدث في عصره، أي القرن الثاني عشر للميلاد. فقد وُلد هبة الله في بلاد الرافدين، وجاء بغداد لتعلُّم الطب. وكان أشهر أساتذة تلك المدينة، وهو سعيد بن هبة الله، يكره اليهود ولا يقبلهم في مجلسه، فقام الشاب برشوة حارس المدرسة كي يسمح له بدخول الممر المجاور لقاعة الدرس، وهناك استطاع أن يتابع دروس الأستاذ سِرًّا لمدة عام. وبعد ذلك، استطاع الطالب الشاب أن ينال رضا أستاذه بفضل إجابة ذكية، ومن ساعتِها سمح له سعيد أن يحضر دروسه مثل الآخرين. وقد اشتهر كطبيب، وصار طبيبًا في بلاط الخليفة المستنجد (١١٦٠ - ١١٧٠م) في بغداد. ولكن هجمات رجال البلاط المستمرة ضده وإظهارهم مظاهر الاحتقار له كانت تجرحه بشدة، مثل البيتين اللذين يقولان ما معناه: «لدينا طبيب يهودي يتباهى بشدة، وما هو إلا كلب جاءنا من الصحراء»(٢٧). لذلك تحوّل إلى الإسلام، بعد أن حصل من الخليفة على مرسوم لصالح بناته اللاتي رفضن الاقتداء بأبيهن(٢٨). ولكن تغيير ديانته لم يحقق له الخير الذي كان يرجوه، فقَدْ فَقَدَ وظيفته بسبب مكيدةٍ ضد زميله المسيحي، أمين الدولة ابن التلميذ، وقد فشلت تلك المكيدة. وبعد ذلك بفترة، أصيب أبو البركات بالجزام والصَّمم والعمى، ومات عن أربعة وثمانين عامًا. وقد كتب بنفسه نصَّ شاهد قبره: «أبو البركات أوحد الزمان، الذي عرف حُسن الطالع وسُوءَه، والذي كتب المعتبـَر»(٢٩). وكان «المعتبر» كتابه الأشهر، وهو رسالة في الفلسفة والفيزياء.

(٢٧) نص البيتين هو:

لنـا طبيبٌ يهـوديٌّ حماقتـُه ... إذا تكلَّم تبدو فيـه من فِيـهِ

يَتيهُ والكلبُ أعلى منه منـزلةً ... كأنه بعـدُ لم يخرجْ من التيهِ

وقائلهما هو ابن أفلح (أبو القاسم، علي بن أفلح بن محمد العبسي)، انظر عنه: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، الجزء الثاني: ٤٠٧. والمصدر: القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ: ٢٥٥. (المترجمة)

(٢٨) «وتحقق أن له بناتًا كبارًا، وأنهن لا يدخلن معه في الإسلام، وأنه متى مات لا يرثنه، فتضَّرع إلى خليفة وقته في الإنعام عليهن بما لا يخلِّفه وإن كنّ على دينهن، فوقع له بذلك. ولما تحقَّقه، أظهر إسلامه». القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٥. (المترجمة)

(٢٩) «ولما أحسّ بالموت أوصى إلى مَن يتولاه أن يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب المعتبر». القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٦. (المترجمة)

وكثيرٌ من هؤلاء الأطباء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام استسلموا لضغوطٍ لتأليف كتب تهجو الدين الذي تركوه. ومن أشهر تلك الكتب «إفهام طائفة اليهود»[٣٠](**) الذي ألّفه السموأل بن يحي نفسه، وتوجد منه نسخة خطية قديمة في دار الكتب بالقاهرة.

إن قائمة الأطباء اليهود في الشرق في القرن الثاني عشر طويلة جدًا، لذا سندع جانبًا الأطباءَ اليهود الذين عاشوا في بلاد شرقية أخرى وفي فترات أخرى، ونتوقف بشيء من التفصيل أمام قصة اثنين من أشهر أطباء مصر في العصور الوسطى، وهما: ابن ميمون وكوهين العطار. وسأكتفي بالكلام في أعمالهما الطبية؛ لأن الأعمال الفلسفية لابن ميمون، ذلك المفكر الكبير، هي مِلكٌ للعالم كله.

وُلد موسى بن ميمون[٣١] في قرطبة بإسبانيا سنة ١١٣٥م، واضطر لمغادرة مسقط رأسه في ١١٤٩م بعد عام من فتح الموحِّدين لها، وهم مسلمون متعصبون قدموا من المغرب. وقد طاف مع أسرته إسبانيا والمغرب وسوريا وفلسطين، لعدة سنوات، ثم استقر أخيرًا في مصر، في الفسطاط (القاهرة القديمة)، في نحو عام ١١٦٧م. ومن المحتمل أن يكون ابن ميمون قد درس الطب (في نفس وقت دراسته للفلسفة واللاهوت اليهودي) في إسبانيا، ثم بعد ذلك في فاس (بالمغرب) التي استقرت بها أسرته بين عامي ١١٥٨ و١١٦٥م، ولكننا لا نعلم أساتذته. ولا شك أنه لم يكن ليمارس الطب لولا وفاة أخيه داود المبكِّرة التي اضطرته للعمل كي يعول أسرته الكبيرة وحدَه. وهكذا اضطر أن يكون ناجيد Nâguid (أي رئيس) طائفة اليهود في القاهرة، وفي الوقت نفسه طبيبَ السلاطين الأيوبيين ورجال بلاطهم. ويحكي ابن ميمون نفسه، في رسالة كتبها لتلميذه يوسف بن يهودا[٣٢]، كيف كان يخرج من بيته في الفسطاط مع الشروق راكبًا حصانه حتى القاهرة، حيث ينتظر بالقصر ويعالج مرضاه من النبلاء. وهو يأسف لعدم علاجه للمرضى الفقراء، لِضِيق الوقت.

(٣٠) يترجم المؤلف عنوان الكتاب هكذا: Pour faire taire la secte des Juifs أي (إسكات أو إفحام طائفة اليهود). (المترجمة)

(٣١) I. Guttmann, Moses ben Maimon. Frankfurt a.M. 2 vols. 1908-1914; I. Münz, Moses ben Maimon. (Maimonides) Frankfurt a.M. 1912.

(٣٢) Munk, Notice sur Joseph ben Iehoudah, Journal Asiatique, 1842.

ومن المفيد أن نتعرف إلى ابن ميمون الطبيب من خلال معاصريه من كبار العلماء المسلمين. حيث يروي المؤرِّخ ابن القفطي (ت ١٢٤٨م)(٣٣) كيف التحق ابن ميمون، في البداية، بالعمل طبيبًا في قصر آخر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة (العاضد، ت ١١٧١م)، ثم اختير ليُرسل إلى ملك الفرنجة (الصليبيين) في عسقلان -ربما كان عموري الأول ملك أورشليم- الذي طلب من المسلمين أن يرسلوا إليه طبيبًا، ولكن ابن ميمون رفض هذه المهمة. وبعد سقوط الفاطميين (في ١١٧١م) عمل ابن ميمون في خدمة القاضي الفاضل عبد الرحمن بن علي البيساني، الذي قرر له راتبًا. ويقول ابن القفطي: «كان يشارك الأطباء ولا ينفرد برأيه لقلة مشاركته، ولم يكن رفيقًا في المعالجة والتدبير...».

أما ابن أبي أصيبعة، أكبر مؤرخي الأطباء العرب، فكان رأيه فيه أفضل(٣٤)، إذ يقول إن الرئيس أبا عمران موسى بن ميمون القرطبي اليهودي كان عالمـًا في سنن اليهود، ويُعَدُّ من أحبارهم وفضلائهم، وكان رئيسًا عليهم في الديار المصرية. وهو أوحد زمانه في صناعة الطب وفي أعمالها، متفنن في العلوم، وله معرفة جيدة بالفلسفة. وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يرى له ويستطبه، وكذلك ولده الملك الأفضل (نور الدين) علي(٣٥).

ولدينا أخيرًا رواية عبد اللطيف، الطبيب البغدادي الشهير الذي زار مصر في ١٢٠٠م تقريبًا، وكان يريد التعرُّف إلى ابن ميمون، الذي كان في تلك الفترة شيخًا في الخامسة والستين. فيقول عبد اللطيف(٣٦): «جاء موسى بن ميمون لرؤيتي، ورأيت فيه رجلًا ذا شأن ولكن تغلبه شهوة التفوق وتملُّق الكبراء. وقد ألَّف رسالة في الطب جمع فيها مختارات من رسائل جالينوس الستة عشر وخمسة كتب أخرى. وقد ألزم نفسه عدم تغيير شيء من تعابير تلك الكتب التي كان يأخذ منها، اللَّهُمَّ إلا بعض الحروف، مكتفيًا باختيار النصوص التي يريد إدخالها في تلك الرسالة»(٣٧). وقد يدفعنا هذا الكلام إلى الاعتقاد أن ابن

(٣٣) Tarîh al Hukamâ', p.318.

(٣٤) Oyoun al-Anbâ', vol. II p.117'.

(٣٥) ابن أبي أصيبعة: ٥٨٢.

(٣٦) De Sacy, Relation de l'Egypte par Abdallatif, Paris 1810, p.466.

(٣٧) النص منقول عن عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، وفيه يقول نقلًا عن عبد اللطيف البغدادي: «وجاءني موسى فوجدته فاضلًا في الغاية، قد غلب عليه حب الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا. وعمل كتابًا في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس، ومن خمسة

ميمون لم يكن في الطب إلا مصنِّفًا بلا عقل ولا رأي. ولكننا سنرى النقيض فيما بعد، عند دراستنا لأكبر كتبه الطبية، الذي يتحدث عنه عبد اللطيف نفسه.

والكتاب المقصود هو الفصول (فصول موسى، وبالعبرية pirqê Môchê)(٣٨). وقد ألّف الرئيسُ هذا الكتاب في نحو عام ١١٨٨م باللغة العربية. وفي ١٢٧٧م، ترجمه في روما إلى العبرية زرحيا بن إسحق بن شيالتيل حين Zerahya ben Isaac ben Chéaltiel Hein، وبعدها بفترة قصيرة، ترجمه ناتان ها مياتي Natan ha-Meâti ترجمةً أخرى. وقد طُبعت تلك الترجمة الأخيرة، وكانت ترجمة سيئة، في لمبرج Lemberg في بولندا عام ١٨٠٥م، وفي فيلنا Wilna في ١٨٨٨م. وفي العصور الوسطى تُرجم النص العربي إلى اللاتينية، وطُبعت الترجمة في بولونيا Bologne في ١٤٨٦م. أما الأصل العربي فيوجد في عدة مكتبات في القسطنطينية، ومدريد (الإسكوريال) وليدن Leyde وجوتنجن Göttingen وجوتا Gotha. والنسخة الموجودة في جوتا تم شراؤها من مصر في القرن السادس عشر الميلادي، وهي نسخة مخطوطة قيِّمة؛ لأنها تحمل توقيعًا من الناسخ يقول إنه نقلها عن نسخة أبي المعالي يوسف بن عبد الله، ابن أخت ابن ميمون، الذي يقول في توقيع آخر إنه أنهَى نسخته في أغسطس ١٢٠٥م، وإن الأستاذ لم يُتَح له الوقت لمراجعة آخرها قبل وفاته (التي كانت في ١٣ ديسمبر ١٢٠٤م)(٣٩). وقد أشرت في بداية هذه المحاضرة إلى أنه لا توجد نسخ مطبوعة للنص العربي الأصلي لهذا الكتاب الطبي الكبير لابن ميمون. وأظن أنه واجب على الهيئات العديدة التي تهتم بالتاريخ اليهودي أن تتولَّى نشر هذا العمل «فصول ابن ميمون».

وقد عرفنا محتوى هذا الكتاب من خلال الترجمات العبرية واللاتينية. ويقول ابن ميمون في أوله إنه كتبه لنفسه ولغيره من الأطباء ليسهِّل عليهم معرفة الأعمال الضخمة للطبيب اليوناني جالينوس. وقد وضع خمسة وعشرين فصلًا لخَّص فيها أكثر من ألف وخمسمائة حكمة طبية. ونحن لا نتفق إطلاقًا مع قول عبد اللطيف إن هذا الكتابَ تجميعٌ دقيق يخلو من الآراء الخاصة. فعلى

كتب أخرى، وشرط أن لا يغير فيه حرفًا إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل، وإنما ينقل فصولًا لا يختارها». عيون الأنباء: ٦٨٧. (المترجمة)

(٣٨) I. Pagel, Maimuni als medizinscher Schriftseller. Dans Moses ben Maimon, Frankfurt 1908. Vol. I, p.231 suiv.

(٣٩) .Steinschneider, Die hebraeischen Uebersetzungen des Mittelalters. Berlin 1893, p.766

العكس من ذلك، أضاف ابن ميمون العديد من الملاحظات كان يبدؤها بقوله: «يقول موسى». ويلفت الانتباهَ الفصلُ الأخيرُ (الخامس والعشرون)، حيث ينتقد فيه ابنُ ميمون آراءَ جالينوس، رغم أنه كان المرجع الأساس لكل الأطباء في العصور الوسطى، فيشير إلى أكثر من أربعين مادة ناقَضَ فيها اليونانيُّ الشهيرُ نفسَه. وفي السطور الأخيرة من مقاله، دَحَضَ ابن ميمون آراء جالينوس الغائية في نشأة الكون، وأكّد على صحة الرواية التوراتية في هذا الأمر.

وقد ألّف ابن ميمون أيضًا ثمانية كتب طبية، طُبعت أربعة منها في ترجماتها اللاتينية والعبرية منذ وقت طويل. ومؤخرًا قام الحاخام هرمان كرونر Herman Kroner بنشر خمسة منها، مصحوبة بترجمة ألمانية وتعليقات(٤٠). وهي أول نشرة للمقالات الطبية لابن ميمون في نَصِّها الأصلي. وقد أحدثكم عنها في مؤتمر آخر.

وسوف أذكرها الآن دون النظر لمحتواها: كتاب في السموم، ألَّفه في عام ١١٩٨م تقريبًا، لراعيه "القاضي الفاضل"، مقالة في الربو، مقالة في البواسير، مقالة في الباه، مقالة في تدبير الصحة، مختصرات من كتب جالينوس، تعليق على حكم أبقراط، ورأي في أسباب الحمى لدى حاكم الرقة (ابن صلاح الدين الذي كان يعاني من نوبات اكتئاب mélancolie). وبالإضافة إلى ذلك يوجد عدد من الكتب الطبية المنسوبة زيفًا لابن ميمون، ومعظمها بالعبرية.

(٤٠) H. Kroner, Ein Beitrag zur Geschichte der Medizin. Obedorf-Bopfingen 1906 (Hygiène des rapports sexuels, texte hébreu); Le même, Eine medizinische Maimoiides Handschrift aus Granada. Dans Janus, vol. 20, Leyde 1916, p.203-247. (Texte arabe du même traité); Le même, Die Haemorroïden in der Medizin des XII und XIII. Jahrhunderts. Ibidem 1911, p.411-456, 645-718. (Texte arabe des Hémorrhoïdes); Le même, Fî tadbir as-sihhat. Ibidem Leyde 1923-25, vol. 27, p.101-116, 286-300, vol.28, p.61-74, 143-152, 199-217, 408-472, vol. 29, p.235-258. (Texte arabe de l'Hygiène pour le sultan Al-Afdal); Le même, Der medizinische Schwanengesang des Maimonides (Fî bayân al-a'râd). Ibidem, Leyde 1928, vol. 32 p.12-116 (Consultation sur les causes des accidents du sultan al-Afdal, texte arabe).
وقد قال د. كرونر Kroner إنه سوف ينشر كتابي الربو والسموم.

ونذكر هنا أن ابن ميمون في مقدمة كتابه "شرح فصول أبقراط"، يستمر في جداله ضد جالينوس، وينتقد إسهابه في تعليقاته. وفي المقابل يَعِد بألا يعلّق إلا على النقاط الغامضة لدى أبقراط، وأن يبذل قصارى جهده ليكون موجزًا[٤١].

وكان تأثير كتب ابن ميمون التي تُرجمت إلى اللاتينية كبيرًا في الغرب، وخاصةً في فرنسا. فنجد اقتباسات عديدة من كتابات الطبيب الفيلسوف اليهودي الكبير في مؤلفات الجرّاحَيْن هنري دي موندفيل Henri de Mondeville وجي دي شولياك Guy de Chauliac (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين). وغني عن الذّكر أنّ كتب الطب العربية بعد القرن الثالث عشر تُكثِر من ذكر ابن ميمون.

ومن بين تلامذة ابن ميمون في الطب، نكتفي بذكر أشهرهم: يوسف بن يهودا Joseph ben Yehoûda (ابن عَقْنِين) الذي يرجع أصله إلى سبتة (المغرب) والمتوفَّى في حلب عام ١٢٢٦م[٤٢]، كما كان كثيرٌ من نسل ابن ميمون المباشرين أطباء مَهَرة، ومنهم ابنه إبراهيم (ت ١٢٥٤م)، وحفيده داود (ت ١٣٠٠م)، وأبناء هذا الأخير: إبراهيم بن ميمون الثاني (ت ١٣١٠م) وسليمان. وكان سليمان هذا "ناجيد" طائفة اليهود في مصر[٤٣].

وفي القرن الثالث عشر، كان بمصر، وخاصة بالقاهرة، عدد كبير من الأطباء اليهود، من الربانيين والقرّائين. ولكن الوقت لا يسع الكلام عليهم الآن.

وأخيرًا، لنا كلمة عن طبيب يهودي مصري، تفاصيل حياته غير معروفة، ولكن كتابه الوحيد لا يزال مُتداوَلًا بين أيدي العطارين في المشرق العربي. وهذا الطبيب هو أبو المنى بن أبي نصر بن حافظ الهاروني الإسرائيلي، المعروف باسم كوهين العطار. وقد ألّف في ١٢٦٠م، بالقاهرة، مقالًا بعنوان "منهاج الدكان ودستور الأعيان"، وقال فيه إنه ألَّف هذا الكتاب لابنه في ٦٥٨هـ(١٢٦٠م).

(٤١) Steinschneider, Die Vorrede des Maimonides zu x. Comm. Ueber die Aphorismen des Hippokrates. Zeitschri. D. Dtsch. Morgenlaed. Gesellsch., 48, 218 suiv., 1894.

(٤٢) M.S. Munk, Notice sur Joseph ben Ichoudah ou Abou'l Hadjâj Youssouf ben Yahyâ al-Sabtî al-Maghribi. Journal Asiatique 1842; Steinschneider, Josef (Ibn) Aknin. Dans Gesammelte Schriften, Berlin 1925, p.3 suiv.

(٤٣) Steinschneider, Zur Literatur des Maimoniden. Breslau 1863 et 1901.

وتوجد مخطوطات عديدة لهذا الكتاب، نجد قائمةً بها لدى شتينشنايدر Steinschneider[٤٤]وقد طُبع الكتاب في بولاق في عام ١٢٨٧هـ(١٨٧٠م)، وفي القاهرة في الأعوام ١٣٠١هـ(١٨٨٣م)، و١٣٠٥هـ(١٨٨٧م)، و١٣٣٠هـ(١٩١٢م)، وعدة طبعات أخرى حتى أيامنا هذه. وكما قلنا، فإن عطّاري الشرق يضعون هذا الكتاب في مكانة عالية، وهو ما تبرهن عليه الألقاب التي تضفيها النصوصُ المطبوعة على المؤلف: (أفلاطون زمانه ورئيس أوانه). وبالفعل فإن هذا الكتاب يقدم ملخَّصًا كاملًا للأدوية المركَّبة التي عرفها العرب، ويعود كثير منها إلى الطب اليوناني. وينقسم الكتاب إلى خمسة وعشرين فصلًا تتناول بشكل منظّم: الأشربة، المربيات، المعاجين، الربوبات، الأقراص، الأكحال، المراهم، الأطلية واللطوخات... إلخ. وفي الفصل الثالث والعشرين يقدّم المؤلف نصائح عملية للصيادلة، وفي الرابع والعشرين يتناول كيفية جمع وحفظ الأدوية المفردة، وفي الخامس والعشرين يعرض لوسائل اختبار الأدوية المركبة، ويشير فيه أيضًا إلى وسائل تعرُّف الغشِّ في الأدوية. ومن بين الكتب الطبية التي يذكرها، هناك أعمال اليونانيين: جالينوس وفيلون وبولس الإيجي، والمسلمين: الرازي وابن سينا وابن رضوان وابن رشد وابن زهر، والمسيحيين: الكندي وابن ماسويه وابن جزلة، واليهود: أوحد الزمان وابن بيان وابن جميع وابن المُدَوَّر وابن رحمون، وأبي المعالي تمام أحد معاصري وزملاء ابن ميمون.

ويذكر لوسيان لوكليرك، المؤرخ الفرنسي للأطباء العرب، أن المنهاج يعد «أحد أفضل الكتب التي وصلتنا في هذا المجال، سواء في الشكل أو في العقلية التي وضعتها»[٤٥]. ويختم مقاله بقوله: «إن المنهاج أحد أعظم الآثار التي تركتها لنا الصيدلة». ونحن نضيف أنه إذا كانت القيمة العملية لهذا الكتاب مشكوكًا فيها في أيامنا هذه، لأنه يقدم وصفات للطب الشعبي وللدجالين، إلا أن قيمته التاريخية لا تُقدَّر بثمن.

ونلاحظ أن الأطباء اليهود في العصر العربي عانوا من نفس الاضطهاد الذي تعرّض له كل اليهود في الشرق والغرب، ولكنهم استطاعوا بموهبتهم الفطرية في الطب أن ينالوا حظوةً لدى الحكام والكبراء، ما سمح لهم في أغلب الوقت أن يخففوا من وطأة المصير التعس لإخوانهم في

(٤٤) Steinschneider, Eine arabische Pharmakopie des XIII. Iahrhunderts Zeitschr. D. Dtsch. Morgenl. Gesellsch., 56, 74-85, 1902.

(٤٥) L. Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe, vol. II, p. 215-217.

الدين. ولكن دورهم الأهم كان يتمثل في قيامهم بالوساطة العلمية بين الشعوب، بين الشرق والغرب، فقد ترجم حسداي بن شبروت، لأحد الحكَّام المسلمين، أكبرَ كتب الصيدلة من اليونانية إلى العربية، وذلك بمساعدة راهب يوناني. أما أعمال إسحاق الإسرائيلي وابن ميمون فقد غزت الشرقَ بأصولها العربية، والغربَ بترجماتها اللاتينية.

إن الفكر العلمي لا يعرف الجيتوهات ولا التعصب.

ماكس مايرهوف

القاهرة

طبعات رسالَتْي القَسْطلاّني حول المخدِّرات

د. لطف الله قاري(*)

عرف الإنسان النباتات المخدِّرة منذ القِدم. وقد ذكرها الأطباء في حضارة الإسلام، وذكروا استعمالها بكميات محددة لتسكين الألم أو التخدير. لكن إساءة استعمالها للحصول على النشوة -ومن ثم الإدمان عليها- لم يُعرفا في بلاد العرب والمسلمين قبل أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين، أي نحو ٦٠٠هـ. ولو أن هناك نصوصًا تاريخية تثبت أن البعض في بلدان محددة استعملها للنشوة والإدمان في القرن الخامس (٤٠١ - ٥٠٠هـ)، فإن تلك الاستعمالات المبكرة قبل ٦٠٠هـ ظلت محدودة الانتشار.

وحالما أدرك علماء الإسلام ضرر انتشار ظاهرة المخدرات تصدوا لها بمؤلَّفات تفيد بضررها، وتُبيِّن حرمتها في شريعة الإسلام. ومن أوائل مَن كتب حولها الطبيب الصيدلي العَشّاب ابن البيطار، حيث يقول في مادة «قنـــب» في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»: «ومن القُنَّب نوع ثالث يقال له القُنَّب الهندي، ولم أرَه بغير مصر، ويُزرع في البساتين، ويسمّى بالحشيشة عندهم أيضًا، وهو يُسْكِر جدًّا إذا تناول منه إنسان يسيرًا قدر درهم أو درهمين، حتى إنَّ مَن أكثر منه يُخرجه إلى حد الرعونة. وقد استعمله قوم فاختلّت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قَتَلتْ. ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى، فمنهم مَن يطبخ الورق طبخًا بليغًا، ويدعكه باليد دعكًا جيدًا، حتى يتعجّن ويعمله أقراصًا، ومنهم مَن يجفّفه قليلًا ثم يحمّصه ويَفْرُكه باليد، ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر، ويَسْتَفُّه ويُطيل مضغه فإنهم يَطْرَبون عليه ويفرحون كثيرًا، وربما يُسْكِرهم، ويخرجون به إلى الجنون أو قريبًا منه كما قدمنا، وهذا ما شاهدته من

(*) مستشار وعضو إدارة «هيئة تاريخ العلوم والتكنولوجيا في المجتمعات الإسلامية» التابعة للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم، للفترة ٢٠١٣-٢٠١٧.

فعلها، وإذا خيف من الإكثار منه فليبادر بالقيء بسمن وماء سخن، حتى تُنقّى منه المعدة، وشراب الحُمّاض لهم في غاية النفع».

وألّف أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي (٥٨٥ - ٦٧٢هـ/ ١١٨٩ - ١٢٧٤م)، رسالة بعنوان «زهر العريش في تحريم الحشيش»، مفقودة لم تصل إلينا[١]. وفيما بعد استعمل الزركشي (ت ٧٩٤هـ) العنوان نفسه لتأليف رسالة حول الموضوع.

وكتب القرافي (ت ٦٨٤هـ) نبذة عن المخدرات في كتابه «الفروق». وهي بعنوان «الفَرْقُ الأربعون بين قاعدة المُسْكِرات وقاعدة المُرْقِدات وقاعدة المُفْسِدات»[٢].

وكتب ابن غانم المقدسي (ت ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م) نبذة بعنوان: «مجلس في ذم الحشيشة». نشرها كامارا Cámara في كتاب ترجمةُ عنوانه الإسباني بالعربية هو: «ثلاث رسائل عربية حول القُنّب الهندي»[٣].

كانت هذه هي المؤلفات التي سبقت أو تزامنت مع تأليف قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد القَسْطلّاني (٦١٤ - ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) رسالتيه: «تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة»، و«تتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم» اللتين نتحدث عن طبعاتهما هنا.

وجاءت بعدهما كتابات أخرى، منها لابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) في فتاويه، وفي رسالة خاصة بالموضوع لم تصل إلينا. ومنها ما كتبه الذهبي (٦٤٣ - ٧٤٨هـ/ ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) في كتاب الكبائر، ورسالة «زهر العريش في تحريم الحشيش» للزركشي (ت ٧٩٤هـ)، ورسالة «إكرام مَن يعيش بتحريم الخمر والحشيش» للأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، وغيرها في القرون التالية.

---

(١) المقرّي، **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٧، ج٢: ١٤٠-١٤١؛ إسماعيل بن محمد أمين البابانى البغدادي، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بيلگه الكليسي، مج. ١ (إستانبول: وكالة المعارف، ١٩٥١): ٦١٨؛ كوركيس عواد، **مصادر النباتات الطبية عند العرب**، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٦: ١٢.

(٢) القرافي، أحمد بن إدريس، **كتاب الفروق**: **أنوار البروق في أنواء الفروق**، تحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠١، ج١: ٣٦٣-٣٦٥.

(٣) Cámara, Indalecio Lozano. *Tres tratados arabes sobre el cannabis indica*, (Madrid: Agencia Española de Cooperación Internacional, 1990), pp. 15-44. النص العربي بين الصفحات ٢٥-٣٢.

ألَّف القسطلاني رسالته الأولى «تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة». فردّ عليه الحسن بن محمد العكبري (ت حوالي ٦٩٠هـ) برسالة عنوانها «السوانح الأدبية في مدائح القنبية». وهنا ألّف القسطلاني رسالته الأخرى بعنوان «تتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم»، ردًّا على العكبري.

طبعات رسالة «تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة»

في عام ١٩٩١م، أتمّ الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدان النجدي (١٩٥١ - ٢٠١١م) -وهو من البحرين- رسالة الدكتوراه، في جامعة الزيتونة بتونس، في ٤٠٤ صفحة. وهي بعنوان «قطب الدين القسطلاني وكتاباه تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة وتتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم: دراسة و تحقيق».

وفي سنة ١٩٩٣م، صدرت رسالة الدكتوراه المذكورة في كتاب بالقاهرة، عنوانه « كتابا تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة وتتميم التكريم لما في الحشيشة من التحريم، للإمام قطب الدين القسطلاني» دون ذكر الناشر، إذ كان على نفقة المحقق، في ٣٢٠ صفحة.

وكذلك في سنة ١٩٩٣م أنجز كامار Indalecio Lozano Cámara رسالته للدكتوراه. وترجمة عنوانها الإسباني بالعربية هو: «دراسات ووثائق حول تاريخ القُنـَّب والحشيش في الإسلام خلال العصور الوسطى»(٤). وتحتوي على النص العربي -مع ترجمة ودراسة بالإسبانية- للنصوص الآتية: (١) تكريم المعيشة للقسطلاني، (٢) فقرات من رسالة «السوانح الأدبية في مدائح القنبية» للعكبري، نقلًا عن المقريزي، (٣) تتميم التكريم للقسطلاني، (٤) مختارات من كتاب «راحة الأرواح في الحشيش والراح» (تأليف تقي الدين عبد الله بن عبد الله بن محمد البدري، ت حوالي ٨٥٠هـ)، وفيها نُقولٌ من رسالة «السوانح الأدبية» للعكبري.

---

(٤) Cámara, Indalecio Lozano. Estudios y documentos sobre la historia del cáñamo y del hachís en el islam medieval, (Tesis Doctoral, Universidad de Granada, 1993).

وفي سنة ٢٠٠٥م نشر كامارا نفسُه نصَّ رسالة «تكريم المعيشة» في مجلة القنطرة، مع دراسة وترجمة بالإسبانية(٥).

ثم طُبعت رسالتا القسطلاني مؤخرًا (٢٠١٩م) في الكويت، في طبعة نؤجِّل الحديث عنها إلى ما بعد استعراض طبعات الرسالة الأخرى.

طبعات رسالة «تتميم التكريم»

في عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، نُشِرت رسالة «تتميم التكريم» بتحقيق الدكتور ياسين بن ناصر الخطيب، نَشْرُ المحقِّق، في مكة المكرمة.

ونُشِرت في نفس السنة كذلك ضمن رسالة الدكتوراه السابق ذكرها للحميدان النجدي. وكذلك ضمن الكتاب الصادر سنة ١٩٩٣م في القاهرة، السابق ذكره، للحميدان النجدي.

ونُشِرت في سنة ١٩٩٣م ضمن رسالة الدكتوراه التي ألّفها كامارا، وقد سبق ذكرها.

وفي سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م نُشِرت الرسالة في «مجلة البحوث الفقهية المعاصرة»، بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن محمد الزيد(٦).

طبعة الكويت

صدرت مؤخرًا (١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م) طبعة جديدة لرسالتي «تكريم المعيشة» و«تتميم التكريم»، ناشرها «مركز المخطوطات والتراث والوثائق» بالكويت. وهو مؤسسة خيرية أسسها ويرأسها رجل كريم فاضل، يجذب كل مَن يتعامل معه بحسن أخلاقه وكريم صفاته، وهو الدكتور محمد بن إبراهيم الشيباني، وهو غير محقِّق هذه الطبعة.

---

(٥) Cámara, Indalecio Lozano. "Edición crítica del 'Kitab takrim al-ma 'isa bi-tahrim al-hasisa' de Qutb al-Din al-Qastallani", Al-qantara: Revista de estudios árabes, vol. 26, Fasc. 2, 2005, págs. 337-356..

(٦) العدد ٢٠، السنة الخامسة، رجب - رمضان ١٤١٤هـ(يناير- مارس ١٩٩٤م): ٨٢-١٦٢.

لكن هناك ملاحظات على هذه الطبعة نوجزها في الآتي:

١) كما رأينا في الاستعراض السابق فإن رسالة «تكريم المعيشة» طُبعت في الماضي ما لا يقل عن أربع طبعات. ورسالة «تتميم التكريم» طُبعت قبل طبعة الكويت ما لا يقل عن خمس طبعات. ولا يَذكر المحقِّق أيًّا من هذه الطبعات، سوى قوله إن الدكتور عبد العزيز الحميدان النجدي قام بتحقيقهما في رسالة دكتوراه، وإن رسالة الدكتوراه هذه -حسب قوله- ما تزال مخطوطة لم تُنشر بعد.

٢) رسالة الدكتوراه للحميدان النجدي -رحمه الله- كما رأينا مطبوعة طباعة جيدة في كتاب. والواضح أن المحقِّق لم يطلع عليه، وإلا لكان استفاد منه كثيرًا، فهو عمل جيد خدم النص المحقَّق، وقدِّم له بدراسة مستفيضة عن المؤلف وكتابه.

٣) يقول المؤلف (ص ٢٥) عن كتاب «ثلاث رسائل عربية حول القُنَّب الهندي» بالإسبانية -السابق ذكره-: إنه يحتوي على مجلس في ذم الحشيشة لابن غانم المقدسي، وتحليل لرسالتي القسطلاني (التكريم والتتميم)، وتحقيق نص «زهر العريش في تحريم الحشيش» ونظمه.

والواقع أن محتويات الكتاب الإسباني مختلفة؛ فهو لا يحتوي على تحليل لرسالتي القسطلاني. ومن محتوياته التي لم يذكرها، دراسة وترجمة بالإسبانية لرسالة «قمع الواشين في ذم البرّاشين» لابن الجزار. فهذا دليل على أن المحقق لم يطلع أصلًا على الكتاب الإسباني.

٤) الكتاب فيه مخالفات عديدة لقواعد التحقيق، بخاصة تحقيق الكتب التي بها مواد طبية ونباتات؛ فلم يقم بشرح أية مادة من تلك المواد شرحًا عصريًّا، وكان المطلوبُ شرحَها باختصار شرحًا يخاطب به المحقق أبناء عصرنا، بذكر الاسم العلمي للنبات، وتعريفه بناءً على المراجع الحديثة، وليس تعريفات منقولة من كتب تراثية، مثل «تاج العروس» وغيره.

٥) الكشافات: أي ترتيب المواد وأسماء الأعلام وغيرها على الحروف الهجائية في آخر الكتاب المحقَّق، وهي من متطلبات التحقيق، كما نصت عليه مختلف الكتب المعتمدة في قواعد

التحقيق. وهذا الكتاب يحتوي على رسالتين صغيرتين، لا يتطلب إعدادُ كشافات لهما جهدًا كبيرًا. لكن المحقِّق لم يلتزم بهذا.

رحم الله الشيخ حمد الجاسر؛ لم يكن يعمل في جامعة، ولم ينل أية شهادة جامعية، لكنه في تحقيقاته الجيدة لم يدع كتابًا دون أن يُلحق به الكشافات.

٦) المحقق يسرد في آخر الكتاب قائمة طويلة من المصادر والمراجع التي لم يرجع إليها ولم يستخدمها. ويستطيع القارئ مقارنة عناوينها مع الإحالات التي في حواشي النص ومقدمة التحقيق، ليجد أن أكثر ما ورد في تلك القائمة الطويلة لم يرجع إليه المحقق.

خاتمة

كتب الكثيرون عن التحقيقات السيئة التي تسيء إلى التراث، بدلًا من إحيائه وتقديمه حسب المناهج المتفق عليها، أي مناهج تحقيق النص التراثي عمومًا، وليس بالضرورة النص العلمي. ولا يتوقف هذا السيل من الإنتاج الرديء في رأيي المتواضع إلا بحلول عملية، تتبناها جميع الدول العربية. ومن هذه الحلول أن تتبنى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية نظام جودةٍ لتحقيق النصوص التراثية. فيتفق وزراء التعليم والثقافة العرب على إنشاء مجامع علمية في كل دولهم، يكون من مهامها إعطاء شهادة جودة لكل كتاب تراثي يُطبَع محققًّا. فتكون علامةُ الجودة المعتمَدة بارزةً على كل طبعة. وبذلك يختار القارئ الكتاب الذي عليه علامة الجودة، ويترك ما سواه.

وحتى يتحقق ذلك، فإنني أقترح أن يَكثُر نشر مراجعات نقدية للكتب سيئة التحقيق، يكتبها الأكْفَاء المتمكنون، وبخاصة المعروفون منهم. وأن تُخصَّص في كل صحيفة ومجلة صفحاتٌ لمراجعات الكتب. فيَعلم كلُّ مَن يتصدى للتحقيق أن النقد له بالمرصاد. فيُتقن عمله، أو يكفّ عن إساءته إلى التراث. هذا ما يحصل في البلدان المتقدمة؛ كل كتاب يصدر هو عرضة للمراجعة والنقد، وتبيان سلبياته وإيجابياته.

ولعل الأساتذة المتمرسين في التحقيق يطرحون حلولًا أخرى توقف الإساءة الحالية المستمرة إلى التراث.



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ISSN 3283-2636

‘Ulūm Al-Makhtūt

Annual Peer-Reviewed Journal

Fourth Issue
2021

مركز المخطوطات
Manuscripts Center